خلیفہ الفاخری



موسم الحکایات

خليفة الفاخري

موسم الحكايات

مجموعة قصص ومقالات

« الطبعة الاولى »
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

المحتويات

صفحة

موسم الحكايات

● **هـذا موسم الحـكايات ..**

موسم السعى خلف وجـوه الأصدقاء ، والذكريات ، وأسراب الـكلمات الطيبـة ، والأماكن الغـامرة بالضوء والبهجة ، واحتشاد النـاس فى محطات القطار ، ومشاهد اللقـاء والوداع الدامعة العينين ، والرحيل ، ومشاعر الغربة فى الداخل والخارج ، والأرصفة الملتمعة بعد احتباس المطر ، والطرقات المهجـورة فى وحشـة المساء .. والاحـساس بالوحـدة !

أجـل ، هذا موسم الحكايات ..

فعندما يغلق المقهى أبوابه ، وينفض كل الرواد فى جماعات متتالية ، هاربين مثـل الشرر من المطر الشـتائى البغيض

الى أقرب (مربوعة) دافئــة ، ثم لا يعود أمامك سوى أن تعود الى الغرفة (٢١١) ، الى غرفتك العالقــة بالسماء ، أعنى فى الدور الأخير من ذلك الفندق ، وتظل تصافح حزم الورق طويلا هناك ، وتعيد قراءة رسائل أصدقائك ، وتمعن فى صورهم المهداة اليك ، ثم تسرح خواطرك مثل سحابات ريشية ، الى أن تقف خلف النافذة المطلة على الشارع المقفر ، فيما تتطلع بين حــين وآخر الى عروق المطر فوق الزجاج ، حاملا فى قلبك آلاف الكلمات النابضة فى صدرك على نحو غير مريح ، متمنيا لو كان ثمــة من تحكى له .. ، عندئذ تعتريك رعشة تغــربل جسدك كله .. وتشعر بالوحدة ، عندئذ فقــط يبدأ موسم الحــكايات .. أجــل ، موسم الحــكايات .

وأنا أريد الليلة ، أن أحكى لك — أينما وكيفما كنت لقد سردت حكاياتى لنفسى طوال ليال عديدة ، وأنا أشعر الآن أننى أحكى — على نحــو ما — لنفسى أيضا ، فليس ثمة — فى الواقع — أى فرق على الاطلاق ، ولذا فلتحاول أن تستمع جيدا الى نبضات قلب الغرفة (٢١١) ، فلربما كان هناك ما يستحق الانصات .

● تقول الحكاية الاولى ..

كان ثمة مخلوق يسكن فى أحد الفنادق فى بنغازى الضيقة الصدر ، وكانت غرفته لا تحتوى سوى آلة كاتبة ، وحزمة من الورق ، ومنفضة سجائر ، وبعض الأثاث القديم ، وكان صامتا طول الوقت ، ولكن عندما يطول الليل الى حد تتمنى أن تحكى فيه لأحد ما ، تنبعث – عبر الصمت – أصوات الحروف فوق الآلة الكاتبة ، ممزقة سكون الليل ، وأحلام النزلاء فى الغرف المجاورة .

وطفق الرواد يشتكون بلا انقطاع ، لأنهم يريدون أن يحلموا فقط ، على حين ظل يواصل حكاياته لآلته الكاتبة ، شاعرا بصداقة الحروف التى ستقبل ذات يوم عيون الآخرين المستغرقة الآن فى نوم عميق ، ولم يعد أمامه سوى أن يغير غرفته فى نفس الفندق .. وتكررت نفس الشكوى ، وتكرر تغيير الغرف ، بينما لم يحدث أى تبدل فى مسلكه سوى أنه اكتشف حقيقة بالغة الأهمية هى أن الغرف كلها واحدة سواء فى الفنادق أو منازل الأهل أو الأصدقاء ، أو حتى فى البيوت المهجورة هناك ، فى أقصى الأرياف ، أثناء رحلة ما .

الشىء الوحيد الذى يتغير هو الانسان نفسه .

فعندما تفتح عينيك فى الصباح فى غرفة جديدة ، تشعر فجأة بالذهول ، وتحاول أن تتذكر جيدا ، فى لحظات استيقاظك الأولى ، أين نمت ليلة البارحة ، محاولا أن تتعرف على الجدران ، والأثاث ، وجهة النافذة أو مكان الباب ، الى أن تكتشف أنك نمت فى غرفة أخرى أو منزل آخر ، وليس فى حجرتك المعتادة !

ذلك المخلوق لم يعد يعتاده هذا الشعور ، لم يعد يشعر بالحيرة حين يستيقظ ، ذلك انه أدرك أن السقف واحد ، وأن الأرض واحدة ، وأن الانسان وحده هو الذى يضع الفروق بين الغرف ، والمنازل ، والمدن ، وبين البشر كذلك !

● تقول الحكاية الثانية ..

عندما كان العجوز يطوف بقاربه فى عرض المحيط ، محاولا دون جدوى أن يصطاد سمكة ما (فى قصة الشيخ والبحر - للكاتب همنجواى) ، انتابه شعور حاد بالوحدة ، قال المؤلف :

« .. وأجال بصره فى البحر ، واستشعر مدى الوحدة التى تكتنفه هناك الآن ، ولكنه ظل قادرا على أن يرى مواشير الضوء فى المياه العميقة الغامقة الزرقة ، والى امتداد

الخيط مندفعا الى الأمام ، والى تموجات البحر الساجى العجيبة .. كانت السحب تنهض الآن فى وجه الريح التجارية ، وتطلع أمامه فرأى سربا من البط البرى يناطح السماء ، ثم يغيب ، ثم يبدو من جديد .. وأدرك الشيخ أن المرء لا يمكن أن يكون وحيدا ، وحدة كاملة ، فى عرض البحر .. » !

فحين يكون قلبك كبيرا ، تستطيع أن تعانق كل شىء ، باعتبار أنه صديق لك ، كل الأشياء تصبح ذات مدلول عاطفى دافىء .. كل الأشياء : الأشجار ، والطيور ، والمساكن ، والتراب ، والحارات ، والقمر ، والمساجد ، والكنائس ، ولعب الأطفال ، والعملات القديمة ، والكتب ، ومحطات القطار ، والمقاهى .. فما بالك بالانسان !

● **تقول الحكاية الثالثة ..**

كان ثمة امرأة تبيع السجق (المرقاز) أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان ابنها الوحيد قد جند وذهب للجبهة . ثم عندما طالت الحرب ، انقطعت أخباره تماما ، ولم يعد ثمة من يدرى هل قتل ، أو فقد ، أو هرب من الجيش .

كانت أمه طيلة الأعوام الأولى للحرب تشترى اللحم ،

وتصنع منه السجق ، ثم تبيعه منتظرة انتهاء هـذه الحرب لكى يعود ابنها الذى لم تعد تعرف عنه أى شىء .. ولـكن الحرب طالت .. وطالت الى حد لم يجد الناس فيه أى شىء يأكلونه ، كل الأغذية الملحة اختفت .. بما فى ذلك اللحوم . ولم تجد العجوز - بائعة السجق - أمامها أية حيلة سوى أن تغتال الكلاب ، وتصنع من لحومها سجقا تبيعه للناس !

ونجحت الحيـلة ..

نجحت رغم كل مشاعر الحزن ، والفقد ، والنوايا الطيبة ، وكراهية الحرب والعداء ، وانتظار الابن العائد من الجبهة ، ولكن العجوز توقفت عن ذلك ذات يوم ، ممتلئة بالذهول والموت .. فعندما كانت تفتح أمعاء أحد الكلاب ، وجدت أن الخاتم الذى أهدته لابنها ، قبل الحرب ، فى عيد ميلاده كان موجودا هناك .. فى أمعاء الكلب !

تقول نفس الحكاية : لا تخدع أحدا .. حتى الكلاب ، لكن أمنا لم تدرك ذلك بعـد !

● **تقول الحـكاية الرابعـة ..**

كل الناس يعرفون (بالرايس) ، ذلك الرجل الذى يذرع شوارع المدينة باتصال ، ولكن مالا يعرفه الكثير منهم هو أنه

كان تقيا ، ورعا الى أقصى مدى .. كان يحفظ العـديد من الأوراد والأذكار ، ويشـارك الآخرين فى تلاوة قصائد (البغدادى) فى أعياد المولد النبوى . كانت أمه مجرد مرابية عجوز ، وقد قرر أن يذهب بها الى بيت الله الحرام لكى تتمكن من أن تغسل خطاياها هناك بماء زمزم .. غـير أن العجوز ماتت فجـأة تحت لهيب الشمس فيما كانت ترجم الشيطان الخرافى !

كانت الشمس دانية ، عارية ، حارقة ، كانت تبدو معلقة فوق الرؤوس مباشرة ، وما كان بوسع أحد هناك أن ينظر اليها بعينيه معـا .

هكذا تقول بداية الحكاية ، ولكن ما حدث بعدئذ يدعو الى الغرابة حقا ، اذ أن بالرايس عنـدما رجع الى بنغازى بمفرده طفق يسكر كل يوم بشدة ، ويذرع - مخمورا - شوارع المدينة باتصال !

● **تقول الحـكاية الخامسة ..**

ان كثيرا من الناس يعتبر (مراده) مجرد واحة تقع فى ناحية الجنـوب ، والبعض يسميها قـرية ، والبعض الآخر تعلق بذهنه على أنها مجرد كيس من الرمال ملقى فى عرض

الصحراء ، غير أن الجميع يتفقون فى أن مراده كانت منفى فى زمن الاستعمار الايطالى .

كان ثمة رجل يدعى (محمد) من سكان مراده .. كان قد ولد وعاش هناك ، ولكنه اضطر - أثناء الحكم الايطالى - الى النزوح خلف رزقه الى بنغازى ، وانخرط فى عدة أعمال متباينة كان آخرها عامل مقهى .. وقد بدا الأمر من جميع الوجوه أن (محمد) أصبح يعيش حياة طيبة فى بنغازى ، رغم التجاعيد القلقة المرتسمة عادة على جبينه ، الى أن اتهم ذات يوم - مع بعض رفاقه - بموالاة المجاهدين ، ومحاولة تموينهم .

واقتيد على نحو فورى مع جماعته الى منفى مراده !

فى الطريق الى هناك ، كان رفاقه يشعرون بالرهبة والقلق العميقين ، حتى أن أحدهم لم يقل كلمة واحدة على طول الطريق ، الا أن ما يدعو الى الدهشة هو أن (محمد) لم يكن يشعر بشىء من ذلك ..

كان قد عاد الى أرض الوطن !

تقول بقية الحكاية : قد يكون المنفى وطنا فى كثير من الأحيان ، وقد يكون العكس !

● **تقـول الحكاية السادسة ..**

كان هناك رجل من سكان (امساعد) ، وقد تعود أن يعبر ، على دراجة ، منطقة الحدود الى (السلوم) كل يوم ، غير أنه كان يحمل معه فى كل مرة كيسا مليئا بالرمل ، وكان الشرطى الموجود هناك يقوم بتفتيش كيس الرمل حبـة .. حبـة ، لكى لا يكون ثمة مجال للتهريب ، غير انه كان يصاب بالخيبة دائما ، اذ لا يجد فى الكيس سوى الرمل .. وعندئذ يسمح للرجل بالعبور .. عبور (الحدود) !

وتكررت عملية العبور ، مثلما تكررت عملية التفتيش من قبل نفس الشرطى فى كل يوم .

بعد عـدة سنوات - وكان الشرطى قد ترك الخـدمة العسكرية - التقى فى بنغازى بذلك الرجل .

قال الشرطى فى مودة :

— أنا أعرف أنك كنت تهرب شيئا ما أثنـاء عبورك الى السلوم فى تلك الأيام ، رغم تفتيشى الدائم للكيس الذى كنت تحمله معك على الدراجة .. فماذا كنت تهرب ؟

قال الرجل ببساطة :

— كنت أهرب دراجات ! !

● **تقول الحكاية السابعة ..**

فى منامى ، أرى أحيانا أحلاما عجيبة ، عالما غريبا مليئا بالأحداث ، والأقمار ، والعيون ، والأجنحة ، والمركبات ، والضحك ، والبكاء . أرى أحيانا عالما قصى الأبعاد باتساع العالم ، مكتظا بآلاف الأشياء المذهلة . أرى ذلك فى المنام واليقظة على السواء .. وأصاب كثيرا – على اثر ذلك – بالحيرة !

ليلة البارحة ، وفى حلم عابر ، رأيت (السهروردى المقتول) ، وكنت قد قرأت رسالته (أصوات أجنحة جبرائيل) منذ بضعة أيام . كان متلفعا برداء فضفاض ، ناصع البياض .

كان مشرقا ..

وقد بدا مثل شبح مقدس مغزول من شعاع البرق ، فيما ظل معلقا فوق رأسى مباشرة مثل نورس هائل .. واعترتنى على الفور رهبة مشدوهة ، الا انه تطلع فى عينى بود بالغ ، فترددت قليلا ثم سألته :

– ما الذى كنت تعنيه فى رسالتك حين قلت : « البلد الذى لا أين له ، حيث لا تجد السبابة اليه متجها » ؟

لم يجبني ، لكنه أغمض عينيه كما لو أنه في غيبوبة ، ثم سمعته يغمغم بالآية الكريمة : (.. فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربى ..) . ثم اختفى فجأة مثـل شبح مقدس مغزول من شعاع البرق .

تركني وحيدا ، ولا أدرى الآن على وجه الضبط عما اذا كنت قد رأيت ذلك فى منامى .. أم فى يقظتى !

● **تقول الحـكاية الثامنة ..**

ذات يوم منعت من دخول المـانيا .

كان ذلك عقب أحداث (ميونيخ) ، وكنت قادما من ايطاليا عبر الأراضى السويسرية ، وفيما أنزلونى من القـطار عند الفجر ، ظل الصقيع ينخر عظامى الى حد الموت ، ولم أجد ثمـة من يود الاستماع الى كلماتى المحتجة ، كما لم يكن فى امكانى العودة من حيث أتيت ، اذ لم يكن لدى تأشيرة بذلك . كانت عيون الشرطة الألمان جامدة باردة مثل عيون السمك الميت ، وفيما كنت مقرورا اقترح على أحدهم أن أذهب الى الجحيم ، لكننى لم أذهب الى أى مكان ، بل بقيت هناك ، على أطراف مدينة (بازل) ، فى المنطقة التى يدعونها عادة بـ « الأرض

الحرام » ، أعنى لم أكن فى المـانيا ، كما لم أكن فى سويسرا أيضا •• كنت فى الوسط ، فى مكان لا يملكه أحـد على الاطلاق •• ولم يعد أمامى أى حل سوى أن أمشى مسافة طويلة حتى أصل المحطة الرئيسية فى (بازل) لكى أستقل القطار التالى الى فرنسا •

سرت طويلا ، ثم حين أدركنى التعب ، جلست متهالكا على الأرض المعشبة • كان شحوب الفجر قد انقشع الآن ، على حين بدأت أشعة الشمس تنهمر باتصال •• وتغمرنى بالدفء ، وتفتح عينى بشغف على تلك الأرض •• والضوء والسماء الشديدة الصفاء والعمق •

وانتابنى شعور بالارتياح •

لست فى سويسرا الآن ، لست فى ألمـانيا ، لست فى بيت أحـد • لست فى بيتى كذلك • وشعرت على نحو مباشر بانعتاق مذهل ، شعرت بالبهجة والجذل •• غير أننى عندما فكرت مليـا بعدئذ ، أحسست فجأة بحـزن جليل ينهض عبر صدرى •

•• لقد كنت وحـدى هناك !

● **تقول الحكاية التاسعة ..**

حين كنت صغيرا ، كنت أقتل وقتى باصطياد الطيور ، والبحث عن الاطعام فى خرب المدينة . كان كل ما أملكه حزمة فخاخ ، وكنت أعود الى البيت دائما وفى يدى قبعة مليئة بالعصافير الميتة .

كنت صغيرا ، ولكننى كنت أقتل الوقت ، والطيور ، والاطعام ، غير أننى استطعت أخيرا أن أحسن فخاخى بحيث لا يصاب العصفور بأى أذى حين يقع فى مصيدة (الغربال) أو (الطبق) ، وقد فعلت هذا عندما قيل لى أن (سى سليمان) — صاحب دكان البقالة فى شارعنا - يشترى كل عصفور بقرشين بشرط أن يكون لا يزال قادرا على الطيران . أعنى غير مصاب بأى أذى .

قالوا لى أشياء كثيرة أخرى عن (سى سليمان) ، ولكننى لم أصدق هذا فى البداية ، غير أننى حينما أحضرت له الطيور ذلك اليوم ، أعطانى ثمنها ، ثم أطلق سراحها على الفور ، وتركها تطير فى سموات الله أمام عينى المشدوهتين .

وتكرر ذلك فى كل مرة آتى اليه ، وقلت عنه فى البداية أنه أحمق ، ومعتوه ، قلتها فى داخلى مرارا ، ولكنى أصبحت

أشعر بالهزيمة المخجلة بطريقة ما ، حين كنت أرى طيورى تحلق عبر الدكان نحو سماء الشارع .

كان (سى سليمان) يشعرنى بالعار على نحو ما ، وكبرت وكبر معى هذا الاحساس .. ولكننى عندما وقفت على جسده الميت – بعدما داسته سيارة اسعاف منذ يومين – تذكرت كل شيء فجأة ، وشعرت تجاهه بالحب .. بالحب الغــامر .

● **تقول الحكاية العاشرة ..**

ذات مرة ، حملت معى حجابا للمحبة .

كنت قد اشتريته من (الفقى عبد الرسول) ، الذى قيل دائما انه صاحب اليد الطويلة . ولقد ضمخت الحجاب بماء الزهر ، وغمرته بسحابات البخور ، ثم وضعته فى جيب سترتى الأيسر – فوق القلب مباشرة – وذهبت به الى من أحب !

فى الطريق الى هناك ، كنت أمنى النفس بالعناق،متحسسا – بين حين وآخر – موضع الحجاب . لكننى صعقت بعدئذ حين قيل لى أنها تساوى وزنها ذهبا ، واننى مجرد فأر لايجيد سوى قرض الشعر .. والورق !

ذات مرة ، وفيما كنت أبحث عن سكن للايجار ، اكتشفت أن (الفقى عبد الرسول) قد تزوج من أحببت .. اشتراها بثمن أحجبته ، بنقودى ، وضمها الى زوجاته الثلاث !

كفرت بالأحجبـــة ..

وطفقت أذرع طريقى باحثا عن المحبة فى عيون الأطفال ، والنمال السارحة فى سفح الجدار ، والأعشاب المبللة بندى الفجر ، والاحساس بتنفس الأرض تحت قدميك ، والسماء ، والضوء المنبث ، وحنين الأمهات ، وشخير القطط الدافئة ، وهجرة الطيور ، وتثاؤب الصغار فى ليالى الشتاء ، وتدفق الأنهار صوب البحر ..

ظللت أذرع طريقى طيلة سنين .. وشعرت أخيرا بالاعياء والتعب ، ثم قيل لى فى النهاية أن المـــرء ، لكى يحب حقا ، لابد أن يموت .. أن يموت فى الحب .. أعنى هكذا ، على طريقة الفراشات ، والأنهار ، والحلاج .

● **تقول الحـــكاية الحادية عشرة ..**

.. ما أبعـــد الطريق !

● **تقول الحـــكاية الثانية عشرة ..**

ان (الحلاج) ، الذى أراد أن يفنى ذاته فى ذات الله ، قد

اتخذ من الصوفية منطلقا ثوريا لتحقيق العدالة الاجتماعية ، الأمر الذى دعا السلطة الى أن تجلده بالسياط وتصلبه ، ثم تقطع أوصاله ، وتقتله فى اليوم التالى ، ثم تحرقه ، وتذر رماده من أعلى مئذنة فى المدينة . كان ذلك فى سنة (٣٠٩هـ) وبالتحديد فى ٢٦ مارس سنة ٩٢٢ م .

يقول البياتى على لسان الحلاج ، متحدثا عن ربه :

(فى سنوات العقم ، والمجاعة
باركنى ، عانقنى ، كلمنى ..
ومـد لى ذراعه
وقال لى : الفقراء البسوك تاجهم
وقاطعو الطريق ،
والبرص ، والعميان ، والرقيق .
وقال لى : ايـاك !
وأغلق الشـباك ..)

فليس ثمة – اذن – من ليست له مصلحة حقيقية فى الله ، والشمس ، والثورة .. أليس كذلك ؟

● **تقول الحـكاية الثالثة عشرة ..**

الايقـاع الأول :

عندما تتحدث الى نفسك بصوت مسموع ، يقول عنك

الآخـرون انك جننت • وأنـا ، فى الواقـع ، أتحـدث الآن عبر الليل بصوت مرتفع حقا •• أعنى أن مقاطع كلماتى تحدث فرقعة هائلة من خلال الضرب على الآلة ، ورغم أننى أجلس وحدى هنا ، وتصدر حروفى صخبا عنيفا ، الا أن نزلاء الفندق لا يقولون عنى اننى مجنون •• انهم يقولون فقط اننى مزعج !

الايقـاع الثـانى :

حين ترى وجه أحد ما فى المرآة ، فلاشك انه يستطيع أن يراك أيضا ، وأنا أحاول أن أرى الناس - كل الناس - فى مرآة قلبى ، ولا أدرى على وجه الضبط عما اذا كانوا يرغبون فى رؤيتى ، أعنى فى رؤية مخلوق ممتلىء بالديون تجاه العالم كلـه !

الايقـاع الثـالث :

لقد تصورت دائما انك عندما ترى شخصا ما فى منامك ، فانه يراك فى حلمـه أيضا ، فى نفس الليلة • لقـد فكرت فى ذلك كثيرا ، وتخيلته طول الوقت • فلو كان هذا حقيقة ، اذن •• اذن لعششت فى أحلام الناس جميعا !

● **تقول الحكاية الرابعة عشرة ..**

ان الشاعر العالمى (بابلو نيرودا) قد مات فى الأحداث الأخيرة التى وقعت فى (تشيلى) ، ويقولون ان مذكراته قد تسربت الى بقاع العالم عن طريق صديقه الشاعر (رافائيل البرتى) ، وأنا أود الآن أن أكف عن الثرثرة ، وأن أنصت معك فى سكون لمـا يقوله (نيرودا) :

(.. فى بحيرة «بودى» كان يجرى صيد طيور « التم » – وهو نوع من الأوز – بطريقة فظيعة . كان الصيادون يقتربون خفية على الزوارق ، ثم يدفعون مراكبهم مجذفين بقوة ، فتنطلق بأقصى سرعتها . ان طيور التم هى كالغطارس ، تجد صعوبة عند بدء تحليقها ، فهى مضطرة للركض متزلجة على سطح المـاء ، وهى ترفع أجنحتها الكبيرة بجهد بالغ . وهكذا يلتقط الصيادون تلك الطيور الجميلة ، ويجهزون عليها بضربها بالهراوات .

أحضر لى مرة طائر تم أقرب الى الموت منه الى الحياة . كان أحد تلك الطيور الرائعة الجمال ، الفريدة فى العالم . التم الأسود العنق .. سفينة شراعية ناصعة البياض كالثلج ، وعنق مغلف بجورب حريرى أسود ، ومنقار يغلب عليه اللون

البرتقالى ، وعينان حمراوان . لقد حدث ذلك قرب البحر . وأتونى به شبه ميت ، وغسلت جراحه ، ورحت أملأ حلقومه بكسيرات الخبز وقطع السمك . لكنه كان ينبذ كل شىء ، الا أنه تغلب شيئا فشيئا على جراحه ورضوضه ، وبدأ يفهم بأننى صديقه ، وأنا بدأت أفهم أنه كان يموت لشدة حنينه الى مياهه وذويه .. وحينئذ حملت الطائر الثقيل الوزن على ذراعى ، وسرت به عبر الطرقات ، وأخذته الى النهر . وكان يعوم سابحا بعض الشىء قربى ، كنت أرغب فى أن يصطاد ، فأريته حصى القاع الصغيرة ، والرمل الذى كانت تنزلق عليه أسماك الجنوب الفضية اللمعان ، لكنه كان يوجه بصره الى بعيد .. بعيد .

وهكذا رحت يوما بعد يوم آخذه الى النهر ثم أعود به الى البيت . وظللت على ذلك زهاء عشرين يوما .. كان الطائر ، بعد ظهر أحد الأيام ، ظاهر الشرود ، ولم أنجح فى تسليته بمطاردة فئران الماء .. كنت أريد أن يتعلم مجددا عملية صيد الأسماك والحيوانات البحرية . ولبث هادئا كل الهدوء ، وعدت لأحمله على ذراعى للعودة به الى البيت . وحينئذ – وكنت ممسكا به على ارتفاع صدرى –

أحسست بشريط ينسدل ، أشبه ما يكون بذراع سوداء ، كانت تلامس وجهى ملامســه خفيفة . كان ذلك هو عنقه الطويل المتموج ، يسقط .

وهكذا عرفت أن طيور (التم) تموت دون احتضار ، حين تموت من الأسى !) .

فى مقطع آخر من المذكرات ، يقول نيرودا :

(.. لقد كنت انسانا سعيدا .. ان معرفة صداقة اخواننا هو عمل رائع من أعمال الحياة ، ومعرفة حب الذين نحبهم هى نار تمد الحياة بطاقتها ، والاحساس بحنان الذين نعرفهم ، والناس الذين لا نعرفهم ، هو أيضا احساس عظيم ورائع ، لأنه يزيد فى توسيع أبعاد كائننا ، واعطائها كل مداها . ثم تمتد لتشمل سائر الكائنات .

ومثل كوز الصــنوبر - ذاك المتروك هنــاك - تركت كلماتى على أبواب عديد من الناس الذين لا أعرفهم ، ولدى كثير من الســجناء ، والمتوحــدين المنعــزلين ، وضــحايا الاضطهاد) .

● **تقول الحكاية الخامسة عشرة ..**

كالعــادة دائمــا ..

هناك ، فى الفنــدق ، نزلاء مستديمون • وآخــرون مؤقتون ، بعضهم يأتى لليلة واحدة أو ليلتين ، وبعضهم يقيم لمــدة أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر •• ولكن النزلاء المستديمين يظلون مقيمين أبدا هنـــاك • وعن طريق المقهى ، فى الدور الأرضى ، يتعرفون على بعضهم البعض •

وكالعادة دائما ، يتطور الأمر الى ألفة وصداقة • ولا يعود ثمة حاجة ، حين تدخل المقهى ، الى أن تجلس بمفردك اذا كان أحد هؤلاء النزلاء هناك •

كنا نجلس مع بعض ، ونحكى • خليط عجيب من الرجال الغــرباء القــادمين من بــلدان مختلفة ، حــتى أن موظف الاستعلامات كان دائما يدعونا مداعبا : (حزمة الكرناف) !

كنا فئة قليلة ، ولكننا كنا نحكى عن كل شىء : عن الحب والسوق السوداء ، وتجارة الخمور والشعر والفلسفة ، عن الصــهيونية واللاجئين وامريــكا ، عن الرحيــل والأحباب والرسائل ، عن الفصول ، عن المطر والشمس والصحو •• والاجازة المقبـــلة •

ورغم أن المقهى لا يفتح الا بالنهار فقط ، الا أننا كنا نجد فرصتنا لأن نجلس سويا فى العشيات ، ونحكى جميعا عن كل

شيء ، متطلعين بشغف – بين حين وآخر – الى بعض النزلاء الجدد .

شخص واحد كان دائما هناك ، وكان لا يحكى أبدا . ان أحدا منا لم يسمعه يفوه بأية كلمة قط .

انه النادل !

كان يكتفى بأن يحضر لك مشروبك فى صمت ، ويهز رأسه فى وجهك فى ود ، ثم يمضى الى مكانه دون أن يقول أيما شيء على الاطلاق .

وكالعادة دائما ..

كنا نتوقف عن الحديث حين يحضر المشروبات ، وننظر مليا اليه فى محاولة لأن نعيش معه قليلا ، متمنين – كالعادة دائما – أن يحكى معنا ، ولكن لم تكن ثمة جدوى .

كان أخرسا !

● **تقول الحكاية السادسة عشرة ..**

ثمة كتاب بعنوان (الثورة) للكاتبة «مارى تشارلزوورث» وهو يتناول ثورات شعوب العالم منذ سنة ١٧٧٥ . وقد وردت فيه الاحصائية التالية :

«الولايات المتحدة ضربت الرقم القياسى فى ابادة الشعوب :

فـ « كوبــلاى خان* » أباد ١٠ ٪ من شعوب الشرق الأدنى .

وأسبانيا أبادت ١٠ ٪ أيضا من الهنود الامريكيين .

و (جوزيف ستالين) أباد ٥ ٪ من الروسيين فقط .

و (هتــلر) آباد ٥ ٪ من الأوربيين ، و ٧٥ فى المــائة من يهود أوروبا .

بينما أبادت الولايات المتحــدة ٦٫٥ ٪ من الفيتناميين ، و ٧٥ ٪ من الهنود الامريكيين » !

.. هذا فضلا عن « جيفارا » ، و « مارتن لوثر كنج » ، و (نــيرودا) .. وشعب فلسطين .

● **تقول الحكاية السابعة عشرة ..**

هــذا هو عيــد الأضحى ..

أجل ، هذا هو العيد .. والناس يعبرون طرقات المدينة حاملين معهم سكاكينهم القــديمة لشحذها ، أو يبتــاعون سكاكين جديدة استعدادا للعيد . ولقــد تذكرت على الفور أننى بكيت – عندما كنت صغيرا – كما لم أبك من قبل قط .

كنت قد أنفقت مــدة طويلة فى العناية – حينذاك –

---

* كوبلاى خان ، ولد سنة ١٢١٦ وتوفى سنة ١٢٩٤ ؛ وكان امبراطورا على معظم بلدان آسيا ، وقد اتخذ « بكين » عاصمة لامبراطوريته فى ذلك الحين .

بخروف العيد . كنت أحمـــله الى البحر كل يوم ، وأقوم بغسله هناك الى أن يصبح كلى البياض مثل عين الشمس ، وكنت أقدم له كل ما لدى ، وأحمله معى أينما ذهبت ، فيما ظللت اتباهى أمام الآخرين حين يروه متتبعا خطاى فى الطرقات بانســياق كامل مثــل جرو ودود . كانوا - فى البيت - يدعوننى أعتنى به كيفما أشاء ، ولكن عندما جاء العيد ، لم أجد ثمة من يعير بكائى المفجع أى اهتمام . وقاموا بذبحه أمامى ، وظل ينتفض مثــل قلبى ، الى أن بات فى وســعى بعدئذ أن أرى شرائح لحمه المسودة معلقة على طول حبل الغســيل .

كانوا قد ضحوا به من أجل أن يأكلوه .

وكنت أنا أضحى بأكلى من أجل الخروف .. فأى عيد دموى هذا الذى يحتفل الناس فيه بقتــل صديق لك ، ثم يلتهمون لحمه أمام عينيك الدامعتين ! ؟

● **تقول الحكاية الثامنة عشرة ..**

اننى تذكرت هذا عندما تابعت التطورات الأخيرة لحرب رمضان !

فحين يقول لك أحد الرجال البسطاء كلمة (بالمفشرى)

فيجب أن تتوقع أنه قرر أن يتخلى عن تهذيبه فجأة ، وأنه يود أن يدلى لك بتصريح خطير . وهذا ما حدث بالضبط عندما كنت أتحدث مع أحد هؤلاء الرجال عن شئون الحرب وعيد الأضحى ، فقد قال لى ما معناه بالمفشرى ، أن شهداء الحرب قد قتلوا كقربان على مذبح سيناء من أجل اعادة العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا .. من أجل ذلك فقط !

وبكيت مرة أخرى ، كما لم أبك من قبل قط !

تقول بقية الحكاية : ليست الخرفان وحدها السيئة الحظ .. الانسان كذلك !

● **تقول الحكاية التاسعة عشرة ..**

حين تهب ريح (القبلى) فى بنغازى الضيقة الصدر ، تصبح وجوه الناس حالكة كالحة .. وحين ينهمر المطر يكسوها شعور غامر بالاستياء ، لأن الكثيرين لا يفكرون الا فى الغدران التى ستملأ الطرقات . ولكن انسانا ما ، فى مكان ما ، يظل جذلا عبر انهمار المطر ، مفكرا ـ فقط ـ فى موسم الحصاد . فيما تقف أنت خلف النافذة ، فى الغرفة (٢١١) ، رانيا الى عروق المطر فوق الزجاج ، منصتا بين حين وآخر الى أولى الأصوات المنبعثة فى المدينة عند

الفجر ، الى صياح الديكة ، ونباح الكلاب عبر السكون ، حالما بأن المطر قد غسل المدينة الآن ، والناس .. وجعلهم طيبين تماما .

انك تنظر ، وتسمع ، وتحلم ، مدركا ــ اثر انحباس المطر ــ ان الشمس ستنهض بعد قليل ، وأن عليك أن تنهض أنت أيضا لكى تسعى فى أرض الله !

● تقول الحكاية العشرون ..

(لنــدن) مدينة مزعجة ، ممتلئة حتى قبعتها الجليدية بالبشر ، مترامية الأطراف الى حد متناهى . وأول شــعور يخامرك فيها هو انك غريب هناك . فأنت ترى الناس يتزاحمون فى كل مكان ، ويتدافعون دون أن تجد أحدا ينظر اليك . الجميع يسيرون فى عجل ، والبعض منهم يكتفى بأن يدفن رأسه فى صحيفة ما ، أو يتشاغل باعداد غليونه . لن تجــد ثمة من يرغب فى أن يقول لك كلمة واحدة .

ولكنك حين تذرع شوارعها فى الصباح الباكر ، يتبدد لديك هذا الانطباع مباشرة ، اذ تصبح المدينة شبه مهجورة ، وما أن يقابلك كناس ما ، أو صاحب مقهى أو مطعم ، أو أحد العمال حتى يتطلع فى عينيك بود ، ويبادرك بتحية الصباح .

يهز رأسه ببساطة ، ويقول لك :

– صباح الخير .

وأحيانا يقابلك أحد السكارى مترنحا ، عائدا الى بيته . انه يتوقف فجأة عن ترديد الأغنية التى كان يترنم بها ، وينظر اليك قائلا :

– مساء الخير .

معتقدا أن ليلته لم تزل متصلة !

كل الناس يصبحون متقاربين ، ودودين حينذاك .

كنت قد جئت من (بورمث) مع صديقتى « فيرينا » لزيارة صديق هنا – فى لندن – وللبحث عن عمل . لكننا وجدنا صديقنا قد سافر ، ولم تكن ثمة أية فرصة للعمل .. كان ذلك قبل عيد الميلاد بأيام ، وحين نفذ ما لدينا من نقود ، أردنا العودة الى بورمث فى يوم العيد بالضبط .. لكننا فوجئنا بأن محطة (ووترلو) مقفلة بمناسبة ذالك اليوم .. كل المحطات مقفلة . كل القطارات معطلة . كل الناس مشغولون باحتفالات عيد الميلاد .

كان ذلك فى المساء ، وكان علينا أن ننتظر قطار الصباح فى اليوم التالى .

لم يكن معنا أيما شيء سوى التذكرتين .

وقد ظللنا نهيم معا فى الشوارع الموحلة بالجليد انتظارا للصباح ، مغالبين التعب والنوم بالصقيع ، وبادراك أن غدا سيكون ثمة قطار . كانت أصـــداء الأغانى فى أعقاب الليل تأتى الينا من كل مكان . وكنا معا نذرع الشوارع البيضاء ، متلاصقين تماما كما لو أننا جسد واحـــد ، ممتلئين بالرضى والانتظـــار .

لم نـــنم قـــط ..

وفيما كنا ذاهبين فى الصباح الباكر الى المحطة ، حيانا كثير من الناس العابرين . ابتسموا فى وجهنا ، وقالوا لنـــا كلمات طيبة . حتى اذا دلفنـــا المحطة باعياء كامل ، تهالكنا على أول مقعـــد هناك . وطفقنا ننتظر القـــطار الأول الذى سينطلق – بعد ساعتين – الى بورمث .

وغفت (فيرينا) بجانبى . أسندت رأسها على صدرى ، واستغرقت فى نوم هادىء على الفور . ولقد بدت لى كما لو أن عصفورا قد أدركه النعاس ، فدس رأسه تحت جناحه ونـــام .

كنا جائعين ، ومقرورين ، و ..

لكننا كنـــا معـــا .

أجل ، كنـــا معـــا .

● **تقول الحكاية الأخـــيرة ..**

كل عام وأنت ، وجميع الأحباب ، بخير .. كل الســـلام والخـــير .

● ●

١ ينـــاير ١٩٧٤ م

● ●

العذاب

كان رجلا هرما .. ولقد ظل يقطن ذلك الدكان العتيق بمفرده عــدة سنوات ، ورغم وجهــه المشوه الذي نهش السرطان نصفه الأيمن .. وكتفيه المتهدلتين تحت عناء التعب الطويل .. وقامته القصــيرة .. ويديه النحيلتين المغرقتين بالغضون والعروق المتخمة.. ورائحة التآكل الكريهة المنبعثة من خلال اللثام الذى يغطى معظم وجهه .. رغم كل ذلك ، فقــد أحبه جميع الصغار فى الشارع ، وأنشــأوا ينتظرون هداياه الصغيرة كل يوم .. وكفه الحنــون الذى لا يأتلى يمسد شعر رؤوسهم .. وحكاياته اللذيذة .

كان يدعى «سى عمر» .. وكان يتسوق لكل الجيران . اذ كثيرا ما تراه حاملا سلة للخضار واللحم وأشياء أخرى

لهذا البيت أو ذاك ، وكانوا يرسلون اليه ـ نظير ذلك ـ وجبة الغداء فى دكانه ، ثم انقطعوا عن هذا تماما حين تعالت تلك الرائحة على نحو يجعل الأنف يتكور منزلقا قليلا الى أعلى ، واكتفوا باعطائه بضعة قروش بين حين وآخر !

كان يشترى كثيرا من قطع الحلوى ، ويقوم بتوزيعها على الصغار الذين يكونون حوله ، كالعادة ، حلقة مزدحمة صاخبة ، ثم يجلس على عتبة ما ، ويحكى لهم عن الحطاب الذى أراد أن يتزوج بنت السلطان !

ويرجع الصبية الى بيوتهم ممتلئين امتنانا ، فيما تزغرد عيونهم باشراقة العالم العجيب الفاتن الذى حدثهم عنه ، وما أن يسأل أحدهم أمه عن السبب الذى أكل وجه « سى عمر » حتى تخبره باهتمام بالغ :

– كان يضرب أمه .. يصفعها ، لانه لا يريد أن يسمع كلامها ، وعندما كبر انتقم الله منه بهذه الطريقة . هل تفهم ؟

وتغتم أعماق الطفل فجأة .. ويذرع الحزن عينيه ، ثم ينتفض قائلا :

– هذا غير صحيح .. انه رجل طيب !

ويردد الطفل فى ذات نفسه :

- انه رجل طيب !

ويشده صوت أمه من أذنه مرة ثانية :

- الذى لا يطيع أمه يفعل به الله هكذا .. أتسمع ؟

ويرتعش بفزع ، ثم ينساب بصره الى أفق بعيد وتلتهم حكاية الحطاب كل تفكيره حتى ينسى الله .. وأمه أيضا !

□■□

كانت لدى « سى عمر » قطة بيضاء .

قطة بيضاء ، ذات فراء نظيف ناعم .. وكان يهتم بها على نحو ودود ..

كان يحبها كثيرا ، ويدعوها « أميرة » !

ولقد قال الصبية ان فى وسعها اصطياد فئران السماء ، أنت تعرف أن ذلك غير ممكن ، ولكنهم يرددون هذا بايمان مطلق . يقولون لك بعيون مشدوهة انها تتربص فوق عتبة الدكان كل ليلة .. وما أن يعبر أحد الخفافيش عينيها البراقتين ، حتى تثب تجاهه على الفور ، وتقتنصه بمخالبها البللورية الآلاقة .. وتأكله !

ويقولون أيضا أن « سى عمر » ينفق طول الليل بعدئذ فى تنظيف فرائها ، ومشطه !

وذات ليلة ، حاول أحد الأولاد أن يستطلع هذا بنفسه .
لقد تسرب من بيته ، واقترب بخطى حذرة من باب الدكان المنفرج قليلا ، واذ تطلع عبر الفرجة الضيقة ، رأى القعر الهائل المحمر ، المحفور فى وجه الرجل . كان يتوهج فى وجه مواشير الضوء التى يرسلها المصباح ، وكان « سى عمر » ممسكا بريشة بين اصبعيه ، يغمسها فى زيت الكافور ، ثم يلعق بها ذلك القاع الملتهب !

كانت القطة متكورة فى أقصى الزاوية ، مسترسلة فى نوم غامر ، وكانت الرائحة النتنة تملأ المكان .. وكان الصبى يبكى فى صمت خلف الباب ، ولقد قال للصغار فى اليوم التالى أن وجه « سى عمر » يشبه (دلاعة) حمراء مجوفة !

وحين أسر له أحد الصغار بذلك الخبر ، نظر اليه بعينه الوديعة .. ثم أغمضها بطيبة مفرطة التسامح .. وربت على رأسه برفق !

« سى عمر » رجل طيب ..

انه يحب قطته البيضاء الناعمة الفراء .. والصغار ، كما يحب أن يغلق قلبه على آلامه وأحزانه .. ووحدته ، فيما ظل الرجال فى شارعنا ينفرون منه دائما ، ويشيحون بوجوههم

فى تقزز حين يمر من أمامهم ، لكى لا تلج أنوفهم خيوط رائحته !

ولقد مر بجانبهم ذلك النهار حاملا علبة السردين الى أميرته ، بينما كانوا متجمعين أمام دكان البقال يتحدثون بانفعال صاخب عن تلك العاهرة التى تسكن عند تعرج الشارع !

كان صوت « سى صالح » عاليا جدا ..

– أقول لكم الحق ، ان هذا الشارع سيصبح وكرا للرذيلة اذا لم نطرد منه تلك المرأة ، أعوذ بالله ..

ووافق الخباز الزنجى على كلامه فى الحال ، على حين بدت عيناه نصف مغلقتين من أثر النبيذ :

– مضبوط .. مضبوط ..

ولكن « الأستاذ » رد عليه قائلا :

– أسكت أنت .. انك تقول هذا الكلام لأنك لم تتحصل منها على شىء تلك الليلة !

وصاح الخباز :

– هذا كذب .. كذب مفتضح .

•• وشعر البقـال بالقهر فى الحـين ، وغربلته انتفاضة قصيرة ثم انفجر قائلا :

- دعونا من هذا الآن •• نحن لا نريد أن تتعارك •

والتفت اليه الخبـاز بتكابر •• وقال :

- أنا لا يصرخ فى وجهى أحد •• اننى سأنفض عنى من يفعل ذلك مثلما أنفض الطبق بالعصا •• تماما !

وسكت الجميع برهة ، ثم قال « سى صالح » :

- دعونا نكتب غدا طلبا ، نوقع عليه جميعا نطالب فيه بطردها من الشارع •• ما رأيكم •• آه ؟

وفتح عينيه الى آخرهما •• بينما سأله « الأستاذ » :

- وأين ستذهب ؟

- الى جهنم •• نحن لا يهمنا هذا !

كذلك أجابه « سى صالح » بغضب مترفع •• واذ مـر عليهم « سى عمر » حينذاك ، لم يلتفت اليهم على الاطلاق ، بل سار مطرق الرأس ، صامتا كأنما لا يعنيه أى شىء أبدا

ان أحدا لا يعرف خبايا الشارع كما يعرفها هو على وجه الضبط •• كما ليس ثمة من يستطيع أن يغلق قلبـه على أحزانه كمن يقبض بحدة على حفنة من المسامير الدقيقة مثله !

كان رجلا شجاعا .. وكان يقول دائما للذين يسألونه بتبرم عن حاله كلمتين هادئتين :

— الحمد لله .

□■□

كان الجو قائظا تلك الليلة .. الى حد تشعر فيه انك تتنفس قطرات من العرق ليس غير ، وقد بدا الدكان مثل تنور ، فيما التصقت القطة بالجدار الرطب ، وشرع « سى عمر » يسيل الزيت بريشته فى جوف رأسه الارجوانى .

ومر صرصار لامع بجانبه ، ثم توقف عند العلبة الصغيرة المشبعة برائحة الكافور ، وتطلع اليه الرجل بفضول .. وتساءل :

— أنا لا أدرى لم خلق الله للصراصير أجنحة !

ثم نقر باصبعه على الحصير حتى ذهب الصرصار صوب الجدار الآخر ، وعندئذ سمع همسا ملحا قادما من الخارج :

— سليمة ، سليمة .. انهم سيطردونك غدا ، افتحى لى وسوف لن أدعهم يفعلون ذلك .. أتسمعين ؟ افتحى ..

وألقى « سى عمر » ريشته الندية فى العلبة وزحف ببطء الى فرجة الباب ، وانطلقت من عينيه نظرة ساهمة الى بيت

العاهرة ، وبات فى وسعه أن يرى « سى صالح » منحنيا على ثقب البــاب !

كان يرتعد هناك ..

وقد أخذ يهتف اليهــا بكلمات دافئة بادىء الأمر .. واذ لم تفتح لــه ، لعنها بفظــاعة .. وذهب ملتفــا برداء الظلام .

– سترين غــدا .. سترين .

كذلك كان يتوعد !

ورجع « سى عمر » الى مكانه ، وتناول القطة بيديه معا، ووضعها على ركبتيه ، مربتا على فرائها الجميل ، متسائلا فى ذات نفسه :

– أنا لا أدرى لم خلق الله للصراصير أجنحة ؟ !

ثم أحس على نحو مفاجىء بشىء حاد يحفر رأسه حتى يكاد أن يثقبه .. وأغلق عينه فى وجه الألم طويلا ، واضعا راحتيه على مؤخرة رأسه المخفض .. وقال لنفسه :

– ها هو المرض المسعور قد بدأ يعقر دماغى !

وتأوه بحدة حتى قفزت القطة الى الزاوية .. ثم بــكى بعين واحدة !

وجاء « الأستاذ » الى بيت سليمة متوددا .. لكنها لم

تفتح له ، وأعقبه البقال أيضا •• ثم تعالت آخر الليل نداءات الخباز الذى لاح أنه سكران جدا •• غير أن « سى عمر » لم يتسرب الى أذنيه أيما صوت •

كان العذاب قد أكل بقية قلبه ••

ولقد زوبعت أمام عينه الأشياء لحظتين •• ثم لم يعد قادرا على الرؤية اطلاقا •

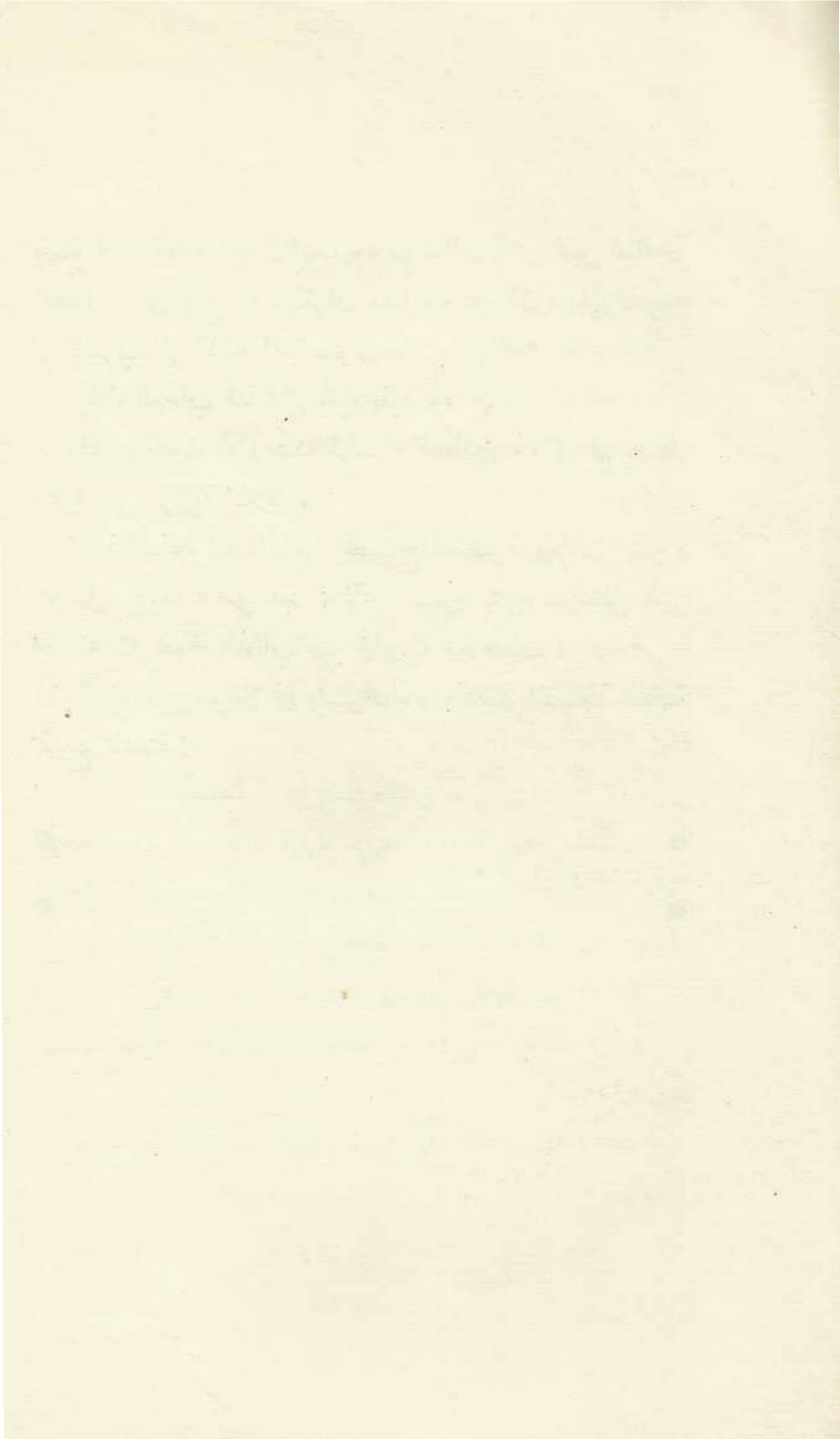
واذ تصاعد الدخان من المصباح المحتضر ، وماءت الأميرة بتوسل ، شعر « سى عمر » لآخر مرة بشىء موحش يغمر أعماقه مثل عواء الذئاب عبر الأودية •• ومات !

كان الليل موغلا فى السواد •• وكانت القطة التائهة تذرع المدينة !

● ●

١٢ اكتوبر ١٩٦٨ م

● ●



مذبحة الأفكار

- يبدو أن هذه الريح لن تهدأ أبدا !

كذلك قال فى ذات نفسه ، فيما طفق يعبر الطريق ساهما مقرورا عـبر قصاصات الورق المتطايرة ، ودوامة الغبـار ، واتنفاضات أغصان الصنوبر بين الحين والآخر على جانبى الشارع المعتم ، وفحيح الأوراق المتواصل .. لم يكن ثمـة غيره ، ولقد مرقت أمامه قطة ، واتبعها ببصره حتى تكورت ملتصقة بأحد الأبواب .. وشرعت تموء بحدة ، ثم رفع ياقة معطفه حول رقبته ، ودس يديه فى جيبيه .. وسار مطأطىء الرأس ، منصتا الى وقع قدميه حين انكسار الريح .

الساعة العاشرة مساء .. وكان يدرك أن هذا الوقت مجرد مقصـلة بالنسبة له ، اذ تـكون الحانات مقفلة فيـه

بالتأكيد ، وكل المتاجر المماثلة •• وقد استطاع لعدة سنوات أن يخترق هذا الجدار عندما كان يتردد على تلك اليهودية فى أى وقت يشاء ، ويبتاع ما يريد •• ولكنها رحلت الآن •• ولعل هذا من حسن حظه ، فهو مدين لها بمبلغ ما •• وعلى أى حال ، فقد اهتدى الى مكان آخر •• الى بيت فى ذلك الشارع المشبوه ، حيث فى وسعه أن يسهر هناك •• ويسكر حتى يحترق صدره •

وطرق البـاب ••

وما أن سمع صوت الرتاج حتى اندفع الى الداخل كأنما قذفته الريح ، وزعق صاحب البيت على الفور :

- أنت لن تدخل بهذه الطريقة مرة ثانية !

ولكنه انسحب الى الحجرة دون أن يلتفت اليـه •• واقتعد صندوقا من الزجاجات الفارغة ، وأخذ يفرك يديـه بعـد ما اسقط نظرة على الرجـل الجالس بهـدوء خلف زجاجته وكأسه •

وانبعث صوت فى أعماقه :

- وأشعل سيجارة ثم تطلع الى جدران الغرفة المهترئة مثل جدران مقبرة مهجورة ، والصناديق المتراكمة فى الجهة

المواجهة ، الـــتى انتصب على قمتها المصباح ذو الزجاجـــة المســـودة .. والصناديق الأخرى المقعرة من أثر الجلوس المتناثرة على الارض المتربة .. والفراش الردىء المهمل الذى ارتسمت فوقه بقـــايا مذابح البق على جـــدارى الزاوية .. والوسادة المتسخة الى حد لامع .

وصفرت الريح .. واسترسل الصوت :

– ما الذى يجرك من أنفك الى هذا البيت مثل فراشة حمقـــاء ؟

وفتح الزجاجة بأسنانه وأخرج طرف لسانه الذى تعلقت به بضعة أجـــزاء دقيقة من ضرسه ، ثم جذبه من بين شفتيه المطبقتين فى بصقة صغيرة مكتومة .. وقال :

– أريد أن أحطم شيئا صلبا حول قلبى .. أنا أشعر بحريتى هنـــا !

– هراء ، انهـــا نفس الحـــرية التى مارستها كثيرا فى مرحاض المدرسة حين كنت تكتب كلماتك الوضيعة عـــلى جدرانه !

.. وكفأ كأسه ، ثم أغلق عينيه مباشرة.. وسعل بمرارة متلفتا بحثا عن كوب الماء .. حتى اذا دلق جرعة فى جوفه

تنهد بارتياح ، ومسح على صدره بتباطؤ ، على حين تنحنح الرجل المقابل ذو الأسنان البنيـة المتآكلة .. وقال :

- الكأس الأولى دائما حارقة .

- كلا .. كلا ، ليست الكأس .

كذلك أجابه بينما كان يسمع عويل الريـح من خـلال شقوق الباب .. ثم تطلع الى أصابع الدم على الجدار خلف السرير .. وقال :

- من الحماقة ألا يسكر المرء الليلة .

- أجل ، فى كل الأوقات .. تقريبا .

هكذا رد الرجل ، وأضاف مشيرا الى صاحب البيت :

- اسأل أبانا الروحى الكلى العطف .

واستلقت على وجهه ابتسامة بلهـاء .. وسحق عقب سيجارة بقدمه ..

وظهر انه كان ينتظر اشـارة للحديث ، اذ شرع يثرثر بلا انقطاع ثم زأرت الريح بقسوة هذه المرة الى أن اهـتز الباب .. وفح الصوت من الأعماق :

- أنت مجرد أرنب برى تعس ، هل تسمع ؟ .. وقد فتح الله فى رأسـك الغبى عينين براقتين ، ولكنك ضفرت

أهدابهما ببعضهما بحيث لم تعد قادرا على رؤية أيما شيء مشرق .. فماذا أصابك ؟

– أف .. لم لا تتركنى الآن ؟

كذلك قال بصوت مسموع حتى ارتفع حاجبا الرجل المقابل فى ذهول .. ولمح صاحب البيت :

– ها هو بدأ يهذى كالعادة .

ولقد بدا متألما جدا ، فيما هدأت الريح قليلا .. وجاء الصوت من الأغوار السحيقة :

– دعك من ذلك ، فأنت ستجلس هنا ، وتسكر الى أن تغيم عيناك وتنهض أمامك الأشياء ضبابية حالكة .. ويتوافد فى تلك الأثناء كثير من الرجال .. وتختنق الحجرة بروائح التبغ والعواطف الرخيصة .. ثم يبدأ أحدكم فى نفث كلمات الشجار الشبقة.. وتبرق الزجاجات على الفور. وتسيل الدماء دافئة غزيرة .. ألا ترى ؟

– أعرف .. أعرف هذا .

– ولكنك ظللت منساقا مثلما تتمايل أعشاب البحر عبر أمواج الشاطىء !

وارتشف كأسا أخرى .. وقال فى ذات نفسه :

– أنا لا أحتاج الى مواعظ سخيفة •

– حسنا •

وتسرب صوت الريح من تحت البـاب •

– حسنا ، ولكن دعنى أحدثك •• لقد كنت فتى طيبا ذات يوم ، وكان ثمة ألف شيء جيد يتوهج فى صدرك مثل توهج حبات الرمان تحت الضوء •• وكنت تود أن تزرع ذلك بطريقة ما ، ثم توثب فى ذهنك خاطر بأنك ستهزم ما لم تتعلم الحياة عن طريق اللمس •• حسنا ، وكان هذا حقيقيا الى حد ما •• ثم ماذا حدث •• أتذكر ؟ لقد تعرفت بتلك المرأة ذلك الشـتاء البغيض •• وكنت مقرورا على الدوام بحيث لم تستطع طيلة عام أن تعود لوحدك من حيث أتيت ، الى أن طردتك ذات ليلة •• وخرجت مدمر الروح ، متثاقل الخطى ، شاعرا بالفقد •• وكنت تبكى بصمت عـبر المطر على طول الطريق •• أتذكر •• أتذكر ؟

– كانت مجرد عاهرة قديمة !

كذلك قال لنفســه ، ثم غمس بصره فى ضـوء المصباح الدافىء ••

وما كان قادرا على سماع ضوضاء السكارى حينذاك•• وتناهت الى أنفــه رائحة القرنفل المنبثة من جدائل شعرها

الأسود •• وتنوء زجاجة النبيذ تحت الوسادة •• وأطياف الشفق الأحمر المنبعثة من المدفأة الكهربائية •• أجل المدفأة الكهربائية •• وزقزقة السرير •• وأغنية حزينة لأم كلثـوم •• وغرغرة العشاء فوق النـار •

– آه ، كان زمانا طيبا •• كان زمانا طيبا !

هكذا ردد بهمس ، بينما تعالت أدخنة المصباح ، واهتز الباب من اثر الريح •

– ولكنك خرجت من هناك خرب الأعماق ، بعـدما انطفأت أشياؤك المتوهجة ، وغدت مثل قشور سمكة متعفنة •• ولم تعد سوى شبح ملعون يهيم فى مقبرة •• ويتعـين عليك الآن أن تحرق جسـورك خلفك •• أتسـمع ؟ كل الجسور ، وتبدأ من جديد •• فليس ثمة ما هو أجدى من ذلك •• أتسمع ؟

وأرسل نظرة صوب الأصابع الحمر عند الزاوية•• وقال من بين أسنانه :

– ليفقأ الله عينيك !

ولاح أنه سكران تماما ، اذ شعر بعدئذ بحنين جارف الى البكاء . ثم تحدرت دمعتان فوق وجنتيه ، فى حين انصفق الباب مفتوحا بعنف حتى ارتعشت ذؤابة المصباح.. واهتاج الصوت فى قاع نفسه :

– تفو ! !

.. وتجرع كأسه دفعة واحدة كيما يكون صاعقا .

١٣ يناير ١٩٦٨ م

الرجال!

« ولـكن الانسان لم يخلق للهزيمـة ،
الانسـان قد يدمر ولكنه لا يهزم » !
همنجـواى

كان يوما هزيلا مثل كل الأيام ، حتى أن عيون الأصدقاء بدت منهكة الجفون ، عندما كنا جالسين بلا تناسق فى ميدان « الحشيش » بعد الظهيرة ، مستغرقين فى أكل « القعمول » الذى كانت قشوره الشائكة تملأ المكان .. ولقد تثـاءب أحدنا قائلا :

– يضيع طعم الشاى حين تأكل القعمول !

ولم يرد عليه أحـد ، فطفق ينفخ النـار مغمض العينين فى وجه الرماد ، ثم استعمل جريدة مطوية باحكام ، فيما أخذ البقال يلعن الأولاد الذين يلعبون الـكرة هناك متوعدا ، وانشغل القصاب باقناع أحد المشترين ، بـكل براءة ،أن

اللحم غير مستورد بعد أن أسرى الينا بنظرة تعنى أن هذا ليس من شأننا !

– واو !

هكذا صاح الآخر مثل ذئب مسعور حينما مرت الفتاة السمراء كالعادة ، خابطا صدره بقبضتيه بانتظام ، ثم صلب ساقيه فجأة حتى ركل الكانون واندلق الشاى !

كنت أنتظر صديقا لأرحل معه الى أحد معسكرات التنقيب عن البترول .. واذ صعدت الى شاحنته الضخمة بعدئذ ، كان فى وسعى أن أشتم الرائحة الكريهة المنبعثة من زاوية الميدان المصفرة عندما سقطت عليها أشعة الشمس ! كان اسمه « خالد » ، ولقد ظللت مشدودا الى طريقته البارعة فى القيادة ، على حين انغمس مساعده الصغير السن ذو الشعر الأشعث فى تفقد محتويات صندوق المؤن ، ثم رفع رأسه الى خالد قائلا :

– نسينا علبة الزيت !

– سنأخذها من اجدابيا .

هكذا أجابه بلا اكتراث ..

كانت الشاحنة معبأة بأكياس الاسمنت الابيض .. وكانت

متثاقلة جدا ، ممـا جعل خالد يصر ـ عندما تقابلنا سيارة أخرى ـ على ألا يتعدى جانب الطريق الأيمن ، الى حـد تصدر عن السائق المواجه تحذيرات ضوئية متعددة ، والتفت خالد الى التفاتة سريعة قائلا :

ـ هذا طريق ردىء .. وسوف تتهرأ اطاراتى اذا خرجت عنه ، ثم اننى مجـرد سائق وسأفقد عملى اذا تحطمت هذه الشاحنة !

ومهما يكن من أمر ، فقد لاحظت أن ثمة حبا عميقا يربطه بشاحنته ، وكل السيارات الاخرى التى اشتغل عليها طيلة السنوات الماضية .. ورغم أن عينيه صلبتان ، وذقنه غـير حليق أبدا ، وملامحه تبدو قاسية ، الا أن ذلك الجسـد العملاق يحوى روحا طيبة ذات ميل شديد الى سرد آلاف الحكايات بلا انقطاع .. وكان فى كل مرة يرفع مقـدمة قلنسوته الصوفية ، ويحك رأسه ثم يحكى عن احدى رحلاته بصوت يتحدى هدير المحرك .

.. ووصلنا اجـدابيا !

كانت خيوط المساء قد بدأت تنسج الليل عبر الأفق ، فيما انغرزت النجمات فى صفحة السماء الرمادية بلا تألق . وبدت

المدينة مثل زنبقة ميتة ! ولقد توقفنا أمام أحد المحال الذى استرسل صاحبه على الفور فى حديث ودى مع خالد ، بينما ذهب المساعد باحثا عن الزيت ، وشرع رجل آخر يزود براميل الصفيح الاضافية فى الشاحنة بالماء والوقود ..

واذ دخلنا الى هناك ، بدأ المكان معتما قليلا رغم أطياف الضوء المحتضرة ، المنبثة من المصباح المشنوق على الجدار ، فى حين تناثرت الاطارات القديمة خلال المكان كله ، وتلطخ الجدار بغيمة صغيرة سوداء فوق قبعة المصباح تماما .

كنت قد اقتعدت اطارا قريبا ، فيما تهالك خالد على الحصير قائلا :

– ستدمر أعصابى ذات يوم .. أعنى هذه الطريق !

– صحيح انها أصبحت متعبة ..

هكذا رد الرجل ، منسقا أقداح الشاى أمامه .. ثم واصل :

– .. ولكنك لا تدرى مدى العرق الذى نزف فوقها . كنت أشتغل هناك مع آلاف العمال الآخرين الممتدين على طول الساحل .. كان ذلك سنة ١٩٢٣ ، وقد استغرق رصفها ثلاث سنوات فقط ، اذ أن الايطاليين أعطوا كل شركةمتعهدة

مائة كيلو متر منها تقريبا .. وكنا نعمل طوال الوقت أحيانا وتتقاضى سبعة فرنكات « جنيهان وعشرة قروش » شهريا .. أنت لا تستطيع أن تتصور كيف يكون الانسان عندما تمزق جلده شمس الظهيرة عبر القفر ، ووهج .. ورائحة القار المذاب ، والحصى والأحجار الحادة ، والجوع .. والجوع ونظرات الرؤساء الملتهبة على الدوام .. والرياح الجنوبية الحاقدة .. ، ليس ثمة من يتخيل ذلك على الاطلاق .. حسنا ، وحينما نكاد نلتصق أخيرا بالطريق المعبد أمامنا ، ينتابنا احساس غامر بالتعاسة .. وتصبح الأمتار الأخيرة فى أعين الرجال مثل فخ قاتل ، اذ أننا نفقد عملنا بعدئذ على نحو فورى .. ولكن ، على أى حال ، أنت تعرف عندما ينتهى كل ذلك كيف يشعر المرء بالكبرياء .. بالكبرياء والبهجة حين ينجز عملا خارقا مثل هذا .. حسنا ، وقد كنت أذرع الساحل خلف الشركات العاملة كبقية الرجال ، وكان حظى جيدا دائما ، اذ تحصلت على العمل فى كثير منها .. !

كان يتحدث بحماس وتدفق ، وقد بدا وجهه صلبا رغم التجاعيد ، وعيناه براقتين . ثم تطلع الى خفقات ذؤابة

المصباح المختنقة ، ورماد سيجارته ودخانها المتصاعد قائلا :

– لقد أذبت فى تلك الطريق أغنى سنوات حياتى •• وأنا أتمنى الآن لو فى ميسورى أن أمشيها كلها حافى القدمين•• أنت تدرك ماذا يعنى ذلك !

وأخـذ يصب الشاى بيد معروقة هـرمة ، فيما فتحت الأحزان عيونها الضيقة فى قلبى مثل صغار القطط •

– خالد ، امتلأت البراميل !

هكذا صاح الرجل الآخر من أقصى الشاحنة ••

ولقد أودعنا اجدابيا خلفنا ، وسرنا صوب الجنوب تماما فى طريق وعر كثير الوهاد •• وكانت نباتات الصبار والحلفا، وخيالات الـذئاب تلوح على مرمى الضـوء •• وواصلنا المسير ببطء خـلال الليل ، نرتفع ونهوى على طول الطريق الى أن مررنا بمحاذاة « عين الناقة » واجتزناها بعدة أميال• ثم قال خالد :

– سنبيت الليلة هنا •

وبعد أن تناولنا العشاء الذى أعده المساعد ، أخذت لحافا واستلقيت فى مؤخرة الشاحنة فوق أكياس الاسمنت ، بينما انكب خالد باحثا عن أغنية فى الجهاز الصغير •

كان الجو رائقا .. وكانت قبة السماء الهائلة مزرقة على نحو غامق ، وقد ظلت النجوم المرصعة هناك تنبض بالبريق بطريقة ساحرة .. ليس ثمة سحابة واحدة .. وليس ثمة ريح أيضا .. وكان القمر الفاتن يلوح على بعد ميل فقط ! الى أن استغرقنى النوم وحلمت أننى أحلق وسط فقاعة عبر الشعاعات البللورية !

ومنذ أن تنفس الصباح ، رحلنا على خط مستقيم فى اتجاه الجنوب الشرقى حتى عبرنا « جالو » المكتظة بالنخيل السامق ، والذباب ، وجرار « اللاقبى » والأطفال الذين يواصلون أكل التمر المغلف بالرمال !

وبعد مسيرة قصيرة أشار خالد ناحية الجنوب تماما قائلا :

- أنظر .. أنظر ، أترى تلك التلال ؟ . ستبدأ متاعبنا هناك !

ولكنى لم ألق بالا الى ذلك اذ أن السفر لدى كان مجرد تفتح عوالم أخرى ثرية بالضوء والظلال ، ولا أحتاج سوى أن أعانقها بعينى معا .. الا أن هذا اتضح فيما بعد كأى أكذوبة بلهاء ، اذ ظلت عجلات الشاحنة تغرق فى أودية الرمال باتصال .. وتطلب الأمر أن نحفر أمامها فى كل مرة ،

ونزيح الرمال من حولها كى نضع الصفائح المعدنية الثقيلة فى طريقها مباشرة لتنهض من جديد ، الى أن تسلخت أيدينا . وكنا نسير بضعة أمتار ثم تتوارى العجلات فى الرمال مرة أخرى كأنها تدور فى الأوحال .. وفى أثناء ذلك نظر خالد الى المساعد المجهد قائلا :

– ستكون حياتك شاقة .. وسيحترق قلبك الصغير حتى يصبح مثل حبة « بطوم » .. فما الذى رماك هنا ؟ !

ولقد قضينا يومين كاملين فى تلك التلال هرقنا فيهما كثيرا من العرق .. واللعنات الى حد يملأ القلب بالغضون .. حتى اذا كان المساء لاحت هالات أضواء المعسكر خلف احدى الهضاب .

كانت الخيام متناثرة خارج المعسكر مثل القناديل ، وقد بدت آلة الحفر المضاءة ذات ارتفاع مفرط ، وكانت المحركات الهائلة الملتفة حولها بالغة الصخب ، فيما استلقت الغرف الناصعة البياض فى الجانب الآخر ، وتكدست خلف آلة الحفر أنابيب على اختلاف الأحجام ..

ووالت العربات والروافع تطوافها هناك على نحو موصول . وانهمك كثير من الرجال فى أعمال مختلفة ، على حين كانت

خيوط الضوء تنغرز فوق الاكتاف الندية العارية .
كان المعسكر كله مثل دوامة محيرة مزعجة ..
وما أن مررنا بالخيام حتى خف بعض الرجال الى استقبالنا بابتهـاج ..

– هل أحضرت معك شيئا من الخمر ؟

هكذا كانوا يسألون خالد وعندما أجابهم بالنفى ، صافحه الآخرون كما تصافح انسانا فى جنازة ما .. ولـكنه أوقف الشاحنة أمام مستودع كبير .. ثم صعد اليها أربعة عمال ، وشرعوا يلقون بالأكياس فى صمت إلى اثنـين آخرين ظلا يقومان بتنظيمها خلف الشاحنة .

كانوا يوالون انجاز ذلك بسرعة خارقة دون أن يعتريهم أى فتور ، وحينما اصطفت كل الأكياس هناك كجدار صلب . كان فى امكانك أن تراهم ينسـلون الى حوض المـاء عبر الأغبرة مثل فئران المخبز !

ولقـد قاد خالد الشاحنة ناحية الخيـام ، وأخرج منها صندوقا صغيرا وضعه فى وسـط الرجال القـابعين بالخيمة المجاورة .. وصاح الجميع على الفور :
– انيزيتـا !

وتحلقوا حول احداها ، وبدأوا يشربون •• فيما احتضن أحدهم الزجاجة قائلا :

– أنا لن أرجع الى العقيلة حين أنال أجازتى •• سأبحث عن مكان آخر !

وقبل الزجاجة •

– الحياة موبوءة هناك كما هى هنا ، وأيضا فى «مرادة» حيث أسكن •• سأرحل معك اذا اهتديت الى مكان جيد !!

وحاول فتح نافذة الخيمة بجواره ، حين سألنى آخر بفضول :

– أتود العمل هنا ؟

– لا •• لا ، مجرد زيارة فحسب !

– آ •• هذا أفضل بكثير ! !

– معذرة ، أنا لم أفهم ••

– حسنا ، أنت لن تشعر بالألفة ، على أى حال ، تجاه ذلك •• أقصد أن يبيعك أحد المتعهدين السماسرة الى هذه الشركة بأربعة جنيهات ، يوميا ، ثم يعطيك سبعين قرشا فقط!

ثم كسر عود ثقاب بأصابعه •• واستجداه جاره قائلا :

– لماذا لا تكف عن خوض هذا الموضوع ؟

– لأنني أشعر كأني مصلوب فوق قمة تلك الهضبة ، عاريا تحت الشمس ، والنسور تنهش صدرى مدى الزمن .. النسور الهمجية ! !

كذلك تفجرت الكلمات من فمه ، بينما رددت فى ذات نفسى :

– انها اللعنة .. لعنة الرب الخالدة !

– حسنا دعونا من ذلك .. ليس ثمة من يستطيع أن يربط الجرس فى رقبة القط .. دعونا من ذلك .

هكذا قال عجوز متآكل .. ولقد توافد الآخرون الى الخيمة فيما بعد حتى بقيت مثل احدى حانات عمال المناجم .. وعلا الضجيج ، وأجهشت الأغانى الفجة بالبكاء الى أعقاب الليل حتى أحسست بالوهن يجعد قواى .. وخرجت لأنام .

واذ أصر خالد فى الصباح أن يتخذ طريقا آخر للعودة قفز الى ذهنى فى الحال اننا سنتوه .. ا لاأننا لم نتوقف قط حتى وصلنا الى « الحميمات » حيث أشار الى تلة صغيرة قائلا :

– هنا وجدوا لامين عكاشة ميتا .. رحمه الله !

– لم لا نلقى نظرة ؟

كان المكان يبعد عن اجدابيا بحوالى مائتى كيلو متر ..
وكان ثمة عند أقدام التلة زجاجات من اللبن ، وبعض علب المبيدات الفارغة ، وحفرة مستطيلة،وآثار طلاء أبيض وزجاجة ماء مغلقة مكتوب عليها اسمه .

ولقد تسللت أصابع خالد تحت قلنسوته الصوفية ، وحك رأسه قائلا :

– تعطلت به السيارة مع مساعده .. وسارا عشرات الأميال ليصعدا هذه التلة كى يتمكنا من رؤية سيارة عابرة.. ولكن المساعد مات قبل أن يصل هنا بأربعة كيلومترات ، وغطاه لامين بقميصه ، ثم واصل السير حتى مات فى السفح. وعندما عثروا عليه بعد أيام وجدوه متخما تماما الى حد ينسلخ كل الجلد فى يديك اذا حاولت رفعه .. ، وقد حفروا قبرا بجانبه وفرشوا فيه لحافا ، ثم دحرجوه فوق اللحاف الذى حملوه بعدئذ من أطرافه .. وكذلك فعلوا بالمساعد .

الصحراء مجرد جحيم ليس غير .. جحيم على مدار السنة ! !

ثم حك رأسه ـ متطلعا الى مركبة قادمة من بعيد ، وقال:
– لقد تهت من قبل ثلاث مرات .. وامتلأ وجهى بالقروح

من أثر الشمس ، وتشققت شفتاى •• وغامت كل الأبعاد فى عينى•• وتقلصت حتى لم أعد قادرا على الرؤية•• ولكننى كنت حسن الطالع •• على أى حال تأكد أن الحظ المسعف يكون بجانبك مدى الحياة برغم كل ما يقال •• الا اذا مت، فعندئذ تدرك – بطريقة ما – أنه تخلى عنك فجأة ! !

وسوى قلنسوته فوق رأسه •

كان ثمة عقرب سوداء الرأس تسرح عند قدمى المساعد الصغير ، وقد داس عليها خالد ، وشرع يسحقها بعنف ، حتى اذا واصلنا المسير أشار الى المركبة القادمة قائلا :

– هؤلاء هم العمال العائدون الى المعسكر من أجازاتهم !

ولقد لوحوا لنا جميعا فيما كانوا ينشدون أغنية مبهجة •

● ●

٢٣ ديسمبر ١٩٦٧

● ●



الهزيمة

فى أفق مخيلتى القاتم ، تبزغ أمامي أحيانا صورة الارنب الوديع الذى يقفز بين الأعشـــاب المترامية فى حضـــن ذلك الوادى الأخضر ، بينما الطيور تصفق بأجنحتها السمراء ، وتغرد فى ابتهاج •• كانت الزهور منتشرة بألوانها الزاهية ، وكان النسيم يسرى ناعما يداعب كل ما فى الوادى • وكان كل شيء مشرقا رائعـــا : الشمس ، والطيور ، والازهار ، والجدول الصغير الذى ينساب بمياهه العذبة فى تؤده ولين• ولم تكن الطيور لتهاب الأرنب ، فبعضها يحط على الأعشاب بجانبه •• ذلك لانه أرنب وديـــع •

لم يزل هـــذا المشهد عالقا بذاكرتى رغـــم أننى رأيته فى

احدى رحلاتى المدرسية بينما كنت صغيرا ، وأنا الان أتذكره كلما انتشرت فى أعماقى السحب السوداء ، انه لشىء مقرف تماما أن أجد نفسى دائب التذكر لهذا المشهد !

وأنا أراه الآن يمر أمامى بينما أقف وراء نافذة حجرتى التى تطل على هذا الشارع المظلم ، يا له من شارع قـذر ، انه كالمستنقع .. وهو يشبه تقريبا حرف « ــا » غير انه فى نهاية الحرف ينعرج شارع آخر ينتهى بمضيق لا يستطيع اثنــان اجتيازه جنب بعضهما .. وقد انتقلنا اليه منذ عام تقريبا ، ونحن نسكن فى البيت الذى يواجه الخط العمودى من الحرف « ــا » وتكاد نافذتى أن تكون فى الزاوية ..

وعندما أفتحها يقابلنى الشارع الطويل بعفونته واذا التفت الى اليسار أرى باب منزل الجيران .. أما اذا نظرت أمامى الى اليمين قليــلا ، فاننى أرى العمود الكهربائى المثبت فى جانب الجدار ، ومنه تنطلق أسلاك عــدة ، بعضها عار ، والبعض الآخر متآكل .. وثمة شىء فى تلك الأسلاك يدعو الى الغرابة ، فمن فوق أحدها وعلى جزء عار منه ، يتدلى فأر كبير الحجم يكاد يشبه قطة صغيرة .. وهو يتأرجح من فوق الخيط كنعل الفرس ، بينما أنتزع وبر جلده .. وهناك

بعيدا ، يحتجب القمر بكتل من السحب .. صغيرة سوداء ، كسرب من الغـربان . يا له من موت محـزن ، لاشك انه سيشعر بالبرد عنـدما يأتى الشتاء ، اذا كان فى وسعه أن يشعر بعد الآن !

وعلى ضفتى الشارع ، تستلقى المنازل المتلاصقة ببعضها ذات الجـدران الرطبـة المتهـرئة وعـلى بعـد أمتـار من العمود ، يوجـد المخبز الذى يرسـل الدخان والاختناق فوق سماء الشارع ، وهو مخبز قذر كل ما فيـه أسود : جدرانه ، وأدواته ، وعمـاله وبجانبه اسطبل كبير مظلم ، يأوى اليه حصان هزيل مع العربة التى يجرها ، ذات الصرير المفزع عندما تسير .

وليس ثمة بالوعات فى الشارع ، مما جعل سكانه يرمون بفضلات مياههم فى عرض الطريق غـير المعبد عنـدما يخيم الظلام ، حتى اذا جاء النهار ، وألهبتها شمس يوليو ، أصبح من المتعذر أن تتنفس .. لأن الرائحة النتنة عنـدئذ تزكم أنفك ، وفى الليل ينتشر البعوض بشكل فظيع وتحاول أن تنام فلا تستطيع ، يا له من بعوض مرعب ، انه يكاد يـكون كالجراد وهو يأتى جالبا معه المرض والقلق .. وأنا أقاسى منهما كثيرا .. أجل كثيرا .

اذا كنت تعيش فى هـذا الشارع منفردا ، لا أحد يقطن معك فى البيت ، ففى وسعك أن تموت ـ وهذا شىء أصبح حسنا ـ بدون أن يدرى بك أحد ، الا اذا سرت عفونتك وتغلبت على عفونة المستنقعات ، وعند ذلك فقط .. عند ذلك سيعرفون انك مت ، ولا أدرى أيحملونك الى المقـبرة أم لا ، ذلك لأننى لم أمت بعد ، فكل واحـد فى الشارع لا يدرى عن الآخر شيئا الا اذا احتاج لشىء ما ، فاللامبالاة منتشرة هنا بشـكل مقيت ، ولاشك أن هـذه العدوى قد سرت الى ، وقد بت أعتقد أن هذا لا يعنينى مطلقا .

غير أن جارتنا التى تقطن فى المنزل المجاور لنافذة حجرتى قد خرقت هذه العادة فهى تأتى الينـا كلما احتاجت لذلك ، ولمـا لم تجد فى البيت من يقوم بشئونه سوى أمى العجوز فقد أصبحت تأتى لمساعدتها فى الغسل ، أو فى الطبخ ، أو فى الثرثرة .. ولأنها تشعر بالوحدة ، فقد لقيت جارتنا مرتعـا خصبا لتمضية الوقت ، حتى أصبح متعذرا أن أرجع للبيت دون أن أراها أحيانا ، وعندما عدت ذلك اليوم ولم أجدها ، سألت عنها والدتى فأخبرتنى أن زوجها قد جاء فى أجازة لمدة أسبوع ، وأنه يشتغل فى الصحراء مع احدى شركات التنقيب

عن البترول ، ولقد حكت لى أيضا عن البيت الذى يسكنونه فقالت انه بيت صغير به ثلاث حجرات واحدة تقطنها جارتنا « نــواره » أما الحجرة الثانية فتشغلها عائلة أخرى مكونة من ؟ وزوجته . وجارتنا «نواره» تربطها صلة قرابة بالرجل، أما زوجته فقد حكت لى العجوز بأنها قبيحة ووجهها مملوء بالوشم ، وهى شرسة ذات صوت عال ، وعندما يغضبها أحد تبصق فى وجهه وتلعنه وهى تحفظ جميع النعوت البذيئة ، وروت أنها كثيرا ما تغضب ! ! وبعبارة واحدة فهى نحيــلة مفزعة مثل خيال المــآتة ، أما الحجرة الثالثة فصغيرة جدا وتستعمل بدل المطبخ ، وهو منزل ضيق « قذر ، غــير جيد الاضاءة » .

حكت لى أمى تقريرا مسهبا عن المعارك التى حدثت بين « نواره » وجارتها هــذه حتى انها أصبحت لا تكلمها ، ولقد رثيت لها كثيرا ، اذ كنت أحترمها وأقــدر مساعدتها لوالدتى غــير أننى الآن أمقتها الى أبعد حد ، وأكاد أحس بالغثيان عندما أتذكر احترامى لهــا .. اننى أكرهها الان .. أكرهها .. انها عاهرة ، عاهرة قذرة سافلة ، فبينما يكون زوجها فى عمــله بالصحراء ، تقضى الليــالى بين أحضــان

عشيقها فى سيارته التى يضعها أمام بيتها ليلا حتى الصباح ،
أجل عشيقها ، ذلك الحقير الأصلع ذو البطن المتكورة كبرميل
النبيذ .. اننى أعرفه جيدا ، فهو يسكن فى نفس الشارع
عند المضيق ، وطبعا لا يستطيع أن يدخل سيارته الى هناك
ولذلك يضعها بجانب بيتها ، وهى عبارة عن حافلة صغيرة ذات
ثلاثة مقاعد عريضة وراء بعضها وبالاضافة الى الابواب
الجانبية لها باب آخر من الخلف يرتفع الى أعلا عندما
تفتحه ، ويبقى مرتفعا من تلقاء نفسه حتى تجذبه الى أسفل .
وهو يأتى بسيارته من رأس الشارع عند الساعة الواحدة
بعد منتصف الليل ، وما أن يصل أمام نافذتى تقريبا حتى
يلف شمالا ثم يتوقف ، بينما عشيقته تكون حينذاك منتظرة
وراء الباب ، وبعد أن يتوقف يسير الى الخلف بضعة أمتار
ويتوقف ليسير الى الأمام ، ثم الى الخلف ، ثم الى الامام
حتى يكون فى استطاعته أن يرجع بالسيارة من حيث أتى عدة
أمتار فقط ، ثم يعود على مهل ريثما تظل السيارة ملتصقة
بالجدار ، وتبقى مؤخرة السيارة مجابهة لنافذتى ، وعندئذ
تكون « نواره » قد استقلت فى المقعد الأخير ، وقد دخلته
من الباب الخلفى الذى كان مفتوحا أثناء عملية التقديم
والتأخير ، وعندما يتوقف نهائيا يطفىء المحرك ثم يقفل الباب

الخلفى بعنف ، ويذهب حتى يصل بيته تقريبا ، وفى أثنـاء سيره يكح ويعطس بصـوت عال ، حتى يوهم الجيران بأن شيئا لم يحدث ، ثم يرجـع متلصصا كالجرذ ، ويفتح باب السيارة الجانبى بحرص شديد ويقفله وراءه بحرص أيضا ، ثم يكون بين أحضـان جارتنا العاهرة الى الساعة الثـانية أو الثالثة ، أكون خلالها قابعا وراء النافذة أنظر من شقوقها، وأحاول أن أرقب كل شىء بينما الظلام يلفنى من كل جانب .. وأنا أقف الآن أنتظر مجيئه .

انها الساعة الثانية عشرة والنصف . لم يبق على الموعد الا نصف ساعة ولكنه أحيانا يقدم قبل الساعة الواحدة ، ولذلك فانى أحاول أن أسبقه .. وها أنذا أشعل سيجارة أخرى وأنتزع منها أنفاسا عميقة ثم أنفث دخانها فيتصاعد كشىء لا أدريه .. ان أعصابى متوترة فالجو حار ، والشارع مظلم تماما ، لم يعد أحد من سكانه يضع مصباحا كهربائيا فوق باب منزله لأن الأولاد الصغار طفقوا يحطمون مثل هذه المصابيح .. أجل ، انهـم يتسابقون فى رميها بالحجارة ، وعندما يصيبون أحدها يغمرهم الفرح وتصدر عنهم ضجة هائلة ، ولهذا بقى الشارع مظلما كئيبا كما هو عليه الآن ..

ولا شيء يمزق سكونه سوى هذه الكلاب الجرباء ، الكلاب الضالة المتشردة ، انها تأتى ليـلا كى تبعثر صناديق القمامة أمام المنـازل وتبحث فى محتوياتهـا عن شيء تقتـات به ، يا للكلاب الجائعة المسكينة ، اننى أحيانا أشفق عليها ، ولكن عندما يشتد نباحها ألعنها ، وألعنها حتى يجف حلقى ، لاننى عندئذ أكون متضايقا وتكاد أعماقى تحترق .. انها الآن تبعثر القمامة فقط ، ولا تصدر نباحا .. وهى ثلاثة كلاب .

وهناك ، فى الاسطبل ، يسعل الحصان سعالا عاليا متقطعا، لقد هزل ولم يعـد بامكانه جر تلك العـربة ، وأعتقد أنه سيموت عما قريب .. أجل ، سيموت .

يا له من صيف محرق ، أكاد وراء النافذة أتصبب عرقا ، وأنا أغير موضعى عدة مرات كى أجففه بذيل قميصى المعلق، بينما يعانقنى البعوض والظـلام والعفونة من كل جانب ، ولكن كم الساعة الآن ؟ لم يبق سوى بضعة دقائق ويأتى ..

– انك حقير قـذر .

كذلك قالت لى نفسى .

– كان يجب أن تنام لكى تصحو لعملك مبكرا ، انهم يهينونك عنـدما تتأخر .

– ولـكنى سأصحو غـدا مبكرا .

– لن تستطيع ، لقد حاولت ذلك من قبل وفشلت ..

– انك لن تستفيد من الانتظار سوى الارهاق والقلق .

– اف .. ليذهب العمل الى الجحيم .. لن أبرح مكانى وسأنتظره وعندما يأتى بسيارته سألقنه درسا لن ينساه .

– أنت كاذب ملعون .. لقد قلت هذا كثيرا ولكنك لم تحرك ساكنا .. ويحسن بك أن تنام فأنت متعب .

وعندئذ تتحرك خطواتى نحو السرير فأتمدد عليه ، وأحاول أن أنام بينما سمعى يتسرب من الشقوق ملتقـطا كل حركة تحدث مهما كانت خافتة .

– ولكن يجب أن أنام ، النوم يريحنى من كل هذا العناء .

– أجل .. أجل ، انك عندما تنام لن تشعر بهذه الأرض الكئيبة .. لن تشعر بالعذاب ، كالموت تماما .. نعم ، النوم كالموت ، هل تدرك هذا ؟ أنظر الى ذلك الفأر المعلق ، انه لم يعد يحس بالتيار الكهربائى .. لم يعد ينتفض من لسعاته .. لأنه مـات ، أتسمع ؟ لقد مات وأنت يجب أن تنام .. يجب . وليحترق الجميع احتراقا شرها .

وأتقلب على السرير من جنب الى آخـر ، وأدفن رأسى

فى الوسادة ، وأنبذ كل شيء يستدعى التفكير ، وأحاول أن أنـام .

– ولكن هذا البق اللعين يا الهى ، انه يعشعش فى السرير وفى الحفر والشقوق التى فى الجدران وفى السقف ، انـه يمتص دمى ولا يدعنى أنام ، انه يقتلنى ببطء .. يا الهى .. يا الهى انها حياة قاسية وأنا أريد أن أنام .

وأتقلب من جديد على السرير ، بينما عرقى يبلل كل شيء .

– لو لم أكن مفلسـا لأحضرت معى زجاجة (ساسون) ككل مرة .. انها خمر لعينة ، ولكنها كفيلة بأن تدعنى أنام ، بضعة كؤوس منها تلهب أعمـاقى ، ثم تثقل رأسى ، فأكون عاجزا عن التفكير .. ثم .. ثم أنام ، ولكننى مفلس .. مفلس تماما ، أشد افلاسا من أى شيء فى هذا العالم الكريه . كم تمنيت أن .. هاهى السيارة ، لقـد أتت ، اننى أسمع صوتها مقبلا من رأس الشارع ..

وقفزت من السرير ، متخذا مكانى وراء النافذة ، ووقفت أرقب من احدى الشقوق : انه يقترب ، يقترب .. لقـد أصبح الصوت عاليا فمزق السكون .. انى أراها الآن مقبلة تتمايل من فعل المنخفضات والمرتفعات التى فى الشارع ..

لقد اقتربت كالأفعى ، كالثعبان ، كاللعنة .. انها تسير ببطء وهى تمر الآن أمام الاسطبل ، لقد أصدر الحصان شخيرا عاليا كالزئير ودق الأرض بقدمه بعنف ، ثم أخذ يسعل عندما فاتته السيارة ، انها تقترب .. تقترب ، وقبل أن تصل نافذتى دارت شمالا ، وسارت بضعة أمتار ثم توقفت .. ان عشيقته تنتظر الآن وراء الباب وها هو الرتاج يفتح فيحدث صوتا خافتا ، فيما بدأت السيارة تتأخر على مهل .. بابها الخلفى مفتوح .. انها تتأخر ببطء ، لقد اقتربت .. باب المنزل يحدث صريرا ثم يفتح ، ها هى .. أطلت برأسها ونظرت الى الشارع .. تقيأ بها الآن باب المنزل ، اجتازت باب النافذة ، أقصد باب السيارة .. ابتلعها المقعد الأخير .. لقد بدأت السيارة تتقدم .. توقفت ، انها تسير الآن الى الخلف ، وقبل أن تلامس الجدار توقفت .. ثم تقدمت وعادت من حيث أتت عدة أمتار لا غير .. وها هى الآن قادمة بمؤخرتها حتى توقفت أمام النافذة .. لقد أطفأ المحرك ، ثم دار حول السيارة وأقفل الباب الخلفى بقوة ، وبالتالى سار متجها صوب بيته ، مرسلا سعالا عاليا مفتعلا .. انه لا يشبه سعال ذلك الحصان الحزين .. لا يشبهه فى شىء .

لقد تأخر فى المجىء هـذه الليلة •• وها أنذا أصلح من وقفتى بحرص شديد متكئا بمرفقى على حافة النافذة ••

— يجب ألا أحـدث صوتا كى لا يسمعنى •• سأكتفى بالنظر الى الفأر المعلق حتى يقبل •

ورفعت رأسى لأتطلع اليه •• كانت نافذتى مقسمة الى أربعة أبواب ، وهى تشكل خـطين متقاطعين كالصليب •• كالصليب تماما ! وأنا مصلوب خلفها ، بينما النصف الأعلى من النافذة مفتوح والنصف الأسفل مقفول •• ولهذا كان باستطاعتى دائما أن أنظر الى الفأر حتى عندما أستلقى على السرير •

— أف •• يا لهذا الجو الملتهب ، ان العرق ينهمر مـنى بشكل فظيع ، والبعوض يطن حولى طنينا مفزعا •• كان يجب أن أحضر معى زجاجة (ساسون) بأية طريقة •

كذلك قلت فى نفسى بينما كنت أنظر الى السحب الصغيرة السوداء التى تحجب القمر كأسراب الغربان •

— يجب أن تنام •• أى فائدة ستجنيها من الانتظار ؟

— سأقبض عليه فى سيارته •• وأضربه حتى أسقط من الاعيـاء •

– أنت تعرف بأنك تكذب •• تكذب هكذا بصفاقة مطلقة •

– سترى •• سترى •

– انك تقول هذا دائما دونما أن تفعل شيئا ، أتذكر ذلك اليوم فى المقهى الذى تتردد عليه وتجتر فيه الفراغ ؟ لاشك أنك تذكره ، (فالجرسون) هناك صديقك لانه يقرضك النقود ، وأنت تسميه (الراعى) ، وحينما سألك عن القطيع الذى يرعاه ، أشرت الى رواد المقهى وقلت : (نحن قطيعك) ولما ضحك أضفت : (ولكنك راع فقير يا صديقى ، لأن قطيعك من التيوس !) لاشك أنت تذكره وتذكر الشاب المخمور الذى أتى الى المقهى ذلك اليوم ، وعندما جلس طلب فنجان قهوة ، لقد لفت انتباهك نباحه حينما استبطأ القهوة ، وبعد قليل أحضر له راعيك كوبا من الحليب ، فدلقه المخمور على وجهه ، وزمجر : (أنا طلبت قهوة يا •• يا ••) •
وحاول ضربه ، وحينئذ قفزت أنت من كرسيك ، كنت تريد أن تحطم أسنانه •• ولكنك تراجعت أخيرا ، وأخذت تجذب الراعى الصغير الذى كان يردد : (لقد نسيت فأحضرت له الحليب ، ثم انه يجب أن يشكرنى لأن الحليب أحسن من القهوة) •• وكان يجفف الحليب والدموع

من على وجهه بينما كنت تهـدىء من روعه .. تهدىء من روعه فقط ، وهو لا يزال يردد : (الحليب أحسن من القهوة) وأخيرا خرجت من المقهى حزينا مغتما ، وسرت حتى وصلت شاطىء البحر عند (الكورنيش) وجلست هناك منكسرا .. ثم طفقت تبكى .. أجل ، لقد بكيت .. وكانت دموعك تتساقط وتضيع فى ميـاه البحر العميق ! ! أنت لاشك تذكر كل هذا .. انك لم تفعل شيئا للشاب المخمور ذلك اليوم ، ولن تفعل الآن شيئا أيضا .. فأنت مجرد ..

– هس .. هس ، لقـد أتى أننى أسمع وقع خطواته المنخفض .. لقـد أتى .

كان يسير ببطء شديد ، وقد تقدم نحو السيارة حـتى أصبح فى استطاعتى أن أراه ، انه يسير على رؤوس أصابعه ، ويكاد رأسه يتوارى بين كتفيه كمن ينتظر صفعة على عنقه ، وحينما وصل أدار مقبض الباب الجانبى حتى فتحه ، ثم طأطأ رأسه ودخل .. وعندما انتقل الى المقعد الخلفى ، سمعت همسا خافتا وان لم أفهم منه شيئا .. ثم تواريا فى المقعد .

وغيرت ثقل جسمى على الرجل الاخرى ، وازدادت خفقات قلبى ، واقترب وجهى من الشقوق .. كنت أتنفس من فمى

حتى أستطيع أن أسمع بوضوح أكثر .. كل شيء كان ساكنا ولكن ها هى الكلاب قد أتت .. اتفو .. ان نباحها يعلو بشكل مريع ، وقلت فى ذات نفسى (ستعوى قليلا .. ثم تذهب) ، ولكنها استمرت فى النباح .. وعندئذ صرخت فى داخلى :

– اخرسى .. عليك لعنة كل شيء مقدس .

غير انها وقفت عند قدمى العمود مرسلة عواء عاليا كعواء الذئاب .. وكانت ثلاثة كلاب ثم أخذ أحدها يلعق وجه الكلبة التى بجانبه .. بينما وقف الآخر ينبح بالقرب منها هازا ذيله .. (يجب ألا أحفل بها) ، قلتها مدققا النظر فى داخل السيارة ولم أر سوى كتلة من الظلام .. ولكننى سمعت أزيز السيارة ، وعواء ذلك الكلب .. فالتصقت بالجدار كالصرصار وتتابع تنفسى بسرعة وانهمر العرق من كل موضع فى جسمى .. وجف حلقى وأصبح سقف فمى كقطعة ضامرة من الخشب .

– اننى أشعر بالظمأ ، أود لو أشرب جرعة ماء .. ولكنى لا أستطيع أن أبرح مكانى .

– أنت تتعذب الآن .. كان يجب أن تستمع الى أمك

عندما اقترحت عليك الزواج بتلك الفتاة .. كان يجب أن تفكر فى ذلك لأنها فتاة طيبة .

– صحيح انها فتاة طيبة ورائعة .. وهى كالأرنب الوديع .. كالحمامة وأنا أحبها كثيرا مثل كل البشر ، ولكنى لا أستطيع أن أتزوجها لاننى .. لست أدرى ماذا ! لاننى لا شىء .. أجل لا شىء .

– أنت تخادع نفسك لا غير .

– لا .. لا ، أنا أعنى ما أقول ، أنا انسان تافه ، أجوف ضائع .. ولا أريد أن أشركها فى هذا المصير .. لا .. لا أستطيع أن أتزوجها .. لا أستطيع ! !

كنت أغير ثقل جسمى من رجل الى أخرى كحصان العربة الذى يقف فى المحطة ساعات طويلة .. بينما الجو لا يزال كالجحيم ..

– لو لم تكن ..

– هس .. هس .

وسمعت فحيحا كفحيح الحرباء .. بينما الكلب يهر .. والآخر لا يزال يعوى فالتصقت بالجدار .. وتساقط العرق منى .. واشتد عواء الكلب .. وقلت فى ذات نفسى :

– ثمة أشياء رائعة فى الحياة تستحق أن تفكر فيها بتدفق

هكذا .. ولكنك انسان وضيع .

– هذا لا يهمنى ، فلتفكر فيها أنت .

وأنصت الى صرير السيارة .. بينما البعـوض لا يزال منتشرا حولى انه يلدغنى بنهم شديد .. وأخـذت الكلاب تعوى بعنف .. وصرخت فى أعماقى :

– ليلعنك كل شيء مقدس ..

وها هى تبتعد الآن حتى تصل الى رأس الشارع .. ان نباحها يصل الى خافتا ، خافتا .

وقلت : فيم كنت أفكر ؟ لقد نسيت .. لست أدرى لقـد نسيت .

ان رجلى قد تخدرت الآن ، وعلى أنأستند على الأخرى، وأن أجفف هذا العرق النتن .. ونظرت الى الأفق ..

فى هذا الصيف المحرق .. ومنـذ أيام هاجرت أسراب الخطاف ، ذلك الطائر الحنون ذو الصدر الابيض الذى يشبه السنونو الى حد كبير .. هاجرت عبر البحر المتوسط .. لقد رحلت ! وهى تطير اثنين.. اثنين كل مع أنثاه .. وعندما يدرك الأنثى التعب تتعلق بطائرها ، وعندئذ تخفق أجنحته بسرعة فائقة حاملة ثقله وثقل زوجته حتى تسترد قـواها

وقلت فى نفسى (ولكننى لا زوجة لى) وفى الحين تذكرت ما كنت أفكر فيه .. كنت أفكر فى الزواج .. (نعم أنـا لا أستطيع الزواج) .

– انك توهم نفسك فحسب ، فى وسعك أن تقتصد قليلا وتدخـر .

– أدخر ؟ أنا مجرد طباع حقير.. وراتبى ضئيل جدا .. ثم اننى لا أريد أن أدخر .. لا أستطيع فأنا لا أؤمن بـ .. وسمعت نباح الكلاب مقبلا من بعيد .

– يا الهى .. انها حياة قاسية .. كذلك قلت متطلعا الى الفأر المعلق ، واستطردت :

– أجل أنا طباع حقير.. ان الآلة هناك تجترنى بلا رحمة اننى أكرهها .. وأكره كل عمل .. أكرهك أنت أيضا .. ولتحملك اللعنة الى أقصى الجحيم .

.. واقتربت الكلاب حتى وقفت بجانب السيارة ، واشتد نباحها .. كان الكلب يعضها فى عنقها .. وكانت تعوى .. واشتد صرير السيارة وأخذ الكلب الآخر يهز ذيله باطراد مرسلا عواء عاليـا .. وطق شىء ما فى السيارة .. واستمر أزيزها .. اننى أحترق .. اشتد النباح .. سمعت زفـرة

واهنة •• انقطع العواء وها هو الكلب يكف عن عض عنقها ثم يسير واياها بعيدا •• ووقف الكلب الاخر قليلا بدون أن يهز ذيله ، ثم تبعهما مخفض الرأس ••

لقد كف عن النباح •• ولم ينظر الى صناديق القمامة على جانبى الطريق •

– لتلعنك بقايا الاشياء المقدسة •• أيتها الكلاب •

كذلك قلت فى داخلى ، بينما الدخان يملأ أجواء حجرتى الضيقة (أنا أشعر بالاختناق) كنت مرهقا الى حد الموت ، غير أننى لم أبرح مكانى بعد •

لقد خرج الآن من الباب الجانبى وسار الى مؤخرة السيارة ففتح بابها وعندما انزلقت منه الى الخارج رأيت شعرها المتناثر على كتفيها كشلال أسود ، ثم سمعت سعال باب منزلها وصوت الرتاج الخافت •• وبعد أن أقفل السيارة ، سار الى بيته بخطى متعبة وحينئذ تركت النافذة وجلست على السرير واضعا رأسى بين يدى •

كان الظلام منتشرا حولى •• وأردت أن أبصق على الارض ولكن حلقى أصبح جافا فلم أستطع وكنت منذ فترة أشعر بظمأ ملح غير أننى لم أشرب ، ولا أريد الان أن أشرب ••

كل ما أريده هو أن أنام .. أنام فقط .. كان البعوض يطن حولى .. انه لا ينام وأنا لا أبالى الآن بلذعاته فليمتص هو والبق دمى .. اذا كان ثمة دم ، أنا لن أشعر بذلك الان .. كل ما أشعر به هو أننى مرهق حتى الموت .. وأعانى انسحاقا لعينا .. لم أعد أشم رائحة عرقى ، ولا العفونة التى فى الشارع .. لم أعد أحس بشىء سوى الارهاق والرغبة فى النوم لأنه كالموت .. كالموت ، يريحنى من كل هذا العذاب .

واستلقيت على السرير كجثة هامدة ونظرت الى الفأر المعلق على الاسلاك كنعل الفرس .. ومن فوقه ، هناك بعيدا يحتجب القمر بكتل من السحب .. صغيرة ، سوداء ، كسرب من الغربان وتحركت شفتاى :

- يا له من مصير محزن .

كان ثمة شىء يتدمر فى أعماقى باتزان مفرط .

وفيما كان الشارع غارقا فى صمته كالمقبرة .. دفنت رأسى فى الوسادة ولم أشعر بالبق يزحف فى السرير .. كنت أريد أن أنام ، ولم أعد أحس بشىء .. لا شىء .. لا شىء

فى داخلى ســوى الخواء وبضع لعنات حمقــاء ، وتذكرت الكلاب .. فتمتمت :

– لتلعنك بقايا الأشياء المقدسة ..

وأكملت : (اذا كان ثمة بقايا) .

وقبل أن أنكفىء على الجنب الآخر .. نظرت نظرة أخيرة الى الفــأر .. وقلت :

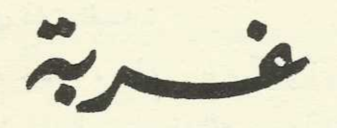
– اذا كان ثمة بقــايا .. فلتغفر لنــا ، فلتغفر لنــا هذه الهزيمــة .

وأغمضت عينى .. ونمت .

● ●

٤ أكتوبر ١٩٦٦

● ●



« أتفهم يا سيدى ؟ .. أتفهم معنى
ألا يجد المرء مكانا يلجأ اليه
على الاطلاق ؟ ! »

« ديستويفسكى »

صحا من النوم بجهد بالغ ، وأسقط رأسه تجاه الحصير متطلعا بعين واحدة الى ترعة الشمس المستلقية هناك .. وأدرك على الفور أنه تأخر كثيرا فى نومه .. ثم تثاءب ، وفكر كالعادة أن يتخلف عن العمل .. ولقد امتسحت الغضون المنطلقة من زاويتى عينيه لهذه الفكرة .. وأدار وجهه ببطء ناحية الجدار مسترسلا فى نوم عميق !

انه لم يعد يحلم ، منذ سنين لم ير حلما قط .. وانه لينام الآن باستغراق كامل ملتصقا بالسرير التصاقا كليا مثل

محارة ، دون أن يصدر عنه ايما شيء سوى رائحة قدميه !

وفيما نهض أخيرا ، هوى بقدميه الى الأرض وفرك عينيه ثم تمطى قائلا فى ذات نفسه :

– هذا يوم جديد .. أعنى يوم آخر !

كان عليه أن يتناول طعام غدائه .. ولكنه لم يجد لديه رغبة فى ذلك .. لم يجد رغبة ..

– أنت لم تعـد لديك رغبة فى شيء .. أى شيء على الاطـلاق !

هكذا حدث نفسه بينما هم بالخروج من البيت ، مرسلا بصره صوب المقبرة المواجهة للمنزل .. والنباتات الكثيفة المشرئبة عبر القبور !

ولقد سار طويلا الى غير مكان معين ، حتى ارتمى على مقعد فى أحد المقاهى وأنشأ يفكر منتظرا فنجان القهوة :

– أنا أفكر بلا جدوى .. أفكر كثيرا ، ولعلنى سأجن ذات يوم !

ثم أعقب متنهـدا :

– ربما يكون ذلك رائعا .. من يدرى ؟ !

– قاويطه !

– لعلنى مجـرد مشرد مثله !

وتطلع الى قطعان الغيـوم التى بدأت تلطخ السماء .. والى الشحوب الوافد عبر الافق .. ودفقة الصقيع الواهنة واحتضار الضـوء المفاجىء .. وذلك الطائر المترنح فوق الاسلاك لضبط توازنه .

وتشبثت قبضته بحافة المائدة حتى اهتزت قليلا .. وأدرك فى الحال أن النادل قد أحضر الفنجان .

– ولكن لمـاذا ؟ .. لمـاذا ؟

كان قلبه قد غدا الآن مثل حبة لوز متسوسة .. ولاح له على وجه اليقين بأنه ، كجثة كلب ، قد فقد الاحساس بالأشياء فجأة .. وانه لا يتمنى أن يسير فى أى اتجاه سوى ذلك الحى !

– ربمـا تكون هناك أية اثارة من أى نوع !

وقادته خطواته على نحو تلقائى الى ميدان الحى .. والتقى هناك برفاقه الذين يأكلون أنفسهم مثل الجحيم .. وحـين اقتعد عتبة دكان « الوشكة » ــ مؤجر الدراجات ــ الذى قبع يسكر بالداخل ، كان فى وسـعه أن يرى ذلك الديك المتسخ وهو ينبش فى محتويات صندوق القمامة أمام أحد

الأبواب ، لقد ظل يبعثرها بلا انقطاع باحثا عن شيء ما ..
ولكن ماذا يكون فى قمامة تننة ! ؟

ثم مسح ببصره الدكاكين والبيوت الهرمة فى الميدان ،
حتى توقف عند دكان العجوز عثمان ، حيث تباع كسر الخبز
والنخالة والفجل .. ، ورأى تلك الفتاة قادمة من هناك ..
انه يعرفها جيدا ، ويعرف أنه أحبها ذات يوم — أو هكذا
خيل اليه — انه يتذكر تماما كيف كانت خصلات شعرها
المنساب تهتز برفق على اثر خطواتها المنكسرة .. كيف كانت
أهدابها الطويلة تستلقى فى اغماضة خجلة حين تمر أمامه ..
كيف كانت الحياة مبهجة حينذاك !

.. ولكن كان ذلك منذ سنين .

— أوه ، أجل ، منذ سنين بعيدة !

ولم يعد يأبه الآن لشيء من هذا .. وأنه ليعلم لماذا ..
اذ أخبر بطريقة ما أن والدها الحوذى كان يحملها كل يوم فى
عربته الى المدرسة ثم يرجع بها .. كان يفعل ذلك باتصال ،
فيما كانت تخبر صديقاتها بأنه مجرد حوذى لا تعرفه مطلقا ،
سوى أن والدها يستأجره دائما !

ولقد تحقق أخيرا من ذلك ، وكرهها بمرارة .. ثم فقد أى

أثر للحب والكراهية معا ، الى حد أصبح قلبه مثل فلينة صغيرة رامضة !

وتجمع الأولاد أمام الدكان .. وبدأوا يتناهبون الدراجات ، وينطلقون بها على الفور .. انهم يعلمون أن « الوشكة » يسكر الآن ، وسوف لن يتذكر الساعة بعد قليل .. ولن يعيرهم اهتماما مثلما يحدث دائما .

واذ أفرغ زجاجته ، خرج يترنح قاصدا دكان الجزار .. ولقد اشترى منه الية شحمية نيئة .. وشرع يقضمها على ناصية الشارع بنهم ، فيما ظل الدهن يتسايل من زاويتى فمه على ذقنه غير الحليق .. وحين انزلقت من بين يديه الى التراب ، أخذ يمسحها بكفه كما تمسد شعر طفل .. ثم واصل نهشها من جديد .. !

ولقد امتعض أحد الرجال ، وطفق ينتهره بعنف ، ولكنه لم يرد عليه بادىء الأمر .. وبدا ساهما قليلا بعدما توقف عن المضغ .. ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة مثل ابتسامة مجروح يحاول أن يخفى ألمه .. وقال له بخفوت :

— أنت مجرد بغل .. بغل بليد ، ولكن دعنى أوضح لك : حين يكون ثمة دمل فى مكان ما بجسدك .. دمل متخم ، ويتسلل اصبعك ليحلق حوله فى لمسة دائرية ناعمة .. هل

تفهم ؟ ، وتواصل ذلك عدة مرات ، شاعرا بصلابته تحت اصبعك .. عندئذ تشعر بلذة .. بمتعة خدرة ، تدفعك الى حكه بأحد أظافرك بحذر كأنك تحاول دغدغة أحد ما فى قدمه . هل تدرك هذا ؟ .. حسنا ، ذلك الدمل ، انه قلبى ! !

ثم نهض بتثاقل وسار الى دكانه مخفض الرأس الى أن ارتسى بالداخل ، وغاب فى نوم غامر !

لقد لاحظ ذلك المشهد المحزن .. وتململ فى جلسته فوق العتبة .. وشعر أن رجله أصبحت خدرة .. ولكن بصره تهالك على الديك المثابر الذى لا يزال يعبث فى صندوق القمامة ..

وتمنى لو يستطيع البكاء !

ونظر الى السماء الغائمة .. والعتمات المقبلة من بعيد ، بينما اخترق سمعه صوت المؤذن ولكنه تذكر فجأة ذلك العجوز المطارد .. والطائر المترنح .. وأعشاب المقبرة الكثيفة .. والديك الأحمق المتسخ .. والتفت بعد قليل الى صديقه قائلا :

– ألم تكن تصلى من قبل ؟ !

– هذا صحيح .. ، ولكن بدا الأمر كما لو أننى أتباهى

بوســـام كنت قد اشتريته بنقودى ! !

— حسنا ، أنا أدرك ذلك .. أدركه تماما !

هكذا أجابه بايمـــان مطلق ، غائبا فى بعد قصى .. فيما امتلأت جبهته بالتجاعيد .

وأقبل الليـــل ..

أقبل الليل بلا قمر .. وتشاغل الأولاد بتصيد الفـئران المـــارقة من تلك الفجرة فى باب دكان العجـوز عثمان .. كانوا يحملون عصيا ومكانس .. وكلما سحقوا فأرا تعـــالى صياحهم .. ولقد شعر باستياء وتقزز ، وكان يلوى عنقـه تجاه نوافذ العمارة المقابلة .. النوافذ الوردية المضيئة ، الى أن تقادم الليل .. وانفض الجميع ، على حين بدأت النوافذ تنطفىء .. وتنطفىء ، حتى بقيت تلك النافذة العليـــا التى عندما قام من مكانه وســـار بضعة خطوات ، انطفأت هـــى الأخـــرى .

واذ غيبه الطريق المظلم بعدئذ ، أيقن أنه مجرد غريب .. غريب ليس غـــير ! !

●

●

٢٧ ابريل ١٩٦٨ م

وعلى الأرض السلام

« وتسألنى كل افريقيا يا مكادى :
لمن أنت تطوى البحـار ؟
أفتش عن شهر زادى !
وعن قطعة من فؤادى !
أفتش عنك ، مـكادى ! ! »

« الصوفى »

كان اسمها سكينة .

وقـد أحبها الجميع بتدفق هائل ، اذ أنهـا طفلة جيدة ذات ابتسامة مشرقة .

كانت وسيمة جدا ، ذات شـعر كستنائى غزير ، وعينين عسليتين مدهشتين ، وقلب طافح بالغبطة طول الوقت .

أنت لا تستطيع بأى حال أن تتصور كم كان يعـزها كل الجيران بشارعنا ، ولكنها كانت أيضا شـقية الى حد ما ، بحيث لاتعرف كيف تستميلها نحوك ، ولقد ظل أحد أصدقائى يفقد صـوابه بطريقة مضحكة كلما أراد أن يضمها اليـه ، اذ سرعان ما تقفز بعيدا عنه مثل برغوث بحرى !

كان اسمها سكينة ..

وكانت لا تقبل الهـدايا من أى نوع ، ولكن صديقى (أنا لا أذكر اسمه الآن) طفق يتودد اليهـا بلا انقطاع .. ويهمر فى أذنيها كل الكلمات الحلوة ، غير أنها ظلت تدرك بطريقة ما أن لسانه زلق مثل قشرة موز ، فكانت تنظر اليه بعين واحدة مثل قبرة ، ثم تنأى عنه على نحو فورى !

وعلى أى حال ، فقد أخبرها ذات يوم انه سيحكى لهـا خرافة شيقة .. كان يقتعد عتبة بيته منتظرا آذان المغرب ليفطر .. وفيما اقتربت منه سكينة أغمض عينيه فى غيبوبة قصـيرة ..

« كان .. يا ماكان .. »

وبدت نظراتها أكثر شراهة ..

كان ثمـة عاشقان يدعيان جميل وجميلة ، قالت العرافة أنهما سيتزوجان فى الأيام القليلة المقبلة .. وفى يوم ما ذهب جميل ليرعى غنمه فى السهب الممتد خلف الهضاب ، وأثناء غيابه وفد على القرية غول ضخم الجثـة وطلب أن يتزوج جميلة عارضا أن يعطى وزنها ذهبا ..

وعبر أشـعة الغروب الشاحبة ، رحـل بها على حصانه

الرمادى المجنح الى مكان مفرط البعد ، ثم صعد بها نخلة سامقة فى احدى الواحات الى أن أسكنها فى كوخ رابض فوق النخلة .

وعندما رجع جميل أخبروه بأن حبيبته ماتت ، واروه قبرا خارج القرية كانوا قد دفنوا فيه خروفا .

كان ذلك عملا سيئا للغاية ..

ولقد شعر جميل بحزن قاهر ، وحفر بئرا بجوار القبر زارعا هناك حقلا من أزهار عباد الشمس .. والذرة ، وظلت القوافل تعرج عليه باتصال لتستسقى بعد أن تمر بالمكان الذى تقطنه فتاته .

كان الغول يغيب عاما كاملا حينما يذهب لانجاز أى شىء وكانت سكينه - أوه .. أعنى جميله - كانت تسد له ضفيرتها فى كل مرة ليهبط النخلة .. ثم تستعطف كل مسافر بعدئذ قائلة له :

- يا عابر المتاهة الجرداء .. مر على جميل - تحوطك بعينها السماء - وقل له جميلة .. فى غرفة نائية طويلة تنوشها عواصف الأنواء !

.. ولكن جميل كان مجرد راع سىء الحظ ، اذ أن

الجوابين ذوى العيـون المطفأة ظلوا ينسون هـذا ببساطة مطلقة !

– هذا كذب مفتضح !

كذلك قالت سكينة فجأة ثم شرعت تعدو الى أن توارت فى الشارع الجانبى ، فيما شعر صديقى بالخيبة .. وبالجوع يمزق أعماقه فى انتظار الافطار !

كان اسمها سكينة ..

ولقـد ضاعت فى اليوم التـالى ، ضاعت تماما ، وطفق الجميع يبحثون عنها فى كل دروب المدينة عبر مسـيرة مترعة بالشوق والحزن ، بينما أخذ صديقى يذرع الضواحى والقرى متشقق الجبين ، مشرئب العنق مثـل أوزة محلقة ، وكانت أصداء نداءاته تذوب فى الفراغ السحيق .

كنا نلعب الورق كل ليلة فى بيت أمام المقبرة اليهودية .. وظل صديقى يأتى الينـا هناك منهوك القـوى ، ويجلس مقرورا قلقا ، مزرق الشفاة حـتى اذا حاولنا اشراكه معنا أبدى امتعاضه قائلا :

– أنتم تلعبـون الورق فى رمضان .. وتسـكرون بقية السنة .. مجرد نعامات حمقى .. ليس غير .

ثم يسوى معطفه .. ويخرج .

كان دائما يرجع الى بيته وحيدا آخر الليل ، متطلعا فى طريقه الى شىء محتجب خلف قطعان السحب ذات الذوائب المتوهجة .. متمنيا فى قرارة نفسه ، لو يقصف الرعد علـى نحـو ما .

وانفجر الزلزال ..

وانفجـر الزلزال ذات ليـلة فى مدينة المـرج ، فى أيام رمضان الأخيرة ولقد رحل صديقى الى هناك على الفور ..

كانت المدينة غارقة فى الظلام والصخب .. وكانت أعمدة النور ملقاة فى عرض الشوارع ، والأشجار وركام الصخور ، والأحجار ، فيما أخـذت سيارات الجيش تسلط أضواءها على الرجال المنهمكين فى الحفر عبر الأنين والصراخ والأمطار المنهمرة على نحو موصول !

ولقد تيبست أوصاله من الصقيع الحاد فى بادىء الأمر ، ثم طفق يشارك الآخرين فى حمل المتضررين الى مبنى المحكمة وسط الأوحال ونحيب الصغار مدفوعا بشىء هائل المد على نحو غامض ، حتى أن الأمر كله بدا مجرد حلم معتم موحش الا أن ذلك بدا يتضح قليلا .. قليلا عندما وجد نفسه قادرا

على الرؤية بصلابة بين الجموع العملاقة الملطخة بالدم والطين والعرق •• واذ تقادم الليل ، جمع بضعة أعواد من الحطب وأشعل نارا مع أربعة آخرين ، وتحلقوا هنالك فى صمت وقور انتظارا الى وفود أولى خيوط الضوء فيما كان توهج اللهب يعكس الاجهاد فى العيون •• ثم سعل أحدهم :

– كنت أحب ابنة عمى •• وقد تركت الليلة آخر نبض لها على كتفى •

كذلك قال كأنما يحدث نفسه •

– تهشمت جارتنا محتضنة أحد أحفادها •• شىء محزن، لا يرى المرء هذا دون أن يخنقه البكاء •

هكذا ردد الآخر محركا جمرة بعود صغير •

– حسن اننا بذرنا الأرض قبل أن يحدث هذا •

وأشعل علبة سجائره الفارغة !

– اللعنة على كل الموسم •

كذلك نفث أحدهم ملقيا بورقة صنوبر الى النار •

وتنهد صديقى قائلا :

– سيشيدون مدينة جديدة بالتأكيد !

– أعتقد هذا •

كان صديقا طيبا بقدر ما يستطيع .. وكان اسمه ـ محمد ـ وحينما اكتظ مبنى المحكمة فى اليوم الثانى ، كان فى ميسورك أن تراه ـ صائما ـ ينقل المصابين الى مبنى البريد، الى حد شعر فيه بالدوار ، ولقد تقوس بجانب جدار ، وخيل له انه تقيأ كل ما احتواه طوال عمره حتى اذا ثبتت أمام بصره الأشياء شرع يزيل الأتربة والاحجار فى أحد البيوت المنهارة مع رجال الكشاف .

كانت احدى الغرف قد تهاوت سوى الجدار الشرقى الذى سندته أعواد السقف المغروسة من الجانب الآخر فى الطين والصخور ، وكلما أزالوا شيئا من الأنقاض عن العجوز المدفون هناك ، تتغلغل الأعواد فى الركام أكثر ويميل الجدار ببطء .

غير أن الشمس انبثقت فوقهم من خلال أعمدة السقف وسرى الدفء فى الأجساد ، وحلقت رائحة المراعى القريبة غب المطر .. وتقاطرت قطرات العرق .. وتطلع الأطفال فى فضول شره .. ولم يبق ثمة ما يخشى .

ولقد انتشل محمد فيما بعد ذلك العجوز ، كان مجرد جثة باردة مسحوقة العظام مثل كسر الخبز المتيبسة ، واذ

حمله على كتفه الى مبنى البريد ، ســـار حوله الأطفال ..
الأطفال ذوو العيـــون المدهشة !

كان اسمها سـكينة .

ولقد عثر عليها محمد تائهة فى مدينتنا المتخمة بالمقابر بعد عودته مباشرة من المرج ، وقد بدت وديعة ورائعة على نحو مبهـــج ..

كان « عيـــد الفطر » فى اليوم التـــالى .

● ●

٩ ديسمبر ١٩٦٧

● ●

الأصدقاء

انه ليس فى امكان أحـد أن ينسى ذلك الرجل •• أن ينسى عينيه الوديعتين وابتسامته الودودة•• ونظراته الطيبة !

كان يأتى الى الحانة دائما بمفرده •• ويجلس فى طرف « البـار » على أحد المقاعد ذات السيقان الطويلة •• وينظر الى المرآة المواجهة ، مدخنا لفافاته فى استغراق حزين !

كل ليلة كان يفعل ذلك !

ولقد كنا متحلقين حول المائدة ذلك المساء ، عندما لمحته يمسح الحاضرين بنظرة سريعة •• ثم يسحب خطاه الى المقعد المنتصب فى أقصى الزاوية !

كان ثمة شيء غامض يشدنى اليـه •

وفيما احتدم النقاش عبر مائدتنا حـول مشكلة الشرق

الأوسط ظللت أرقبه بفضول شره ..

كان قد همس الى الساقى بكلمتين على الأكثر .. ثم أعقبهما بهزة من رأسه ، وما أن وضع الكأس أمامه حتى طفق يلاعبه بين كفيه برفق ، متطلعا الى الأبخرة المتصاعدة من الصحن الصغير الممتلىء بالحمص المطبوخ الذى دفعه الساقى بأصابعه الى جانب الكأس !

ودلق تلك الجرعة فى جوفه دفعة واحدة ..

ثم سلخ حبة حمص بين اصبعيه ، وأولجها فى فمه .. وجعل ينظر الى وجهه فى المرآة بهدوء مفرط ! !

كانت الحانة مكتظة بالرواد .. والضجيج .. والدخان ، وكان ثمة قطة بيضاء تسرح خلال الأقدام دون انقطاع .. ولوحة زيتية لقارب شراعى ضئيل يعبر البحر عبر العاصفة ! وضحك أحد رفاقى ضحكا متقطعا ثم قال :

– ان أسوأ شيء فعلته النكسة أنها رفعت أسعار الخمور أليس كذلك ؟

ونهضت على الفور .. متوجها الى المقعد الطويل الذى بجانبه .

كان لا يزال ينظر الى المرآة ..

واذ جلست هناك التفت الى بطريقة جعلنى أدرك معها أنه

لم يكن يقصد ذلك .. وبادرته بخفوت :

– مساء الخير .

– مساء الخير .. أهلا .

كذلك حيانى بابتسامة ودودة تطفح على سماء عينيه .

وناداني أحد الرفاق الجالسين على المائدة ، الا أننى رمقته بنظرة خاطفة ثم نفضت يدى دون اكتراث ، وكأن هذا التصرف لم يعجب نديمى الجديد ، فقال :

– لماذا لا تريد أن تنصت اليه ؟

– انهم يسلأون قلبى بالملل .. كلهم !

ورأيته يرنو الى المرآة طويلا .. ثم يتنهد بعمق ويفرغ كل كأسه فى أعماقه ..

ولوى عنقه تجاهى .. وقال :

– الانسان لا يمل أصدقاءه .. أبدا لا يفعل ذلك ، لأنهم ببساطة يجعلون الحياة أكثر يسرا .. أكثر اشراقا .. وبهجة ، أنا أعرف هذا تماما .. أعرف أن المرء لا يستطيع أن يسلخ عنه أصدقاءه ، لأنهم ليسوا مثل حبات الحمص هذه .. انهم مخلوقات لطيفة .. مخلوقات تجعل الابتسامة تطفو فوق شفتيك حين تذرع ذكرياتهم ذهنك المكدود .. أنا أعرف ذلك تماما .

وشعرت بالخجل يلهب جبينى ، لكنه علق بصره بالشراع الممتلىء الصدر لذلك القارب الصغير .. ثم قال :

– كان ذلك فى روما .. كنت وحيدا هناك ، أنا سأحكى لك ما حدث بالضبط ، كان المطر يهطل باتصال .. ولكننى أنفقت عدة أيام أذهب فيها الى « ستاسيونى تيرمنى » حيث أتسلى برؤية مشاهد اللقـاء عبر أرصفة المحطة .. وخفق منـاديل الوداع من خـلال نوافذ القـطارات .. وأتذكر أصدقائى ! !

حسنا ، ولقد عادنى ذات يوم ذلك المرض القديم ، كنت قابعا فى غرفتى الضيقة بالفندق عندما أحسست أن شيئا ما يغرز مخالبه فى قلبى تمـاما كلما حاولت أن أسحب شهيقا عميقا .. وظللت أسرق أنفاسى بوهن .. ولم يعد فى امكانى حتى أن أسعل سعالا خفيفا .. أو أن أنهض من سريرى ..

كنت أشعر بالاختناق على نحو قاتل .. غير أن مشاعر الوحدة التى اجتاحتنى حينذاك كانت أقسى من ذلك بكثير . ثم أصبح الأمر رهيبا للغاية ، اذ تصورت أننى سأموت غريبا هناك دون أن أغلق عينى على مرأى صديق واحد بجانبى .. أنا سأحكى لك ما حدث بالضبط .. كان المطر يصفع زجاج

النــافذة ، وكانت المطاوى تمزق قلبى عند كل تنهيدة خافتة وكانت جموع الأصدقاء تعبر خاطرى بلا انقطاع !

أنا أقول لك .. اسمع .. ان التعويض الوحيــد الذى يمنح للانسان حــين يموت هو أن يودع آخر أنفاسه فيما يتحلق كل أصــدقائه حول سريره .. ذلك هو التعويض الوحيد !

وأنا لم يكن لدى شىء من ذلك ..

على أية حال ، لقــد غدت كل المقاهى الكئيبة فى بلادنا حينئذ أكثر الأشياء فتنة فى هذا العالم .. وكذلك الحانات الصدئة « والمرابيع » الرطبة الجدران .. وبقية الأقبية !

.. اسمع .. انه ليس ثمة أروع من مائدة تضــم حزمة أصــدقاء يضحكون .. ليس ثمــة ما يســاوى هذا على الاطلاق ..

على أية حال ، لقــد نسيت مرضى تماما حين عــدت الى أرضنا ، والتف حولى الأصدقاء عبر لحظات اللقاء الغامرة الــود !

وتجرع كأسه ببطء .. وقذف حبة حمص فى فمه .. ثم رفع بصره مرة أخرى الى الشراع المتخم العملاق !

كانت عيناه محمرتين قليلا ، ولكن غيوم الحزن لم تزل رغم ذلك طافيــة فى أفقهما الموحش ، وفيما شرعت القــطة البيضاء تشتم قشور الحمص الملقاة على الأرض •• نظر الى المرآة فى ذهول •• وقال :

– أنا لا أملك شيئا فى أرض الله سوى أصدقائى ، انهم كل ثروتى لقد فعلوا من أجلى أشياء كثيرة جيدة •• اسمع ، انه ليس ثمة ما يعادل كف صديق تربت على كتفك عبر لحظة تعاســة •• !

هذا صحيح •• هذا صحيح !

كذلك قلت له •• غير أنه نظر فى عينى مباشرة بلطف •• وقال :

– معذرة ، اننى أبدو مثل واعظ أحمق !

– أبدا •• أبدا ، ان حديثك شجى للغاية !

– حسنا !

وطلب كأسين آخرين ، على حين لاح أنه أكثر سكرا من قبل ، واذ أنشأت أرقبه دون أن أشعره بذلك ، رمى ببضع حبات من الحمص الى القطة •• فقربت أنفها من كل واحدة منها ، ثم ذهبت تجاه المائدة المقابلة ، وقال لها :

– أنا لا أستطيع أن أفعل من أجلك غير هذا !

وفيما تطلع الى ، قلت له على الفور :

– القطط أكثر المخلوقات ألفــة .. أنت طبعا تعرف ماذا أعــنى ؟

– أجل .. أجل !

ووقف أحد السكارى خلف المــائدة .. وقال بصوت مرتفع مشيرا الى أحد الجالسين بجانبه :

– أنصتوا لمــا يقوله صاحبنا هذا .. انصتوا لقد قال انه يسكن فى شقة بالدور الثالث .. وقال أن بها «ماجن» .

وضحك كل من فى الحانة ، فيما ظل نديمى ينظر الى نفسه فى المرآة بامعان حتى عرشت على جبينه كل خطوط العذاب !

كان صمته جليلا محزنا ..

ولم أستطع أن أقول له حينذاك كلمة واحدة .. وخيل لى بطريقة ما انه يصلى ، واذ أخذت أدحرج حبة حمص بين اصبعى ، استدعانى أحد رفاق المائدة .

– ماذا تفعل هناك .. لماذا لا تجلس معنا ؟

كذلك سألنى باستغراب حين جئت اليه .

اننى أتحدث مع ذلك الرجل .

– دعك منه .. أنت لا تعرفه جيدا .

– ماذا تعـــنى ؟

وألقى نظرة سريعة على الرجل .. ثم غطس رأســه بين كفيه ، وقال بهمس :

– انه لا يمل من الكذب .. أعنى أنه يكذب باتصال !

وتركته فى الحال ، شاعرا بالاستياء منه الى درجة الغثيان وقادتنى خطواتى مرة ثانية الى نفس المقعد ذى الســيقان الطويلة .. وطلبت كأسين آخرين !

كان قد سكر تماما ..

وعندما أحس بوجودى بجانبه ، أشار الى اللوحة الزيتية وقال :

– أنظر .. أنظر الى وحــدة ذلك القارب الصغير عبر العاصفة .. !

ونظرت فى عينيه بعمق لكى أتأكد انه لم يسمع ما قاله عنه صديقى ، بيد أنه أشاح بوجهه ناحية المرآة ، وتطلع هنـــاك طويلا حتى خيل لى أن أهدابه قد بدأت تحلب الدموع من عينيه .. وقال دون أن ينظر الى أى شىء معين :

– الوحدة شىء قاس .. أنا أقول لك .. اسمع انهـــا

أكثر قسوة مما يتصور خيال انسان ..

انك تشعر كأنك عصفور يطير خلال المطر !

.. وعبرت وجهه غيمة سوداء .. وأغمض عينيه لحظتين، ثم سحب أنفاسا نهمة من لفافته حتى حجب الدخان صورته فى الجدار الزجاجى البراق .. وقال مشيرا الى المرآة :

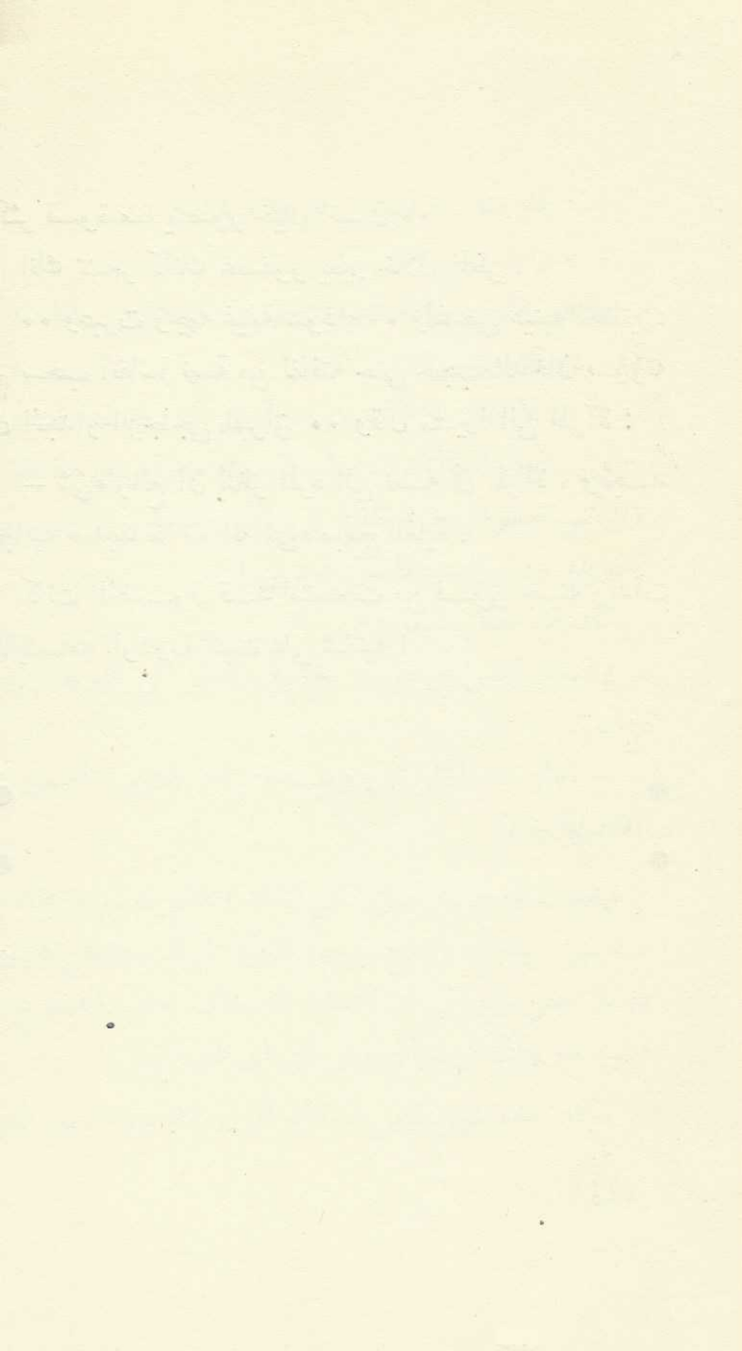
– شىء رائع أن ينظر المرء الى نفسه فى المرآة ، ويجد بجانبه صديقا ما .. انه شىء مبهج للغاية !

كانت الغضون قد امتسحت من فوق جبينه وبدأت الابتسامة الودودة تنبت على شفتيه !

● ●

٨ فبراير ١٩٦٩

● ●



حكاية رجل مقطوع من شجرة

أصـــدقائى ..

أنا من الجنوب ..

جئت اليـــكم من أقصى الجنوب فى بلادنا ..

ومنذ البداية ، تعلمت حمل الأكياس على كتفى فى مرفأ المـــدينة .. وتناول الطعام الذى تعـــده النقابة هناك .. واختراق الزحام أمام سينما الاستقلال فى أيام الجمع لشراء تذكرة .. تعلمت ركوب الدراجة والتدخين .. والصبر على حماقات الصـــغار .. وكان ذلك يسيرا للغاية مثلما يشتغل المـــرء فى مخبز !

ثم مرت السنون .. سنون طويلة ..

واستطعت أن أجمع حـــولى أصدقاء بعـــدد النجوم ..

وأحببتكم رغم دعاباتكم المريرة ، أحببتكم كما لم يحبكم أحد قط ، وحين قدم ذلك الخريف ، وتعرى وجه الحياة أمام عينى على نحو لا يقبل الشك ، أدركت بحزن قاهر أنكم مجرد فقاعات صابون !

معذرة ، فليس ثمة من يقدر منكم أن يفعل شيئا بمفرده دون أن يخزه والده العجوز بالعكاز فى ضلوعه ، ويشير عليه بما يجب أن يفعل !

أنتم تتزوجون كيفما يريد العجائز •• وتقذفون الى تراب الشارع بأطفال عدد الذباب مثلما يودون تماما •• وتطلقون وتحجون •• وتقبضون فدية القتيل •• وتموتون أيضا وفق ما يريد العجائز !

وفيما تزقزق مقاعد المقاهى تحتكم ، وتدخنون ذكرياتكم، تنطلق أحلامكم المورقة الملونة وابتهالاتكم الدامعة عبر المدى ، حتى يصبح فى وسعكم اغراق قلوبكم فى آفاق موغلة البعد •• غامرة الضوء •

ولكن العجائز لا يموتون ! انهم يظلون أكثر ثباتا من أشجار البلوط •• وأكثر دهاء من الشيطان نفسه •• فاحذروا آباءكم ، واحذروا الطريق ، والعربات•• والآخرين

ودعونى أحدثكم :

كنت أسكن مع صديق لى فى بيت واحد ..

ولقد استمر ذلك خمس سنوات دون أن يسأل عنه أحد من عائلته ، ذلك أنه يتاجر بالخمور !

كان صديقا جيدا برغم عداء أهله له .. وكنت أعزه كثيرا أكثر مما تتصورون .. كنا نطبخ معا .. ونرحل معا .. ولم يكن يضايقه أيما شيء سوى أن ملابسى تضيق على جسده العملاق .. وحذائى كذلك !

كان قلبه ممتلئا مودة ..

وكان يعشق الرحلات .. وسرد الخرافات والحكايا .. ان فى امكانه أن يحكى لكم يوما كاملا دون أن ينتابكم السأم .. ودون أن يلوح عليه أى اجهاد ، سوى أن يفرك عينيه بابهاميه كالعادة ثم يقبلهما .. ولقد رجعت من عملى ذات يوم ، ووجدته جالسا على مصطبة المسجد بالشارع يحكى احدى خرافاته لبعض الصبية المتحلقين حوله .. وهمست له :

– لدى مفاجأة ..

– ماذا ؟

ودعونى أحدثكم :

كنت أسكن مع صديق لى فى بيت واحد ..

ولقـد استمر ذلك خمس سنوات دون أن يسأل عنه أحد من عائلته ، ذلك أنه يتاجر بالخمور !

كان صديقا جيدا برغم عداء أهله له .. وكنت أعزه كثيرا أكثر مما تتصورون .. كنا نطبخ معا .. ونرحل معا .. ولم يكن يضايقه أيما شىء سوى أن ملابسى تضيق على جسده العملاق .. وحذائى كذلك !

كان قلبه ممتلئا مودة ..

وكان يعشق الرحلات .. وسرد الخرافات والحكايا .. ان فى امكانه أن يحكى لـــكم يوما كاملا دون أن ينتـــابكم السأم .. ودون أن يلوح عليه أى اجهاد ، سوى أن يفرك عينيه بابهاميه كالعادة ثم يقبلهما .. ولقد رجعت من عملى ذات يوم ، ووجدته جالسا على مصطبة المسجد بالشـــارع يحكى احــدى خرافاته لبعض الصبية المتحلقين حوله .. وهمست له :

– لدى مفاجأة ..

– مـــاذا ؟

وبدا الاستياء على وجوه الصغار عنـدما نهض ليرافقنى الى البيت .

– ماذا ؟ قل لى ، ماذا ؟

هكذا سألنى مرفوع الحاجبين :

– ألم تتمن دائما أن تكون لنـا سيارة ؟

– صحيح أية سيارة حتى وان كان يجرها حمار !

– حسنا ، ستكون لنـا غدا سيارة .. بغير حمار !

وصاح من أعماقه :

– يا الهى .. آه ..

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا معا لنجرب السيارة ..

كانت الشمس مغمسة فى صفحة السماء الضبابية . وكانت الريح واهنة تماما ، على حين ظلت السيارة تطقطق مصدرة صـوتا مزعجا من كل جهة .. بينمـا جلس بجانبى ممتلئا بالبهجة مثل طفل .

كنت أقود السيارة ، وكنت خجلا الى حد ما من الأزيز المنبعث من مفاصلها ، وأبوابها ، ولكنى ضاعفت السرعة حين لاحظت ابتهاج صـديقى ، حـتى اذا وصلنا الانحناء الحاد الموارب بعد مقبرة « سيدى عبيد » انفجر أحد الاطارات ،

ولا أدرى على نحـو الضبط كيف تدحرجت السيارة الى السفح المنحدر بجانب الطريق •• كل ما أدريه أننى حاولت أن أجره بعدئذ خارج السيارة الى أن وضعته على الأرض•• وحين طفقت أناديه مربتا على خده ، سحب شهيقا طويلا ، وسعل بجهـد بالغ ، ثم انكفأ رأسه على ركبتى •• ومات !

مات فاغر الفم ، مشدوه العينين ، وعلى شفتيه وذقنه بقعة دم ! !

كانت الشمس مغمسة فى صفحة السماء الضبابية •• ثم غابت تماما ، فيما ظلت أشجار الصنوبر هناك تمرق أمـام بصرى فى دوامة رهيبة •• ثم غمر العالم سكون أخرس •• واربدت سموات الله •• وشعرت أننى مثل بصقة هزيلة فى وجه الريح •• وضاق الطريق •• وضاق ، ونضجت الدموع فى عينى •• وانفجرت !

– أدخل •• أدخل قبل أن تقتل كل خلق الله !

كذلك قال لى الشرطى حين دفعنى الى حجرة «التوقيف» بالمركز •• ولقـد أمضيت هناك يومين كاملين ثم استؤنف حجزى بالسجن الرئيسى لمـدة ثلاثة أيام أخرى •

اننى لم أكن قادرا حتى على مرافقة جنازته ! !

وعندما أفرج عنى فى اليوم الرابع ، وجدت بضعة رجال فى انتظارى •• كانت وجوههم مثل لحاء الشجر •• وكان فى نيتهم أن يقذفونى فورا الى الجحيم •• ولكن ثمة رجل منهم شرع يهدئهم بطريقة ما •• ثم انتحى بى جانبا وأخبرنى بما يجب أن أفعل •• وفى اليوم التالى بعثت اليهم بمؤونة شهرين تقريبا ، وخروف ضخم الجثة يكفى لمأتم خمسة موتى وسلة خضار !

كانت قضية الحادث تنتظرنى بعد شهر•• وقد أخبرت بأنه يتعين على أن أتحصل على « سند صلح » قبلئذ ، وحين جاءنى شيخ القبيلة وقلت له ذلك ، أنبأنى بأنه يحتاج الى ثلاثين جنيها ليجمع الآخرين ، ويعقد مجلسا ليقرر مبلغ الفدية ! !

وأعطيته الثلاثين جنيها ••

ثم أتانى بعد يومين وقال لى ان أحد أعيان القبيلة رجل أحمق ، ولاشك انه سيدعو الى الأخذ بالثأر •• ويتحتم علينا أن نغلق فمه بمبلغ ما ! !

وأعطيته عشرين جنيها !

كنت أريد أن أنتهى من كل هذا على أى نحو ، فقط ،

أريد أن أنتهى من هذه المصيدة ، ولقد استدنت من أصدقائى فى العمل •• والجيران ، وعبأت قلبى ديونا •• وألما ، وأنفقتها كلها على رجال ذوى وجوه مثل لحاء الشجر •• رجال لم أرهم مع صديقى من قبل قط •• ولم يحدثنى عنهم مرة واحدة على الاطلاق !

وعلى أى حال ، فقد انتهى المجلس ـ مجلس القبيلة ـ بعد ما ألزمنى بدفع ستمائة جنيه كفدية •• وحكمت على المحكمة بعدئذ بالسجن ثلاثة أشهر •

– لا تهتم ، ذلك يحدث دائما •

هكذا قال لى أحد السجناء مواسيا ، ثم استطرد :

– أنا كنت مارا بسيارتى ذات ليلة تحت المطر •• ولمحت رجلا يمشى بمفرده على الطريق حينذاك ، فأوقفت السيارة ، وحملته معى •• كانت الأمطار غزيرة الى حد مفزع •• الى حد تصعب الرؤية معه •• ولقد اصطدمت بجذع شجرة فيما بعد ، وكسر ذراع الرجل وساقه أيضا •• لقد حدث لى مثلما وقع لك تقريبا •• غير أننى دفعت ثلاثمائة جنيه فقط أتدرك ماذا كانوا يقولون لى ؟ كانوا يقولون اننى جعلت

رجلهم نصف رجـل ! ! ذلك يحدث دائما •• لا تهـتم •• لا تهتم •

ونفض يده الى أعلى بلا انفعال •• فيما انهمرت اللعنات من فمى على نحو موصول •• ولكنه ربت على كتفى وقال :

– هذا لا يفيد •• أنت تعرف أن أناسا آخرين قد نهبوا رجلا لهـم من قفص المحكمة دون أن يعترضهم أحـد •• هذا لا يفيد •• لا يفيد اطلاقا ! !

وذهبت الى زاويتى لأنام •• ورأيت صديقى فى حلم قصير •• كان قد انحنى على •• ومسح بكفه على رأسى ، وقال لى دامع العينين :

– أنا أكاد أموت مرة ثانية من الخجل والحزن لما فعلوه بـك !

وفرك عينيه بابهاميه وقبلهما ، ثم رحل !

أصـدقائى ••

وخرجت من السجن ••

خرجت من السجن الى سجن آخـر ، وفى فمى سؤال واحد ينهض فى أعماقى مثل قرون وعل :

– من أين لى بستمائة جنيه ؟ ؟

لقد فقدت عملى •• وفقدت ما ادخرت•• وفقدت صديقى وفقدت قلبى •• وفقدت خمس سنوات من حياتى •• فأين يريدنى الله أن أذهب ! أين ؟ ؟

وفررت الى الجنوب ••

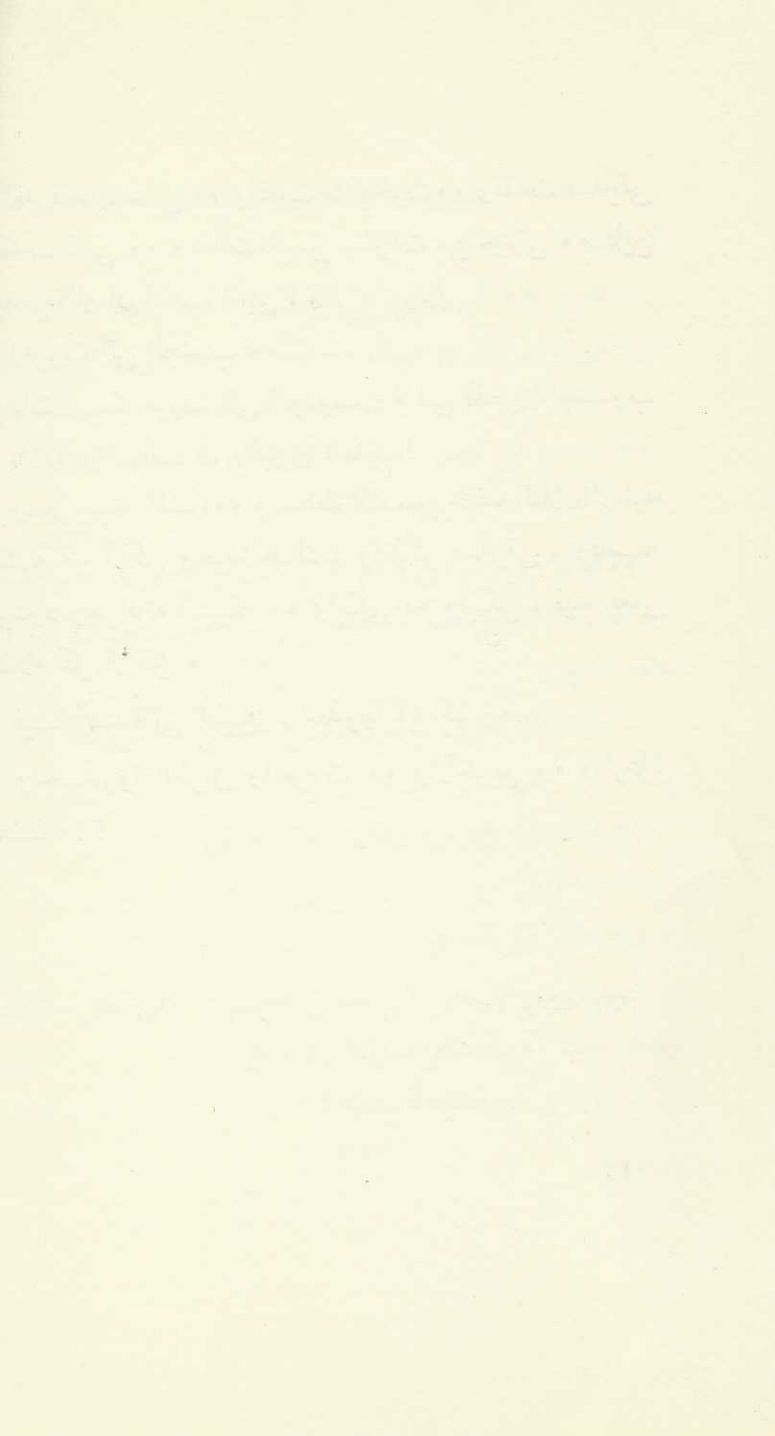
ذات ليـلة فررت الى الجنوب •• الى أقصى الجنـوب فى بلادنا واشتغلت فى مخبزى القديم !

وحين يهبط المساء••• وتسقط الشمس خلف التلال الرملية المعتمة •• أركن وحيدا هناك ، وأتذكر صديقى ، وقلبـه الودود وخرافاته الشيقة •• وأبكى •• وأبكى ، فيما يغمر الظلام كل الآفاق •

فيـا أصدقائى الطيبين ، احذروا آباءكم ••

واحـذروا الطريق والعربات •• والآخرين •• والرعاة القتـلة ! !

١٥ يونيـه ١٩٦٨



الوجه الآخر للقمر

« قال الطفل : ان القمر يطالعنا بوجه
مشرق فاتن ، فيا ترى كيف يبدو
وجهه الاخر الذى يقابل اللـه ! .. »

صـــديقتى ..
عيناك سراجان ..
سراجان دافئـــان يضيئان لى الطريق فى وحشة المساء ..
ويغمران قلبى بالسلام .. ويجعلاننى أغزل من أجلهما ألف
شىء نابض بالود .. والكلمات الحـــلوة !
عيناك طائران ..
طائران قد ذرعا كل آفاق الله فى مواسم الهجرة المباركة
ثم عادا أخـيرا لينسجا عشين فى سقف قلبى عـــبر شـــذى
ابريـــل !

صـــديقتى ..

عيناك مجـذافان لقاربى الضليل ، ولكن .. ولكن أين همـا ؟

لقـد جابت قدماى كل الدروب فى مدينتنا العابسة أبدا ، فيما ظل قلبى يخفق بنزق مثل طفل يقفز بابتهاج كى يلاحق هدية فى يد والده .. وبقيت نظراتى العطشى تطرق الأبواب بوجل مثل شحاذ خجول !

.. ولكن كان ذلك بلا جدوى !

كنت أتسول من أجل عينين !

وكان المساء يهطل فى أغوارى ذكرى الليـالى الموحشة.. وكانت عيناك تلوحان لى مثل قمرين ، وكنت أراهما دائما ، حتى فى أحلامى المتدفقة بلا انقطاع .. غير أن أحدا لا يستطيع أن يتصور كيف كنت تبدين على الضفة الأخرى من النهـر الصاخب !

حسنا ..

انك تقبعين خلف باب البيت طوال النهـار ، واذ يستبد بك السأم ، وتغيرين ثقل جسدك من ساق الى أخرى مثل حصان العـربة المنتظر .. يهزك الحنين كالعـادة الى رؤية

خطى الرجال المفرقعة باتصال على رصيف الشارع ..

وتستد يدك بحذر الى الرتاج ، الذى يتراجع برفق حتى يتمزق شق نحيل خلال البـاب .. وتلتصق عليه احـدى عينيك على نحو مباشر !

.. فهل هذا يكفى ؟

أبدا ، اذ أن أصـابعك تتسلل بعـدئذ لتتلمس طريقها دونما وعى لسحب الباب من عنقه قليلا .. ثم يمرق رأسك الى الشارع حتى يخيل للمرء أن رقبتك المتطاولة قد أصبح طولهـا مترا كاملا .. ويظل فى امـكانك حينذاك رؤيـة الرجال القادمين من أقصى الطريق ، فاذا ما اقترب أحـدهم من المنطقة المحرمة المليئة بالفخاخ ، انسحب رأسك فى هدوء ، وارتد البـاب !

أنا أعرف ذلك تماما .. ولقـد حاولت آلاف المرات أن أقترب قليلا لأرى عينيك المدهشتين على نحو جيد ، ولكن جدائل شعرك الأسود الغزير ، الهاربة فى ذعر الى الداخل .. واصطفاق الباب .. والانكسار الحاد عبر أعماقى .. كل ذلك كان يمـلأ سماء عينى بالغيوم .. ويجعل الحـزن الكريه العينين ينهش صدرى مثل ضبع مسعور !

وأعود الى غرفتى الباردة الجدران ، وأقبع هناك وحيدا مثل فأر مقرور .. ولكن خاطرا صديقا كان يمسح على رأسى بلطف بالغ قبل أن تقضم قدمى مصيدة اليأس .. ثم يزرع أطياف دفء عبر صقيع الجدران ..

وأراك على الفور .. أرى عينيك السوداوين تغمرانني بود .. وتهمران فى قلبى مباشرة حزمة كلمات رقيقة لم تعرف الذبول قط !

وتبتسم عيناى ..

ثم تخطو قدماك تجاهى .. وتتوقفين مرسلة الى نظرة طويلة طافحة بالحنين .. وتربتين على كتفى من أجل تحمل مشاق الغد !

وطالت الأيام ..

وغدت ليالى الوحدة أكثر كآبة ، وأكثر حزنا مما يتحمل قلب رطب الزوايا .. وعلى هذا فقد تعودت أن أهرب الى ذلك الشاطىء حاملا خيوطى وسنارتى واطعامى معى .

كنت أجلس بجانب سلتى الصغيرة ، ممسكا بالخيط بين أصبعى ، مترقبا أن يتذبذب فى أية لحظة !

كانت الأمواج الودودة تلعق صخور الشاطىء ، وكان

الليل ساكنا ، مجدب السماء ، وكنت منتظرا وحدى ، أحلم هناك بأن تعلق فى سنارتى احدى السمكات النحيلة ، ذات الألوان المتعددة الزاهية ، التى يسميها الصيادون العجائز : « عروسة » !

لكننى كنت أرجع خائبا كل ليلة .. ذلك أن اصطياد « العروسة » - كما يقول الصيادون القدماء - أمر صعب للغاية ، وأن هذا يعتمد فى الدرجة الأولى على الحظ الجيد .. ومشيئة الله !

وأنا أعرف حظى ..

ولقد حاولت كثيرا أن أتخطاه .. أن أتحايل عليه مثل صبى سىء الطباع ، لكنه كان يزعق فى وجهى دائما عند حافة الطريق .. ويمزق جبينى بأظافره الحادة ، الى أن أصبحت أشرق بالماء من مجرد رؤية السراب !

.. فماذا أحكى لك أيضا ؟

حسنا ..

لقد طفح قلبى بالحزن ذات يوم ، وقذفت بسلتى وخيوطى

الى قعر الجحيم ، وقررت عبر احدى لحظات اليأس القاهر أن أفر الى الشمال !

لم أكن أحمل حقيبة معى ..

وحين قلت ذلك للعجوز الفضـولية الجالسة بجانبى فى عربة القطار ، لوت فمها ورفعت حاجبها فى تعجب مصطنع ، ثم همست لجارتها بأننى شحاذ !

كان ثمـة بعض الرفاق .

وفيما طال الطريق عبر الأنفاق المعتمة ، طفقوا يحكون عن ليالى القـاهرة وأثينا .. وذكريات الحصاد المفعم بالأشواق والقبـل !

ونزلنا « امستردام » .. وشرعت نظراتنا الشرهة تبحث منذ البداية عن عينين مدهشتين مثل سراجين دافئين ..

كان ذلك فى يوليو ..

ولكن السماء الكالحة العينين لم تكف عن سح المطر لحظة واحـدة ، الى حد أزرقت فيه أصابعى ، وربما أنفى كذلك !

كنت مقرورا طوال الوقت ، ولم يفلح شراب « جونيفر » الملتهب فى أن ينسينى فـرك يدى ببعضهما ، والنفخ فيهما بين حين وآخر ، واذ جلست ذلك اليوم على احدى المقاعد

العريضة فى ميدان « رويال بالاس » ، متطلعا الى الحمام البليد الذى يملأ الساحة هناك دون أن يعبأ بالصقيع ظل فى وسعى أن أسترجع ذكرى فتاة الليلة الماضية ، كانت شقراء كالشعلة ، وكان الضوء ورديا غامقا فى زاوية الملهى .. وكانت عيناها زرقاوين مثل بحيرتين ، ولقد أخذت أنظر فيهما بعمق حتى أصابنى الدوار .. أجل أصابنى الدوار ، غير أننى أدركت ، فيما كنت أجلس على المقعد العريض فى ذلك الميدان ، أدركت بيأس مفجع أن عينيها الباردتين جدا كانتا مثل حبتى زجاج أزرق .. زجاج أزرق ليس غير !

كان المطر كريها ..

ولم أستطع طيلة اقامتى هناك أن أرى نجمة واحدة عبر السماوات المغرقة بالغيوم أبدا .. وبات لزاما على أن أعود .. أعود بحقيبة صغيرة معبأة بالخطايا .. والحزن .. والذكريات المخجلة !

فيا صديقتى الوديعة عيناك طائران .. طائران قد جابا كل الآفاق فى مواسم الهجرة المباركة ، ثم عادا أخيرا لينفضا تعبهما لدى ، ولينسجا عشين فى سقف قلبى عبر شذى ابريل !

عيناك مجذافان قــد رماهما الله لقــاربى الضليل ..
ولكن .. ولكن أين هما ؟

□■□

نهــاية الطريق ..

لقد تعودت ــ بعد عودتى من الشمال ــ أن أتهالك عند قدمى الخليج ..

كان الليل موغل السواد أبدا .. وكانت الريح الباردة واهنة الى حد ما ، على حين ظللت أتجرع قطرات زجاجتى الحارقة ، وأطوى أحلامى القديمة بعناية ، وأرميها ، دون كلمة وداع واحــدة ، لتهوى متراقصــة الى قاع الشاطىء الدامس !

كنت وحيــدا دائما ..

ولكن ما أن يقترب الشرطى المتلفع بالمعطف الثقيل ، حتى أخفى الزجاجة بطريقة ما ، وأنهض ممســكا بحجر ضئيل وألوى ذراعى عدة مرات ثم أقذف الحجر الى البحر وأتظاهر بعدئذ بأننى أجذب خيط السنارة باحتراس مفرط !

واذ يبتعد الشرطى حين أغتال شكوكه بذلك ، أجلس من جديد ، وأشرع فى نسج الأكفان لبقية أحــلامى العتيقة ، فيما يغدو الشاطىء مجرد قبر .. مجرد قبر جيد ! !

١٤ ديسمبر ١٩٦٨

حكاية فلاح عجوز

« ماذا سنقول غدا أمام الله حين
يسألنا عن أولئك الرجال القابعين فى
وحدة رهيبة عبر الحقول القاحلة ! ! »

كان رجلا متآكلا هرما ..

وكان بامكانك أن تراه قابعا طوال النهار على كرسى عتيق باحدى المدارس البعيدة فى قرية ما .

كان مجرد مباشر ..

انه ليس ثمة ما يسترعى انتباهك اليه سوى صمته الوقور .. وكفه المعروقة التى تهش الذباب عن وجهه بين حين وآخر .. وعينيه الصافيتين الغارقتين فى وجه ملىء بالتجاعيد مثل كيس التبغ .. وتثاؤبه الموصول ! !

كان رجلا متآكلا هــرما ..

ولقد أنفق عــدة سنين على نفس الكرسى ، متطلعا بملالة الى الصــغار الذين يتقاطرون داخــل المدرسة مثل أرانب مذعورة .. الصــغار النحيلين ، ذوى الأنــوف الممتلئــة بالسوائل أبدا ، حــتى اذا اكتسى الأفــق بدخان رمــادى موحش .. وهبط المساء ، وتعالت ضوضاء الصبية المنعتقين الى بيوتهم ، استند بكفيه على ركبتيه ، ونهض فى اعيــاء وتثــاقل .. متمتما بابتهال خافت ، ثم طفق يسحب قدميه الى البيت فوق التربة الطينية القــاحلة ! !

هناك فى « البيت » المرتق بآلاف الرقــع ذات الالوان الباهتة التى أكلتها شموس الصيف .. ، هناك يتهالك تحت المصباح المحتضر ، رانيا الى عجوزه التى تنفخ النار مغمضة العينين عند المدخل .. وتسوى بأصابعها الأعواد الصغيرة فوق الجمر فى خفة متقنة ! !

انه يجلس هنــاك ..

ويظل يرسل بصره فى الفراغ المعتم عبر المدخل .. ورغم انه لا يرى أى شىء ، الا انه ينفذ عينيه باصرار خلال هوة الظلام كأنما يحاول أن يتذكر شيئا ما .. ، الى أن يتبــدى

أمامه ذلك الحقل القديم .. والسنابل المتموجة أمام الريح الواهنة .. وخوار الأبقار المتخمة .. وثغاء القطيع الطويل. والمراعى الشديدة الخضرة .. ونباح الكلب الودود خلف الشياه الضالة .. والطيور .. وخيال المآتة ! !

عندئذ تستريح عيناه من التحديق ، وتكتسبان صفاء الاقا.. فيما تمتسح الغضون العميقةفوق جبينه الى حد ما.. وتكشف ابتسامته الخدرة فى وجه المصباح عن بقية أسنانه الصدئة ، ثم يبدأ كالعادة فى التحدث الى نفسه بصوت مسموع ! !

انهم يقولون عنه فى القرية أنه أصيب بالجنون .. ولكن هذا غير صحيح على الاطلاق .. ، كل ما فى الأمر أنه لم يستطع قط أن ينسى أيما شىء عبر قلبه كمحراث فى يوم ما.. ان كل الأشياء المبهجة والمحزنة تظل ملتصقة بذهنه التصاقا متعبا مثل القراد .. وهو يحاول على أية حال أن ينفث كل ذلك فى تنهيدة طويلة دافئة .. ثم يشرع فى التحدث الى نفسه بصوت مسموع دون أن يدرى ! !

انه يجلس هناك الآن ..

واذ يعوى الكلب الهزيل عبر وحشة الليل ، تستيقظ فى

صدر العجوز بضعة أشياء مثل صغار القطط ، وترفع اليـه أنوفها الندية الى أن يصبح فى وسعه أن يشم رائحة العرق اللزج تحت ابطه خلف انطلاق المحراث فى الأيام الغابرة ! !

انه يغــدو متذكرا لــكل شىء .

وهو الآن يعيش مرة أخــرى تلك اللحظات المهيبة حين عاد من قتال « النصارى » فى احدى المعارك ، بينما قبرت رصاصة فى كتفه ..

كان ثمة بقعة من الدم تلطخ قميصه .. وكانت نســوة « النجع » يطلقن عاصفة من الزغاريد خلفه !

انه يتذكر ذلك تماما ..

ولقد مددوه على الأرض .. وأخرجوا ذراعه من فتحة رقبة القميص .. وأحضروا سكينا ملتهبا ، ثم أخــذ أحد الرجال المتحلقين حوله يغرزه فى كتفه الى قاع الجرح لاخراج الرصاصة ، فيما كانت الأعواد النحيلة تتكسر تحت تململ جسده المنتفض مع تغلغل السكين عبر الجرح ! !

.. واذ غمره عرق بارد بعدئذ ، سكبوا قليلا من الزيت الدافىء فى قبر الرصاصة المنزوعة ! !

انه يتــذكر ذلك بكل عمــق ، الى أن انطلقت أصــابعه

متسللة فوق ذاك الموضع من كتفه بلا وعى .. بينما نضحت على جبينه حبات من العرق البـارد ! !

ويعوى الكلب من جديد ..

ويمسح العجوز جبهته بكم قميصه ، ثم يجذب أنفاسا نهمة من لفافته الرخيصة ، متطلعا الى حلقات الدخان المتصاعدة خلال الضوء الشاحب ، على حين يسرح خاطره خلف شيء بعيـد آخر :

انه يسحب بصره الآن فوق الحقـول المترامية الأبعـاد باتساع السماء .. والشقوق البنية الطويلة المنطلقة خلف ظفر المحراث .. وانعكاس شعاعات الشمس اللاهبة فوق ظهر الفرس النـدى .. وعبير الأرض الطيبة .. وانتظـار المطر باشتياق غامر !

.. انه يغسل الآن رأسه ووجهه فى الزخات الاولى من المطر المبـارك بابتهاج مفرط .. ويلمح تلك الشقوق التى استحالت الى جداول صغيرة بنية .. وينبش بعصـاه قلب التربة الموحلة عند قدميه .. ويحلم بالاجران الذهبية الهائلة المنتصبة فى وجه السماء مثل سلسلة من التلال ! !

– عام صابة .. عام صابة !

كذلك يهتف العجوز لنفسه بصوت مرتفع ، ويحك ذراعه بافتعال ، ثم يسرح تفكيره فى موسم الحصاد •• والسنابل الشقر المتطاولة •• وأذرعة الرجال المارقة •• ورائحة العرق والأغانى الدافقة الحماس •• والنوارج ذات الامواس اللامعة الحادة •• والبيادر •• وابنيه اللذين كانا يساعدانه هناك •

•• وعلى الفور يكتسى وجهه بحزن جليل•• ويغلق عينيه فى مرارة ، ثم يحدث نفسه بخفوت :

– رحلوا •• رحلوا من سنين !

انه يتذكر الآن ابنيه اللذين نزحا الى مدينة بعيدة ، واشتغل أحدهما كشرطى هنالك •• بينما واصل الثانى رحيله الى جوف الصحراء ، وأصبح عاملا باحدى معسكرات التنقيب عن البترول •• ، واذ يطوف بذهنه انه أصبح هو الآخر بعدهما مجرد مباشر ميت فى مدرسة معبأة بالضجيج ، يشعر أن شيئا ذا مخالب حادة قد بدأ ينهش قلبه بحقد بالغ ! !

انه يجلس هناك الآن ••

يجلس وحيدا ، عاجزا مثل ريشة سقطت من جناح طائر •

شاعرا أن الله قد تخلى عنـه تماما ، وفيما يرسل الـكلب الودود عواء موحشا خلف (البيت) ، تشتعل فى أعماق العجوز كل الذكريات المحزنة على نحو مباشر :

لقد ماتت ابنته الوحيدة منذ سنة تقريبا ..

كانت قد أصيبت بالجنون .. وطفقت تصيح مثل ضبع جريح .. وتمزق ملابسها أمام الآخرين بطريقة مفتضحة .. وتضرب الصغار بالتذاذ عجيب .. وتشتم والدتها العجوز ، ثم تنفجر بالضحك ! !

كانت تفقد وعيها كثيرا .. وتسقط على الأرض متصلبة على نحو منتفض ، بينما يطفر الزبد من زاويتى فمها المغلق باحـكام ! !

كان قد زار بهـا كل الأضرحة فى القرى المجاورة دون جدوى ، ثم أحضر لهـا أخيرا « الفقى مبارك » الذى كان لا يأخذ مقابلا عن ذلك فى السابق سوى بعض الحبوب .. والسمن ، غير انه الآن يطلب نقودا .. نقودا كثيرة !

.. ولقد أعطاه العجوز كل ما كان لديه .. وحـين لم يعد يملك أى شىء ، أخذ سوار زوجته الفضى ، ورحل الى المدينة لكى يبيعه هناك ! !

انه يتذكر ذلك تماما ..

ولأول وهلة ، بدت له المـدينة مخيفة ، خانقة الى حـد مفزع .. انهـا لم تكن كذلك فى السنين الغابرة حين كان يبيع فيها محاصيل المواسم الخيرة.. والسمن .. والزبدة.. وحتى الأشياء الصغيرة الحلوة مثـل الشمارى .. والنبق والبطوم .. والعرايس ! !

انها لم تلح له مخيفة كهذه المـرة !

ولقد أجهد قدميه فى البحث عن مسكن ذلك الرجل الذى كان يرعى له قطعان غنمه منذ زمن بعيد ، الى أن وجده !

كان الرجل قريبه !

ولكن ما أن دخل العجوز الى البيب حتى قوبل من العائلة باستياء واضح .. وتضايق ، على حين طفق الاولاد هنـاك يرقبونه مليـا بزوايا أعينهم ثم يتهامسون بدعابات صفيقة جارحة ! !

كانوا ينظرون الى قدميه المليئتين بالشقوق .. وعباءته المتسخة .. وذقنه غير الحليق .. وسعاله الصاخب .. وحك ظهره على الجدار .. وشواربه الكثيفة ، ثم يلوون أعناقهم فى ازدراء كريه .. ويقولون كلمات مثل الركلات ! !

انه لم يشعر بالغربة فى حياته قط مثلما شعر هناك ، ورغم أنهم لم يقولوا له شيئا مباشرا •• الا انه أحس بأنهم يطردونه مثل كلب أجرب ، سيء الطباع ! !

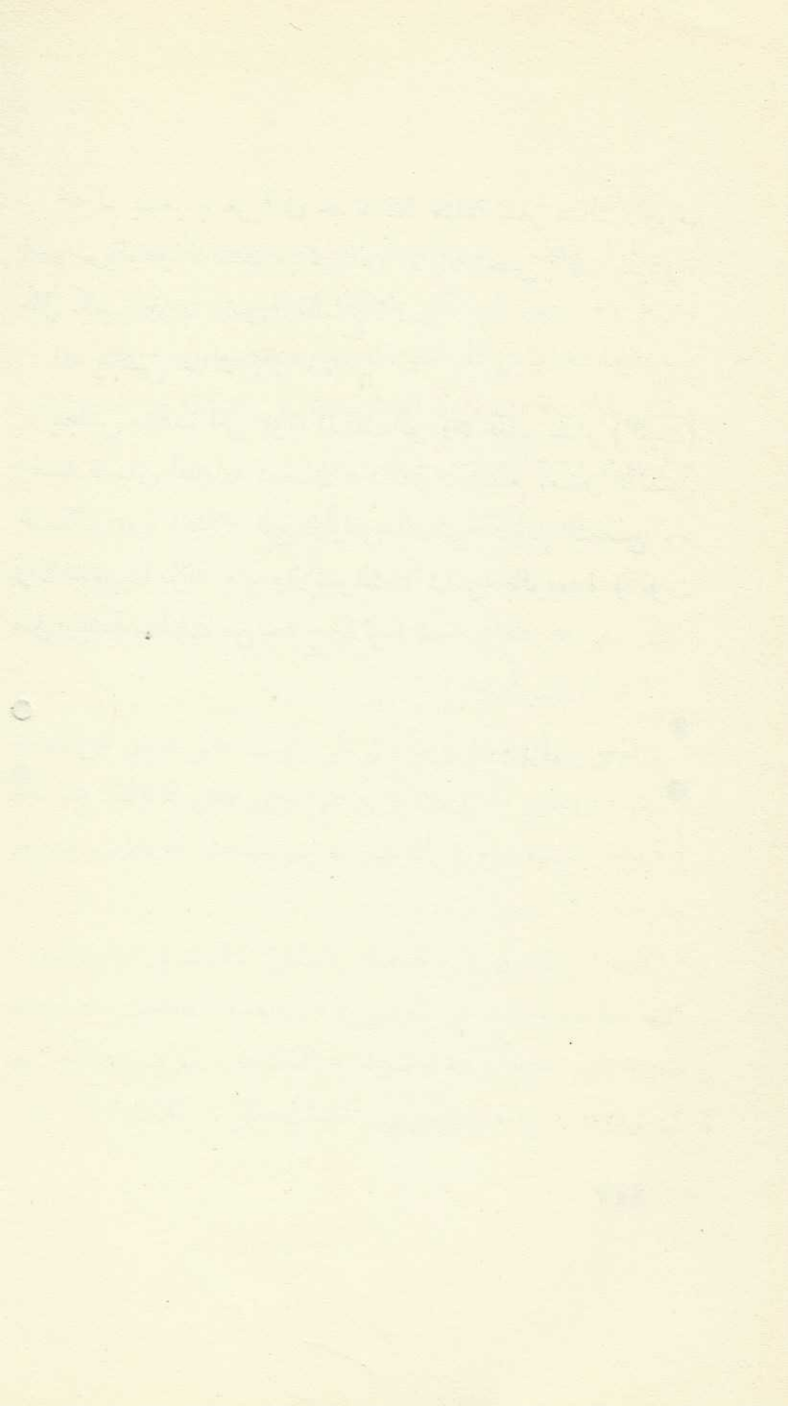
انه يجلس هناك الآن ••

يجلس منصتا الى عواء الكلب الودود خلف ستار (البيت) وفيما تتسلق أهدابه دمعتان هادئتان ، يتطلع بعينين غائمتين خـلال هوة الظلام الى الأرض الـتى أكلتها الشمس •• والاعشاب البرية •• والأشواك ، شاعرا بالوحدة والموت مثل ريشة سقطت من جناح طائر ! !

●●

٢٩ نوفمبر ١٩٦٩ م

●●



حكاية فتاة جميلة

أنا فتاة من بنغازى ..

فتاة متهدمة قد انتهت الى أن تصبح مجرد شظايا متناثرة عبر دروب المدينة .. وفوق موائد المقاهى المتثائبة !

.. فليس ثمة من لم يعرفنى بعد !

انه يكفى أن أعبر أمامكم الطريق حتى تشرع ألسنتكم الحادة فى نسج قصصى الرديئة المتسخة من جديد .. ثم تغتالون الملل بتعليق كلمات الرثاء المحزنة فوق جبين زماننا المشوه !

أنتم تعرفون ذلك جيدا ..

فمدينتنا الصغيرة تبدو مثل علبة مليئة بالأصداء على الدوام

مثلما هى مليئة أيضا بكلمات النبل الباردة الشفاه•• المثقوبة مثـــل الخرز ! !

فدعونى أحك لـــكم قليلا ••

يقولون أننى جميلة ••

يقولون أن عينى العســليتين قادرتـــان على كسر نظرات الرجال •• وغمرها باحساس يذيب القلب الى حد اليأس !

يقولون أن ستائر شعرى الأسود الغزير عندما تدغدغها الريح ، تحمل فوق أجنحتها عقل المرء •• ونبضات قلبـــه المزعجة الهتـــاف ! !

يقولون ان كلماتى الخجـــولة تزرع فى القلب كثيرا من المعانى الشرهة ، ذات الأذرعة الجائعة ، جوعا كافرا ، الى العنـــاق ! !

يقولون ان فستانى المختنق أبدا ، أكثر الأشياء ترفا وثراء فى أرض الله !

يقولون ان حقيبتى المدرسية ، الملتصقة بصدرى ، جيدة الحظ الى حد الحسد ! !

يقـــولون ••

يقولون اننى جميـــلة !

وأنا كنت أعرف ذلك .. كنت أعرف ماذا تعنى نظرات الرجال المفعمة بالاشواق الشبقة عبر الارصفة .. وخطى الفتيان المرتبكة المتنقلة بحذر مورق ورائى !

كان البقال يهتف بحرارة كلما مررت أمام دكانه :

- يا الهى .. ووه !

وكذلك كان الاسكافى .. وبائع الخضار .. وصاحب القرطاسية .. وبقية رجال الطريق !

أنا كنت أعرف ذلك .

ولقد أنفقت كل الليالى فى غزل صورة مبهجة لذلك الفتى الوسيم الذى سيخطفنى ذات يوم فوق جواده الأبيض المجنح .. ويذرع بى آفاق اللـه الى كوخ وردى ، غامر الدفء !

كان طويل القامة ..

وكانت عيناه السوداوان هادئتين فى اصرار .. وكانت كلماته الخافتة الودودة تذيب الجليد نفسه .. وتزرع القلب بالأغانى ..

كانت تطلعاته العطشى تحطم جدار الصمت بصخب كأنما ارتسمت فى عينيه عروق النبيذ الحمراء !

كنت أراه يمزق ردائى بعدئذ بمخالب مسعورة.. ويقطف ثمارى .. ثم يفرغ كل أنفاسه العجلى ، ويحكى لى حكايات معشبة عن الحنين .. والايام المتعبة التى سار خلالها خلف خطاى !

كنت أحلم بذلك طول الوقت ..

وكان يكفينى أن أرسل نظرة طويلة الى مرآتى لأعرف أن ليس ثمة فتاة جميلة فى المدينة سواى .. فتاة ذات عينين عسليتين ساحرتين.. وشعر أسود مهطال .. وأشذاء فتنة.. وليس ثمة بالتالى من تستحق أن تحلم مثلى باصطفاق أجنحة جواده الأبيض !

أنا حلمت بذلك طويلا .. وحين قرأت رسالة ابن الجيران أدركت على نحو اليقين أننى فاتنة حقا.. ثم اعترانى احساس ملح بأننى أحبه ، لست أدرى كيف حدث هذا .. لكننى ــ على أية حال ــ شعرت أننى أحبه فعلا !

كان قصيرا .. ممتلىء البطن مثل زرزور .. وكانت قدماه مشرعتين فى السير الى حد يخيل اليك فيه أن كل واحدة تريد أن تسير فى اتجاه مغاير .. وكانت كلماته مذعورة مثل أرانب واجفــة ! !

.. لكننى أحببته !

واحتوانى ذات يوم فى غرفته ، كانت والدته تحكى مع أمى فى الحجرة الأخرى !

كان مرتبكا للغـاية ..

ولقد ظل يحك رأسه بين حين وآخر .. ويتطلع بنظرات ذاهلة الى السقف .. فيما طفح جبينه بالعرق .. واجتاحت أصابعه ارتعاشات متقطعة باردة !

وجلست بجانبه ..

كان يريد أن يخنقنى بين ذراعيه .. كان يود أن يأكـل شفتى ، لكنه بقى ساكنا فى صمت أبله الى أن شعرت بالعار . ثم أخذت أقترب منه قليلا .. قليلا الى أن لامسه كتفى .. وأهديت له ثغرى الشره الشفتين .. وابتلع ريقه عدة مرات، ثم علق على فمى قبلة صغيرة مرتعشة !

كان ذلك فى البداية ..

ولقـد تعلمنا معا بعـدئذ حرارة العنـاق .. والقبلات الملتهبة .. والشوق .. والكلمات الدافئة الى أن بدأت عيناه الضيقتان تلـوحان لى كأى شىء مقـرف ، وكذلك قامته القصيرة .. وقدماه الغريبتان كأنه يلبس حذاءه بالمقلوب !!

وكرهته على الفـور !

فيما انطلقت عبر المدينة مثل الشرر ، باحثة عن عينـين سوداوين هادئتين فى اصرار من خلال علاقاتى المتعددة التى بدأت أكونها مع الآخرين •• ،وطفقت أفتش عنهما فـى كلمات الغـزل المنهمرة حولى باتصال فوق الأرصـفة •• والصفير •• والتأوهات المغرقة بالخبث ، حتى تعرفت بذلك الرجل عن طريق احدى صديقاتى ! !

كان أكثر وسامة من ابن الجيران •• ولقد ظللنا نتقـابل فى بيت زميل له يقول انه يحب صديقتى جدا !

كان يعدنى بالزواج دائما •• وكان يعبث بثمارى عـلى نحو قاس •• وأدركت بوضوح ماذا يفعل الخريف بالاشجار غير أننى لم أستطع اطلاقا أن أنزع من قلبى مشاعر الابتهاج حين يشرع فى تقشير ثيـابى ! !

أبدا ، لم أستطع ذلك !

كما لم أستطع أيضا أن أتحمل أنياب تلك الحقيقة المفجعة التى عرفتها فى النهاية •• هى انه متزوج •• ولديه ثـلاثة أطفال ! !

لقد استغرقتنى لحظة ذهول رهيب حينذاك ، ثم عصفت

كل الأشياء أمام عينى •• وتهاوت كل جدران العالم عبر أعماقى •• وبقيت أشعر لعدة أيام أن أحدا ما يقهقه فى أذنى بصفاقة !

أنا أذكر ذلك تماما ••

ولقد بكيت كثيرا •• بكيت باخلاص ومرارة ، فيما أنشأت بعدئذ صورة الجواد الابيض المجنح تطالعنى من جديد •• وتغمر قلبى بألف أمنية ملونة الى أن قابلته ذات يوم •

كنت ذاهبة الى المدرسة ••

واذ بدأ المطر يهطل بحدة ، احتميت داخل المكتبة الواقعة فى أقصى الطريق •• وطفقت أنظر ببلاهة الى خيوط المطر فوق زجاج الباب ريثما تجف السماء !

لكن المطر لم يكف ذلك اليوم •• ولقد نهض الرجل ، وسار تجاه الباب متطلعا بفضول الى الطريق •• ثم نظر فى عينى مباشرة ، وقال :

– يبدو أنها ستمطر عاما كاملا دون توقف !

وهززت رأسى على الفور •

كان طويل القامة •• وكانت عيناه السوداوان هادئتين فى اصرار •• وكانت كلماته خافتة ودودة ، وقد قفزت نظراتى

الى شفتيه على نحو تلقائى حين قال ببساطة :

- أنت ستتأخرين عن مدرستك اذا انتظرت أكثر من هذا .. ويحسن بى أن أعيرك مظلتى .

.. وفتحها ، ومدها الى .. فيما نبتت على فمه ابتسامة طيبة .

لم يكن فى وسعى أن أرفض .. أو أن أعتق أيا من الكلمات التى احتبست فى داخلى !

.. وأحببت المطر !

أحببت كل قطرة فيه .. مثلما أحببت تلك العينين السوداوين الهادئتين فى اصرار ! !

أنا أذكر ذلك تماما ..

كما أذكر أيضا الكتب العديدة التى بدأت أشتريها من هناك .. والاحاديث الشيقة .. والدعابات الحلوة .. ثم الامانى الوردية التى أنشأنا نغزلها سويا بعدئذ .

كنت أراه كل يوم فى المكتبة .. وفى أحلامى .. وعبر كل عيون الرجال ، ولم يبرق فى ذهنى على الاطلاق أن بنغازى مجرد علبة صغيرة مليئة بالأصداء على الدوام .. وانكم تغتالون الملل بسرد قصصى الرديئة .. وتتسلون بتعليق

كلمات الرثاء المحزنة فوق جبين زماننا المشوه ! !

•• وعرف كل شيء عنى •• واغرورق قلبه بالعذاب طويلا •• ثم رحل الى البعيد دون أن يقول كلمة وداع واحدة ! !

وزوبعت كل الأشياء مرة أخرى أمام عينى •• وانهارت كل جدران العالم عبر أعماقى •• وبكيت كثيرا •• بكيت فى صمت مرير حتى تجعد قلبى •• فليس ثمة من يستطيع أن ينسى يدا ودودة تهديه مظلة خلال المطر ! !

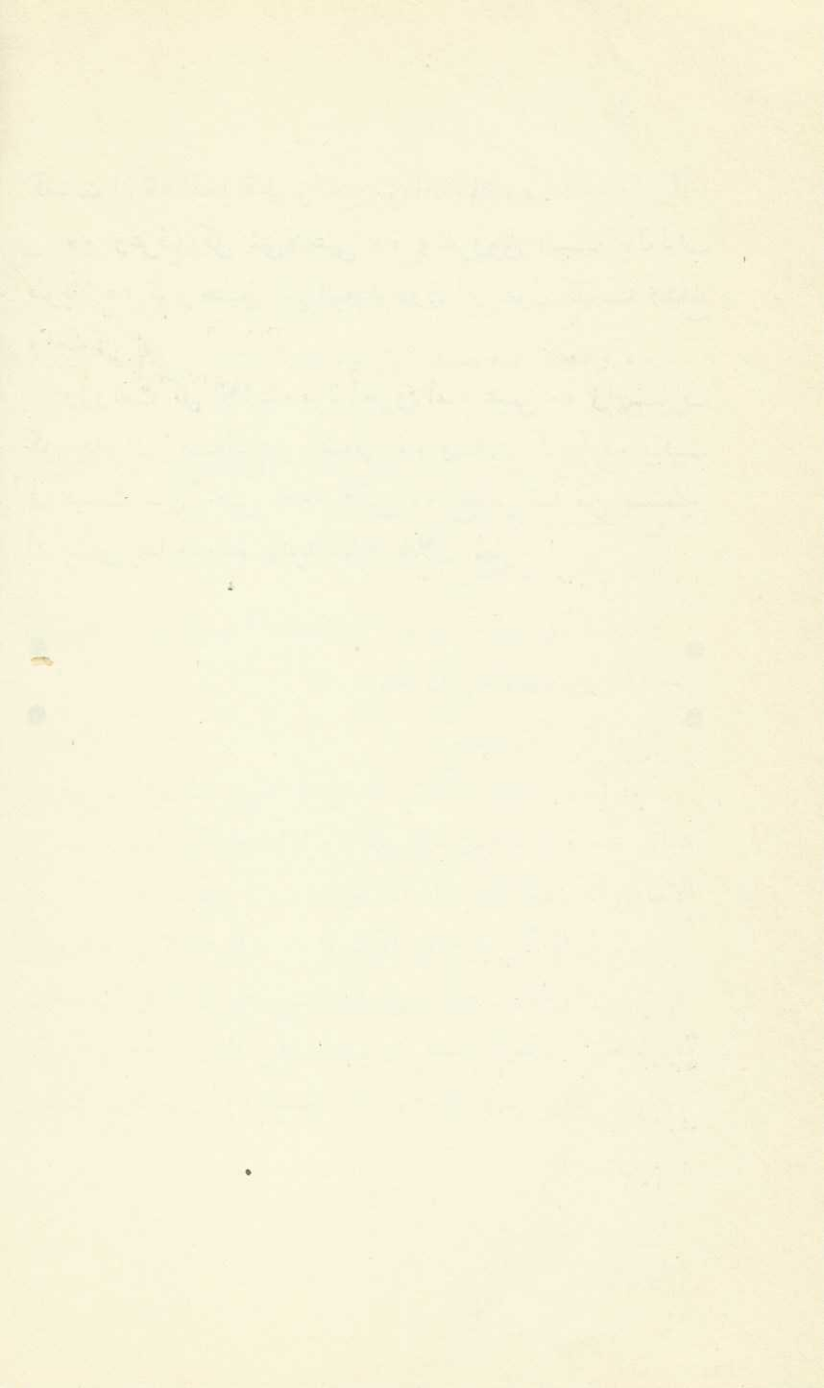
●

●

●

●

١١ يناير ١٩٦٩ م



حكاية رجل رياضي

« يستغرق نقاش الاشياء التافهة وقتا طويلا ، لاننا نعرف عنها أكثر مما نعرف عن الاشياء الهامة ! »

أنا رجل رياضي .. رياضي جدا ! !

اننى أجيد اللعب بقدمى معا .. وبرأسى فى بعض الأحيان ـ اذا كان الحظ معى ـ ، وأستطيع أن ألعب فى كل المراكز .. وحتى على الحبلين ! !

أنت لا تعرف مواهبى جيدا !

فأنا أوقف الكرة على قدمى كأنها سقطت فى الماء .. وأجرى مثل الريح .. وأراوغ الخصم حتى يصاب بالصداع والدوار .. وأتقن كل الحيل فى الهروب من الرقابة السمجة .. وأمون الزملاء بالفرص والكرات الذهبية حتى تشرق

وجوههم بالبهجـة ، اذ أننى لم أعـرف (الأنانية) قـط ، وأقذف الكرة بعنف ودقة فى الأوقات الحرجة الى أن تخترق الشبكة .. وأنتزع التصفيق بيسر بالغ مثلما أنتزع الهـدايا والنقود من المناصرين وأعضاء مجلس الادارة ! !

أنا رجل رياضى ، رياضى جدا !

ان اسمى مزروع على كل الشفاه .. فالرجال يتحـدثون عنى باتصـال حتى تخضر وجوه بعضـهم من الحسـد .. والصغار يتشبهون بى حين يلعبون .. والصحف تـكتب عن مواهبى وآرائى فى الموسيقى .. والأدب .. والسياسة، وبعض الاشياء التافهة الاخرى.. والمعجبون يطلبون صورى ويشغلون كل وقتى بقـراءة الرسائل .. والاندية تتسابق فى اهدائى الكلمات العسلية الودودة ، والوعود التى تسيل اللعاب .. والناس يحيوننى ، ويرحبون بى فى لهفة عـبر الطرقات دون أن أعرفهم ! !

أنت لا تعرف مواهبى جيدا !

أنت لا تعرف شيئا على الاطلاق ، فدعنى أحك لك قليلا :
لقد فشلت فى الدراسة .

ورغم رأسى الصلد ، وهروبى المتواصل من الحصـص

الكريهة المعقدة ، وتركى نهائيا للمدرسة ، الا أن الصحف استطاعت أن تمسك الجمهور من أذنه ، وأن تقول له بحدة أن السبب فى ذلك يرجع الى حبى للكرة ! !

وعلى أية حال ، فقد كنت لاعبا صغيرا حينذاك ، اذ أننى لا أجيد استقبال الكرات النزقة •• ولا أحسن تسديد الكرات المرتدة القوية •• كما لا أجيد اللعب بالرأس سواء من الداخل أو الخارج •• وأعدو فى الملعب مثل تائه أحمق •• وأخشى خشونة الاخرين ، وبات لزاما على أن ألعب فى فريق للدرجة الثانية بأحد الأندية ريثما أصقل موهبتى !

كان النادى مجرد مكان ردىء الاضاءة ، هل تفهم ماذا يعنى هذا ؟ حسنا ، وكان مكتظا بالرجال والصغار العاطلين على نحو ما •• فيما تزدهر فى زواياه حلقات لعب الورق •• ورصد نقط الفرق •• ونهش الاخرين بحقد بالغ ولعن الحكام ، وأعضاء اللجان •• وزرع المصائد للأقدام التائهة ! !

كان النادى مجرد مكان للقاء من أجل التخطيط لسهرة آخر الليل الغامرة برائحة الشواء والنبيذ •• وكلمات الغزل، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ كان هو الطريق الوحيد أمامى

للقفز فوق أكتاف الآخرين ! !

أنت تدرك ماذا أعنى بالضبط !

حسنا ، ولقد أخبرنى أحد اللاعبين القدامى انه يتحتم على أن أنتهز كل الفرص التى يتيحها لعب الكرة .. ألا أكون ذا فم أبلـه مفتوح ، ألا أكون طيبا .. فيما يقتنى زملائى مساكن ، وعربات ، ورحلات الى الخارج .. ، وعلى أية حال فقد أفرغت كل جهدى .. كل عرقى خلال تمرينات ومباريات ذلك الموسم الى أن سمعتهم بأذنى هذه .. سمعتهم يتنبأون لى بمستقبل رائع !

كنت قد كونت مهارة فى اللعب .. والتقرب ، ولم يعد ثمة ما يقلقنى سوى البحث عن وظيفة مناسبة ، ولذا فقد انتقلت الى ناد آخر من أجل ذلك بـشكل يسر ، مثلما انتقلت الى اللعب بالدرجة الأولى ! !

كان فى امكان الاندية أن توظف ، وترقى من تشاء .. ، وأن تشكل لك لجنة طبية .. وتوفدك ، على نفقة الحكومة، الى الخارج للعلاج من مرض الكساد !

كان فى امكان الاندية أن تزوجك .. وتفرح بك ، وتقسم برأسك فى الأوقات الحرجة ، وتحملك بين ذراعيها مثل طفل

مدلل ، حتى يخيل اليك أن فى وسعها أيضا أن تتوسط لك فى دخول الجنـــة !

كل ذلك تستطيع أن تحققه عن طريق هدف أو اثنين .. عن طريق قهر الفريق المضـــاد .. عن طريق الحيل الرخيصة التى يبيعها بعض اللاعبين القــدامى بالمجان ! !

وتحصلت على الوظيفة !

لم يكن المكتب فخما بقدر ما تصورت .. كان مجـرد مائدة متشققة ، ملطخة بالحبر والغبار .. وكانت الحجرة معتمة كئيبة مليئـــة بالكراسى والموظفين الذين لا يجيدون التحدث عن الكرة .. وكانت المصلحة كلها عتيقة مملة الى حد قاتل ، ولذا فقد أصابنى السأم منذ البداية ، واكتفيت بالمجىء لاستلام المرتب فقط !

كان ذلك يسيرا للغـــاية !

غـــير أن الموظفين عادة لا يتركونك فى ســلام .. انهـــم يريدون أن يتغيبوا مثلك .. أن يتأخروا عن العمل .. أن يرقوا فى أسرع وقت رغم أنهم ليسوا رياضيين على الاطلاق!

وعلى هـــذا فقد كثرت الوشايات المغرضة ، وتعين على أن آتى كل صباح لكى أوقـــع مثلهم فى سجل الحضور ..

ثم أذهب ! !

اسمع ، أقول لك ، لقد قرأت مرة فى احدى الصحف أن الأبطال دائما محسودون . هذا صحيح ، فما أن يبرق نجم أحدهم حتى تتجمع حوله عصابة من الأقزام الذين لا يحسنون أية لعبة .. مثل هؤلاء الموظفين تماما ! !

وعلى أية حال ، فقد انتقلت بعدئذ الى مصلحة أخرى .. مصلحة جيدة ، مصلحة لا تفعل أية مصلحة . وبدأت الجماهير تتحدث عنى باعجاب غامر .. وتمنحنى كل ودها ، وأحيانا نقودها أيضا ! !

وفيما أدركت ذلك على نحو مباشر ، اصطدمت ذات يوم مع أحد أعضاء اللجنة الثقافية فى النادى ..

كان مكبا على كتابة الجريدة الحائطية ، على حين تحلق حوله بعض الرواد ، متطلعين بلهفة الى الرسوم والعناوين الملونة ، وقلت على الفور مشيرا الى الجريدة :

– هـذا كله قطاف زايد !

ورفع الى عينيه الوقحتين .. وقال ببساطة :

– الناس أعـداء ما جهلوا !

وشعرت كأننى أخفقت فى تسديد ضربة جزاء حرة فى وقت حرج جدا ، غير أننى أخمدت غيظى ، وحاولت أن أفهمه أمام

الآخرين أن بقاء النادى مرهون بعدد الاهداف التى يسجلها فريقه . وليس بكلمات جريدته السخيفة !

واذ خرجت بعدئذ ، شكوته الى رئيس النادى ، ثم تغيبت ثلاث مرات عن التمرين .. وحين رجعت لم أعد ألمحه ثانية هناك !

أنت لا تعرف مواهبى جيدا !

فلقد مثلت بلدى فى الخارج عشرات المرات .. ، صحيح أننى ارتكبت بعض الحماقات المخجلة هناك .. ، وصحيح أن فريقنا لم ينل شيئا على الاطلاق - باستثناء السمعة الرديئة - ولكننى على أية حال استطعت أن أشاهد كثيرا من بلدان العالم الحى ، المبهج ، الحافل بالأضواء الملونة ، وكثيرا من السهرات الحلوة التى سوف لن تراها أنت ، حتى فى حلم عابر ، مدى بقية حياتك المتعبة ! !

.. فماذا حدث لى على اثر ذلك ؟

لا شىء .. لا شىء أبدا ، فكل ما قاله المحررون التعساء ، والمسؤولون ، لم يستطع أن يقف فى طريقى من أجل الحصول على قرض من المصرف العقارى .. وسيارة .. وبعض الملابس

الثمينة من دكان عضو مجلس الادارة !

انك بهدف واحد تسجله فى مباراة حساسة من شأنه أن يقود كل الناس من أنوفها لكى تكون بجانبك ، مثلما تقود رائحة الشواء أنوف الجياع .. ، ان كل الساخطين يصبحون أصدقاء .. كل (الكبار) يصبحون صغارا .. كل العمالقة تغدو أقزاما بليــدة ! !

.. فهل رأيت هذا العز ؟

أبدا ، انك لن تحلم به ، فأنت مجرد انسان فقير .. انسان يذرع الطرقات حتى تتشقق قدماه من أجل لقمة جافة .. انسان يعــدو عبر كل الابعاد هاربا من أسر باعة العمال.. انسان يحترق باتصال تحت الشمس الكافرة ، وفوق الرمال المحرقة فى معسكرات التنقيب عن البترول .. انسان يعطى كل ما لديه لذلك الفقيه فى القرى الميتة لــكى (يخرت) له طفله.. انسان ينزف ارهاقا وعرقا فى مرافىء المدن العمياء!

.. وأنت ــ فضلا عن ذلك ــ لا تملك مواهبى !

.. فأنا رجل رياضى .. رياضى جدا !

ان اسمى مزروع على كل الشفاه ، فالرجال يتحدثون عنى بلا انقطاع حتى تخضر وجوه بعضهم من الحسد ، والصغار

يتشبهون بى حين يلعبون •• والصحف تكتب عن مواهبى، وآرائى فى الموسيقى ، والأدب ، والسياسة •• وبعض الأشياء التافهة الاخرى •• والاندية تتسابق فى اهدائى الكلمات العسلية الودودة •• والفضوليون يحيوننى •• ويرحبون بى دون أن أعرفهم ! !

•• لكل هذا ، فان الكرة هى ثروتى ، هى حبى الصادق الوحيد •• هى النافذة التى أطل منها على الآخرين عبر الأرصفة •• ولذا فاننى لم أعد أحتمل مجرد التفكير فى ايقاف الموسم الرياضى ، لأنه يجمد كل تطلعاتى الشرهة !

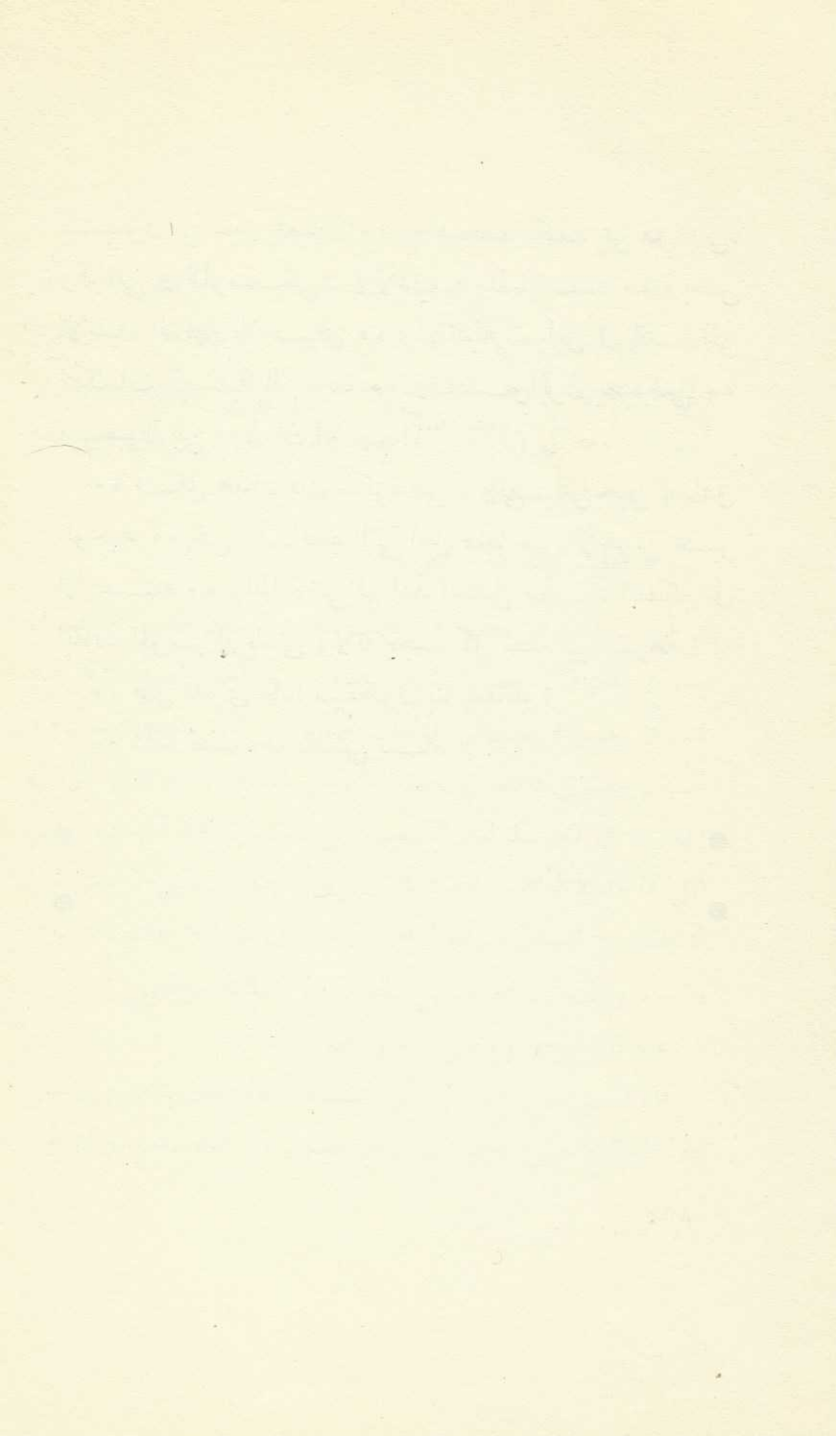
•• فهل تدرى ماذا سيفعلون بنا بعدئذ ؟

•• ذلك فقط ، ما يقلقنى تماما ! !

● ●

١ نوفمبر ١٩٦٩ م

● ●



ليالى شهرزاد

وقالت شهر زاد فى الليلة الخامسة :

.. وخرج ابن السلطان فى رحلة صـيد ..

كان بمفرده ، ولقـد لمح وعلا ضخما فيما كان جـواده الأشقر يذرع به ذلك السهب المترامى الأبعاد .. وما أن انطلق خلفه حتى فر الوعل مثل سهم .

وقالت شهر زاد :

ان الوعل اختفى بطريقة ما ، على حين تاه ابن السلطان عبر احدى الغابات الكثيفة وأدركه التعب بعدئذ ، ونام عند قدمى شجرة صـنوبر .

كان وحيـدا ..

وما أن انعتق الضوء فى صباح اليــوم التالى حتى طفق يتحسس طريقه الى القصر من خلال خطوات حصانه الهزيلة، حتى التقى بتلك الفتــاة ••

كانت فاتنة الى حد باهر رغم خطوط الاجهاد التى جعدت جبينها قليــلا ، ونظرات الانكسار المحــزنة ، ولقد عانقت أسئلة ابن السلطان المشرئبة من عينيه وقالت انها أميرة من « سمرقند » ، وأن ساحرة عجوزا قد قذفتها فى هذا الطريق المتاهى منذ ثلاث سنين !

•• وقالت شهر زاد :

وحملها ابن السلطان على جــواده ، حتى اذا وصلا الى طاحونة مهجورة عتيقة ، استأذنته الفتاة فى أن تغيب لحظات هناك • واذ استبطأها بعدئذ ، اقترب من الجدار المتآكل ، ورآها تحدث أطفالا ذوى آذان طويلة •• وقرون محمرة !

كانت تقول لهم :

– أتيتكم اليوم بفتى سمين•• سوف تلتذون كثيرا بأكله !

وذهل ابن السلطان ، ذلك انه أدرك فجأة أن الفتاة التى تخيل منذ قليل انه سيتزوجها ، كانت مجــرد غولة حقيقية مفجعــة ! !

.. وأدرك شهر زاد الصباح !

فماذا كنت أريد أن أحكى لك ؟

حسنا ، لقد تمنيت طويلا أن تتزوج .. أن تحتضن جدران غرفتك الباردة فتـــاة دافئة ، ذات حديث شيق .. طـرى الحروف مثل شهر زاد تماما .. وكانت والدتك أيضا تترقب ذلك ،متعهد ة بأن تجعل من عرسك مهرجانا فخما باتســاع البـــلاد كلها .. وكانت تطلق زغرودة حينذاك الى حد يكاد ينصفق فيه باب الغرفة !

كنت تحلم دائما ..

ولقد ظلت الأفلام التى تشاهدها باتصال ، تلون أحلامك كل ليلة ، وتغمرها بمواشير الضوء الفضية ، حتى انك تندفع الى تخيل مداعبات زوجتك .. ونكاتها ، وملاطفاتها الشجية وفيما يستغرقك النوم آخر الليل ، تستلقى بقايا ابتسامة على شفتيك ، حاملة شذى تطلعاتك المزهرة ككل لياليك الماضية !

كنت « شهر يار » من نوع آخر ..

ولقد أنشأت فتاتك تسح حكاياتها عليك مثل المطر كل ليـــلة .. وتهمر فى قلبك مباشرة آلاف الاشــواق الرقيقة المجنحة ، حتى ظلت والدتك تزعق فى وجهك بحدة ، مطالبة بأن تفرح بك فى أسرع وقت !

ورغم فقرك المخجل ، فقد شرعت تنسج لك حيلا بدائية كأن تتظاهر بالمرض •

– آه •• أنا هدنى الكبر •• ولم أعد أستطيع أن أطهو لك أى شىء ••

هكذا كانت تقول لك •• ، وما أن يخيط الصمت شفتيك وترتعش أهدابك فى حيرة محزنة ، حتى تفاجئك بلهفة :

– هناك فتاة وسيمة مطيعة ، اذا ضربتها أمام باب الحجرة هرعت الى داخلها •• أنت لن تجد زوجة مثلها أبدا •• خذ كلامى ! !

•• وعض الفخ قدميك معــا •

اذ انك لم تعد قادرا على أن تظل شهريارا ميتا •• وقادك قلبك الجائع الى جمع الديون من كل صوب ، حتى انــك لم تترك أحدا لم تستلف منه شيئا ما ، بما فى ذلك السلال•• وأجرة العربات !

وعلى أية حال ، فقــد طمست أيام الزواج الأولــى كل الديون فى ذهنك ، ولم تفكر فيها لحظة واحدة كأنك سددتها فعلا منذ زمان ، بيد أنك لم تقدر اطلاقا أن تتجاهل مشاعر الخيبة التى اجتاحتك مثــل موجة هائلة حين رأيت زوجتك لأول مرة •

لم تكن جميلة بالقـــدر الذى توقعته ..
لم تـكن مثل « كاندس بـيرغن » أو « تتـــالى وود » أو « آن مارغريت » أو أية ممثلة مشابهة . كانت تشبه الى حدما «ربطة المعدنوس» ولكن أحلامك أخذت تطفو فوق سماء عينيك من جديد .. وتعدك بحياة ودودة ، ذات أفياء ساحرة على نحو مخـــدر !

وقالت شهر زاد فى الليلة السادسة عشرة :

.. ولاح للفتى قصر بالغ الروعة ..

كان الجوع ينهش أعماقه ، ولقد ولج الباب العملاق حتى وقف فى الساحة مبهورا من روائح الترف والجلال ، وفيما استقبله وقتئذ عشرة رجال عور ــ من العين اليمنى ــ تهدل فكه الأسفل ، واتسعت عيناه من الدهشة ، وتساءل ــ عبر المأدبة التى قدمت له ــ عن السبب الذى حفر عيون الرجال اليمـــنى !

وقالت شهر زاد :

ان الرجال حذروه كثيرا من معرفة ذلك ، ولكن حـين ألح عليهم ، وضعوه داخل فراء ثعلب ، ثم حمله طائر الرخ فوق ظهره الى آفاق بعيدة حتى أنزله أخيرا فى قصر بديع

مغـــاير ••

كان فى القصر أربعون فتاة ، وقد قلن له على الفور :

– نحن نود أن تمكث معنـــا •• اننا تتغيب أربعين يوما كل سنة ، وأنت ستبقى حينذاك وحدك فى القصر الى أن نعـــود •• انك ستجد كل ما تريد معنا !

وعندما أطلت السنة الجديدة ، قلن له ان ثمة فى القصر أربعين غرفة ثرية • وان الغرفة الأخيرة هى الوحيدة فقـــط التى يجب ألا يدخلها •• وحذرنه كثيرا ، ثم طرن تباعا عبر النـــافذة المقـــابلة •

وقالت شهر زاد :

انه فتح كل الحجرات ما عدا تلك الغرفة ، ولقـــد أكله الفضول فيما كان واقفا فى حيرة قاهرة أمام الباب ، ومن خلال لحـــظة نزق مفرطة الحمق ، أدار المفتـــاح فى الثقب بوجل •• وتسرب الى الداخل •

كان ثمة فرس سوداء عليها سرج موشى بالذهب ، وكان أمامها اناءان كبيران من البلور ، أحدهما به سمسم مقشر والآخـــر به ماء ورد ، وما أن امتطى تلك الفـــرس العجيبة ولكزها حتى صهلت كالرعد ، ثم أفردت جناحين هائلين •• وطارت به •

وقالت شهر زاد :

•• وحين هبطت به بعد ذلك ، صفعته بذيلها على وجهه حتى فقأت عينه اليمنى •• وأسالتها على خده !

•• وأدرك شهر زاد الصباح ! !

فماذا كنت أحكى لك ؟

حسنا ، ان والدتك العجوز قد فجرت بركانا أبديا فى البيت ، اذ شعرت أن زوجتك استحوذت عليك تماما ، ولم تترك لها بقية ، وفيما تفرغ زوجتك من اعداد وجبة ما ، تقول لها العجوز :

– هل والدتك هى التى علمتك هذا الطبخ الردىء••• قطع الله يديها !

– انه ليس أردأ من غدائك أمس •• حتى كلب الجيران امتنع عن أكله •

– أنت تقولين على هذا ؟ •• يا بنت الزنا !

ويمتلىء البيت بالصخب ، وترجع من عملك منهوكا مثل أحد بغال المناجم ، وتبصر زوجتك تبكى فى حجرتها بمرارة• وتظل تتحايل عليها الى أن ترضى بأن تقبل رأس أمك ، ولكن العجوز تنتهرها فى اليوم التالى بقسوة لانها استهلكت

علبة صابون كاملة فى تنظيف البيت •• وتقول لهـا :

– كأنك لم ترى علبـة صابون فى بيتكم قط !

وترد زوجتك :

– أنا عندما جئت اليكم وجدتك متسخة حتى أن الدود كان يخرج من أذنيك !

وتفح العجوز :

– آه •• الدود ؟ •• أنا •• أنا يا بنت الدلالة التقازة ! !

واذ تعود الى البيت ، وتجد زوجتك تعـول من جديد ، على حين تذهب والدتك الى الجيران لتشكوك اليهم ، قائلة لهم ان زوجتك تضربها أمامك •• ، تأتيك حماتك العظيمة مثل زوبعة رملية وتطالبك بأن تؤجر بيتا منعزلا لابنتها فوراً• وتنهـار كل الأحـلام •

فأنت لا تستطيع بأى حال أن تترك والـدتك لتعيش فى بيت بمفردها مثـل بومة •• كما لا تستطيع أن تنام ليـلة واحـدة دون أن تحرق قلبك أقساط ديونك •• وسـياط أمك •• وشكوى زوجتك •• ونحيبها المتصل •• وكلماتها الشائكة الى حد شعرت فيه مرارا كأنك تنـام مع قنفذ ! !

•• قالت شهر زاد :

– ان الرجل الذى أراد أن يعيش فى جزيرة المرجان ، قد

طابت له الريح بضعة أيام ، ثم وفدت على قاربه بعدئذ ريح معادية من ناحية الشرق •• أجـل ، من ناحية الشرق •• ومزقت الشراع وطفقت تثير الأمواج على نحو حاقد الى أن أخذت تلطم القارب تجاه جبل (المغناطيس) الرابض تحت سطح البحر ••

وقالت شهر زاد :

ان الجبل شرع يمتص كل المسامير من جسد القارب حتى ظل فى وسع الرجل أن يلمح قاربه بهلع مفجع ، قد أصبح بعد قليل مجرد ألواح تطفو خلال تدافع الامواج الهمجية !

•• وقالت ان الرجل كان يغيب بين حـين وآخر فى قاع البحر ، ثم ينبثق مزرق الوجه شره الأنفاس ••

•• وقالت انه لم يكن فى امكانه أن يبكى •• ، ولقد بدا مثل عصفور يطير عبر المطر !

وأدرك شهر زاد الصباح ! !

● ●

٧ سبتمبر ١٩٦٨ م

● ●

حكاية بائع الفل

« عانيت موت الروح ..
فى هذه الارض التى يهدر فى جبالها ..
رعد عقيم ، وتجوع الريح
ويصلب المسيح ! »

« البياتى »

كان رجلا يحلم بالكلمات دون انقطاع ..

كانت كل كنوزه حزمة أبيات من الشعر ، وايمان دافق بالأشياء المتوهجة أبدا على طول المدى ..

ان فى امكانك أن تراه يطوف شوارع القاهرة باتصال ، متحدثا فى صمت جليل مع شىء بعيد فى قاع قلبه .. فيما يكتسى جبينه أحيانا بكثير من التجاعيد التعسة !

ان فى وسعك أن تلمحه يتطلع الى واجهات المتاجر هناك دون أن يرى فيها أيما شىء ، على حين يلكزه المارة المسرعون بأكتافهم دون أن يلتفتوا اليه !

كان رجلا يحلم بالكلمات ..

وكانت عيناه ترحل دائما صوب أماكن تنهض على حافة العالم .. على حافة الحياة .. ، أماكن غامرة بالدفء والضوء .. ، غير أن صياح الباعة المتجولين .. باعة السجق ، والعصافير المشوية .. وأوراق « اليانصيب » ، والصحف ، كان صياحهم المتوالى المزعج يقطع عليه أحيانا تطلعاته المورقة .. حتى اذا حاول أن ينعزل فى أى قبو مع كلماته .. عندئذ كان يتناهى اليه ــ رغم أنفه ــ صوت أم كلثوم الحاد مثل منشار !

ذات يوم ، كان قد قابل صديقا له هناك ، وذهب معه الى شقته ! !

كانت الشقة مكتظة بالليبيين .. والكلمات المخمورة .. والدخان .. وأصداء أغانى « خديجة » الصاخبة .. والعطر الرخيص .. والمداعبات السمجة ، لكنه طفق يحنط ابتسامة فوق شفتيه أمام الآخرين ، متظاهرا بأن ليس ثمة ما يضايقه على الاطلاق ، بالرغم من النكات الفجة التى ظلت العاهرة العجوز تتقيأها فى أقصى الزاوية !

كان صديقه يشعر بالحرج تجاه ذلك .. وقد تمنى

لو يستطيع أن يلفت انتباه أصدقائه حتى يكفوا قليلا عن عبثهم المزرى ، لكنما ضجيجهم كان حادا بطريقة تدعو الى اليأس ، ولقد مسح بكفه جبينه الندى ، ثم قال لضيفه :

— وددت دائما لو أستطيع الكتابة .. أننى أنفق ساعات طويلة أحلم بهذا ، لكنى كنت أشعر بالرهبة كلما حاولت أن أخط كلمة واحدة . ان الأمر يبدو لى مستحيلا .. مستحيلا على نحو قاهر !

وأغلق الشاعر عينيه لحظتين ، ثم تطلع الى السقف قليلا .. وحين التفت أخيرا الى صديقه ارتسمت على وجهه كل عذابات الهجرة ، والنفى ، وغياب الكلمات ، والشعور بالوحدة فى وجه العالم ، ثم قال :

— الأمر القاهر حقا هو أن تستطيع الكتابة .. انك تحرق كل سنوات عمرك فى سبيل ذلك .. هل تتصور ؟ ثم تكتشف فى النهاية أنك مثل حصان السباق الذى يكسب الجائزة الأولى ، ولا ينال بالتالى سوى عليقه المعتاد .. هل تتصور ؟ ولكن الأمر فى الواقع أسوأ من ذلك .. انك تشعر كأن كل ما حلمت به قد كتبته فوق الماء .. هل

تتصور ؟ •• ولم يعد أمامك فى النهاية سوى أن تردد فى حزن بالغ :

« أنا أمير حلب اليتيم
مهاجر فى داخل المدينة
من شارع لبيت ••
على جواد الموت ! »

•• وجذب أنفاسا عميقة من لفافته •• وأغلق عينيه لحظتين ، ثم قال :

– ان ذلك كل ما يتبقى لك فى النهاية •• هل تتصور ؟ انك تظل تعيش موتك لحظة بلحظة ، وتنهار كل أحلامك القديمة بأيدى الآخرين دون أن تستطيع أن تفعل أيما شىء•• هل •• هل تتصور ؟

فى اليوم التالى كان يجوب شوارع القاهرة على غير هدى ، الى أن توقف على ضفة النهر عند الكورنيش ••

كان الوقت مساء •• وكانت الأشرعة المتخمة العملاقة تذرع النهر بشموخ متطاول •• وكانت أضواء المصابيح والاعلانات المتوهجة على طول طريق الضفة الأخرى تستلقى فوق صفحة النهر فى ارتعاش موصول •

كان يردد بضعة أبيات بخفوت ••

ثم شرع يرنو باستغراق الى الجمـوع المتناثرة الجالسة فوق الأعشاب على بعد خطوات منـه ، فيما ظلوا يأكلون هناك ، ويثرثرون دون انقطاع ، ولم تستطع أبواق العربات المارقة •• وضوضاء المـارة ونداءات الباعة الملحة أن تلوى عنقه عن ذلك المشهد •• كان يواجهه بصمت صاخب •• غير أن الجموع التى تأكل وتثرثر هناك ، لم تكن ـ فيما يبدو ـ تحس بنظراته النفاذة •• أو تلاحظها ••أو تحفل بها ، على حين ظل بائع العصافير المشوية يطوف عليهم بكانونه الملتهب بين حين وآخر !

كان يرقبهم بصمت صاخب •• الى أن تناهى الى سمعه صوت ذلك الرجل المنـادى :

– أنا عندى فـل •• الفل •• الفل !

والتفت اليه على نحو مباشر ••

كان رجلا نحيلا جدا مثل عود ثقاب •• وكان يشق طريقه بسرعة وبطريقة عجيبة بين العربات المنتظرة أمام ضوء المرور الأحمر •

كان يحمل فى يديه عقودا ، وأساور من زهر الفل • وكان يحنى قامته بجانب كل سائق ، مناديا بابتهاج :

– أنا عندى فـل •• الفل •• الفل !

ولكن أحدا لم يشتر منه قط ، غير أنه طفق يعدو بين العربات حين لمح اشارة الضوء الأصفر ، ملوحا بيديه المجللتين بذلك الزهر الأبيض ، حتى اذا أضيئت اشارة المرور الأخضر وتدافعت العربات بجنون خلف بعضها .. عندئذ أخذ يتلاحق الرصيف عبر الموت ببراعة وخفة مذهلتين ، رانيا بالتالى الى النور الأخضر بانكسار كامل ! !

ان أحدا لم يلتفت اليه ..

ومثلما كانت الجموع تأكل وتثرثر هناك دون أن تهتم بنداءاته ، فان بعض السائقين أيضا قد تجاهلوه تماما ، بينما نفضه البعض الآخر بتلويحة ملولة كما تنفض ذبابة ! !

.. لكنه لم يفقد اصراره مطلقا .. وظل يجرى بين المارة، والعربات عند كل اشارة حمراء ، حاملا زهوره الناصعة البياض .. مناديا عليها فى الحاح وصبر غريبين !

حينذاك كان الشاعر يرقبه .. وكان يشعر حياله بحزن غامق .. ، واذ حانت منه التفاتة الى الأشرعة المتخمة العملاقة وهى تعبر النهر فى وجه التيار ، والظلام الوافد ، أحس بشىء صلب المخالب ينهش حبة قلبه بحقد مفرط ، بيد أنه لم يكن فى وسعه أن يفعل أى شىء سوى أن يغلق عينيه

لحظتين .. ويردد فى قاع أعماقه بضع كلمات دامعة !

انه لا يملك غير الكلمات .. الكلمات الشذية البيضاء مثل عقود الفل تماما ، وعلى هذا فقد بصق نظرة نحو الجموع الاكولة المتناثرة فوق الأعشاب ، وشعر باستياء بالغ حين مر من أمامه بائع الصحف .. وتعالى صوت الرجل النحيل مرة أخرى :

– أنا عندى فل .. الفل .. الفل !

وعلى الفور شرع يعدو بين العربات من جديد بأمل مثابر .. مناديا هذه المرة بصوت مكتئب تقريبا .. غير انه لم يفقد ، بعد ، تلك الروح المتوثبة .. فيما أنشأ الشاعر يتطلع اليه برثاء نبيل محزن ..، واذ استغرق بعدئذ فى مشاهدة الأشرعة ، والصوارى المنتصبة فى شموخ وصلابة ، اخترق سمعه صوت حاد لاحتكاك عجلات احدى العربات على الطريق .. ثم رأى فى التفاتة خاطفة تلك العربة تقذف بائع الفل بمقدمتها مثل ثور هائج ، الى أن دفعته بعيدا عنها عبر اصطدام قاتل !

وهرعت الجموع الى هناك .. وأخذت تنظر بفضول الى الرجل النحيل الملطخ بالدم والتراب .. وتتبادل الكلمات فى ذهول !

– صدمته هذه السيارة .. سيارة الجيش !

ويقول آخر :

– الحافلات .. وسيارات الجيش أخطر شيء فى المدينة !

ويشرئب عنق رجل ثان وسط الجموع .. ويتساءل :

– هل مات ؟

– لا أدرى .. أعتقد ذلك !

هكذا يتطوع من فى جانبه بالاجابة ولكن يقول آخر :

– ربما يكون مغمى عليه فقط !

.. وفيما تتدافع الأكتاف حول الجسد النحيل الملطخ بالدم والتراب ، المستلقى فى غيبوبة كاملة .. تظل الأقدام الفضولية تسحق تحت أحذيتها المتسخة عقود وأساور الفل المتناثرة هناك ! !

.. ويغلق الشاعر عينيه طويلا فى حزن بالغ .. ويشعر بشيء حاقد الأنياب ينهش حبة قلبه .. ثم يسحب خطاه الواهنة فوق الطريق كأنما يسير فى جنازة .. ومثل نصف ميت يعود الى بيته ! !

● ●

١٠ يناير ١٩٧٠ م

● ●

كلمات متقاطعة

أريد أن أقول ما أشاء !

أن أحفر بأظافر حروفى نافذة على الشرق فى زنزانة قلبى وأن أغزل على ظهور كلماتى أجنحة مباركة حتى تنفلت عبر النافذة على نحو يجعل النجوم تزغرد بالبريق فى محاجر السماء ! !

أريد أن أقول ما أشاء !

فلقد طالت سنوات الصمت الكسير ..

وتسرغت آلاف قطرات العرق الدافئة فى التراب دون جدوى .. وماتت نظرات الأسى داخل اغماضة اليأس القاهر وفيما تيبست الكلمات على شفتى مثل قشور السمك ، ظلت الفئران تأكل أصابعى عبر دخان الظلام الغامق .. وتتسلق الصراصير جدران قلبى ! !

لكننى لم أفكر فى الانتحار قط !

ان نبضى الأرعن لا يعـرف الانطفاء .. ولم تزل عروقى المتخمة ، الشديدة الخضرة تضخ نهـرا أحمر فى شـقوق شفاهى الظمأى .. وتعدنى بنافذة تطل مباشرة على الشمس .. على الله !

□■□

ليس ثمة ما هو أروع من الأطفال ! !

انهم يقولون كلماتهم على الفور بجرأة وثبات .. وبساطة الى حد تتسع فيه أعين الرجال فى ذهول .. وتتدلى شفاههم فى بلاهة مضحكة .. أنتم لا تصدقون ذلك .

حسـنا !

كان ثمة طفل يجلس بجوار والده فى احدى عربات القطار ثم جاءت عجـوز الى نفس العـربة ، وجلست على المقعـد المقـابل ..

كانت عجوزا بشعة ..

وكان وجهها ممتلئا بالتجاعيد مثل أوراق (المضـغة) ولكنها فتحت حقيبة يدها فى الحـال ، وأخرجت مـرآتها الصغيرة .. وعلبة أخرى ، ثم شرعت تغمر وجهها بالمساحيق واذ بدأت تدهن شفتيها بالاصبع الأحمر ، قال لهـا الطفل بفضول :

– لمـاذا تفعلين ذلك ؟ !

وابتسمت له العجوز ببلادة .. وقالت :

– .. لـكى أبدو جميلة !

وتغضن جبين الطفل امتعاضا .. وسكت الى أن انتهت العجوز من عملها ، وأغلقت أخيرا حقيبتها .. وعندئذ تطلع اليهـا .. وقال ببساطة :

– .. ولكنك لا تزالين قبيحة ! !

□■□

أريد أن أقـول ما أشـاء ..

أن أمزق الغيمات الموغلة السواد .. وألون سموات الله بأقواس قزح .. وأبذر كلمات مثل المطر فى قاع العيـون القاحـلة .

انه فى وسعك أن تجعـل مخالبك الخانقة تقضـم عنقى باتصال .. فى وسعك ـ يا سيدى ـ أن تحبس صوتى .. وأن تحنط طائر قلبى قبل انعتاقه .. وتفقـأ عينى ، ولكنك ستكتشف بيـأس مفجع ، عبر فحيحك ، بأننى غير قابل للموت ، اذ أننى لا أزال قادرا على الحلم ! !

انى سأحلم بالكلمات الطليقة البيضاء مثل النوارس .. والسماء الـكلية الصفاء والعمق .. والحقـول الثرية ..

والعرق المبارك .. والحصاد .. وأيام أبريل !
.. وتنفجر مثل بركان حاقد ..
وتلهب سياط كلماتك جبينى .. ثم يوضع لسانى تحت المقصلة ، غير أن الحلم سيعاودنى مرة أخرى .. وأحلم ..
وأحلم الى أن أصدق بدون أى شك أن الله عندما خلقنى قد تركنى أعيش فى حديقة (هايد بارك) ! !
أنا سأحلم بلا انقطاع .. فاحذر ذلك !

□■□

كنت عائدا من القاهرة ذات يوم ..
كان معى فى نفس السيارة صديق عراقى لم يزر بلادنا من قبل قط ، ولقد ظل يحكى لى طيلة الطريق عن الشعر الشريف .. وخلاص الانسان .. وعذاب الرواد الابطال على مدى الزمن .. والغربة .. والأسوار الصلدة على حدود المنفى .. والحنين .. وألف شيء آخر !
كان حديثه شيقا للغاية !
وحين وقفنا أخيرا عند بوابة (امساعد) .. وشرعنا ننتظر فى تلك الصالة ، أشار الرجل ذو الأزرار النحاسية الى كتاب كنت قد وضعته فى حقيبتى ..
وقال لى :

- هذا الكتاب ممنوع ادخاله الى ليبيا !

ورماه فى أحد الأدراج .. على حين شعرب بالخجل يحرق وجهى .. وأعماقى كذلك .

كان الكتاب : « مذكرات جيفارا » !

ولقد ظل بريق الأزرار النحاسية فى وجه النافذة المشعة ينفذ الى عينى على نحو مؤلم ، حتى رفعت بصرى الى السقف .. ، وحينما انطلقنا من جديد ، قال لى صديقى بأسف مرير :

- مسكين جيفارا .. مطارد حيا وميتا ! !

□■□

منذ ثلاثة أيام ، رأيت فى منامى أننى ذهبت الى سوق (الرويصات) الممتلىء بالأصداء .

كان مكتظا بالرجال ، والسلع العتيقة .. وكان صاخبا على نحو مزعج مثل أسواق الرقيق فى بغداد عبر الأزمان الماضية !

كان ثمة رجل قد افترش بعض الصحف على الأرض ، واضعا عليها صفا من الأحذية القديمة المعروضة للبيع .. ، وفى أقصى اليمين انتصب رجل ذو عينين باردتين ، وأخذ ينادى على بضاعة من نوع آخر .

كان يبيع ببغاوات ! !

وفيما أقعت هناك فى بلاهة أنشأ يمسد ريشها •• ويصيح فى وجوه المـارة :

– هذه طيور جيدة •• فاتنة ، انها تستطيع أن تفعل من أجلكم كل ما تريدونه •• تستطيع أن تحـكى لكم أقوال الصحف حين ينهمر ضوء الصباح •• وتغنى الأناشيد •• وتنسج لكم أروع القصائد الفخمة فى المديح •• وترقص باتقان فوق الحبلين •• تستطيع أن تفعل أى شىء دون أن تتعرض للحكم بالسجن ثمانية أشهر ! !

وعندما أفقت من نومى ، أحسست بطريقة ما أن غرفتى معبأة بأصوات اصطفاق الأجنحة ! !

□■□

قال البيـاتى :

« •• بحيرة من دم
تفصـل ما بيننـا
وعبرها أرضـهم
تصـقل أغلالنـا
وليلهم •• ليلهـم
يخنق اصـباحنا

وكلبهم فى المدى
ينبح أمواتنـــا !
حبيبتى : احرقوا
بالأمس أشـــعارنا
حبيبتى : شوهوا
بالصمت ، تاريخنا
حبيبتى : مـــوتوا
بالســـل ، أطفالنا
حبيبتى : أغلق الشتاء شـــباكنا
لاشمس ، لانسمة
تطرق أبوابنـــا
ثلج ليالى الهوى
يغمر بســـتاننا !
لا فأس ، لاصيحة
تشعل أحطـــابنا !

□■□

لقـــد طالت سنوات الصمت الكـــبير •• وتمرغت آلاف حبات العرق فى التراب دون جدوى ، وماتت نظرات الأسى داخل اغماضة اليأس القاهر • وفيما تيبست الكلمات على

شفتي مثل قشور السمك جلست بمفردي على ضفة الخليج .
وطفقت أبصر الى الشمس الارجوانية الوقورة وهي تغرق
باطراد في أقصى الجدول الأحمر الممتـد على صفحة البحر ،
على حين التهم الأفق الملتهب العينين كل الطيور الناصعة
البياض في جوفه السحيق !

كانت طيورا طيبة !

ولقد أقلعت احدى البواخر من المرفأ ، وجعلت تودع
مرساتها ، مرسلة صوتا محزنا غمر أعماقي بالوحشة ..
والفقد الى حد شعرت فيه أنني مجرد نورس وحيد يذرع
أبعاد الصحراء المحرقة باعياء قاتل ! !

ثم بزغ بعدئذ نجم ضئيل في السماء الحالكة ..

كان خيط الشعاع الذي يبثه من هناك واهنا الى حد ما ،
ولكنه استطاع أن يتسلل الى زنزانة قلبي ! !

ان نبض الأرض لا يعرف الانطفاء ، فحين تجرح البجع ،
يشتد غناؤها .. ، وحين تغتم السماء ، ينهمر المطر ! !

٢٠ نوفمبر ١٩٦٨ م

عيون الكلاب الميتة

« قد يبكي الرجال لكثرة القبح
في الحياة .. »

« البير كامو »

كان القمر يخوض حتى ركبتيه فى مستنقعات السماء .. وكانت العيون مفغورة الشفاه .. راكدة مثل عيون الكلاب الميتة .. وكان الليل موحشا كمقبرة قديمة .. والنهار كذلك .

وفيما امتلأ زجاج نافذتك بعروق المطر .. وارتفع صوت الضفادع عبر الغدران .. والنباح الضال ، ظللت يا سيدى تقرض الكتب مثل فأر شره مثابر .. وتزرع الكلمات فى قلبك مباشرة أمام الضوء الواهن المنبث من مصباحك العتيق ورغرغة الشاى فوق الجمر المغلف برداء ضبابى فى زاوية الغرفة .

لم تكن تشـعر بالتعب اطـلاقا ..

ولقد بقيت تحلم طول الوقت بأن تغـزل تنهداتك فوق الورق ذات يوم .. وأن تجعل الآخرين يتنهدون على نحو تلقائى حين يقرأون كلماتك .

انك لم تكف عن الحلم قـط ..

فعندما تنتهى من قراءة أيما شيء جـيد .. كنت تسدل أجفانك فى اغماضة مترعة بالألوان .. وتتخيـل انك أنت الذى كتبت ذلك ، الى حد تظل تستقبل فيه تهانى الاصدقاء وكلماتهم الطيبة !

وترحف أحلامك على مدى الأفق ، مثلما يزحف مد النهر على الضفاف . وتتصور انك تقبع فى زنزانة رهيبة معبـأة بآلاف الصراصير والجرذان ، بعدما طاردتك السلطات من أجل كلماتك الشجاعة ! !

كنت تود أن تصبح مثل « بروميثيوس » دون أن تخشى ذلك النسر الحاقد الذى سينهش صدرك بلا انقطاع فوق تلك القمـة !

ان الأمر يبـدو لك مضحكا الآن ..

ولكنك حاولت أن ترصف الحروف بطريقة جيدة مثـل

العمالقة الآخرين .. حاولت ذلك كثيرا حتى أقفرت عيناك من الضوء واكتظ جبينك بالشقوق .. واعتصر قلبك حتى لم يعد فيه قطرة نابضة غير ان كلماتك بالرغم من هذا ظلت باردة ، راكدة مثل عيون الكلاب الميتة .. وتعين عليك أن تبصقها عند قدميك دون وداع !

لكنك لم تيأس على الاطلاق .

اذ كان فى وسعك دائما ــ عبر أمطار ديسمبر المفجعة ، والصقيع ، والرياح الموحشة ــ كان فى وسعك أن تسمع وشوشة الأغصان المترفة .. وعبير الحقول .. وزقزقات الطيور ، وأن تغسل قلبك المقرور فى شعاعات الشمس الدافئة فى ابريل القادم !

كان فى امكانك أن تفعل ذلك بيسر بالغ .

ولقد بدأت من جديد رحلتك مع الحروف على نحو غامض .. وأرهقت قلبك وعينيك معا ، ثم اكتشفت ــ بعد أن أتممت نسجها آلاف المرات ــ انك لم تستطع أن تنزع عنك تأثير الكتاب الجيدين ، حتى شعرت أن قلمك مجرد منقار ببغاء بليد !

ومزقت أوراقك مرة أخرى ..

ثم طفقت تتعلم الحيـل التى يستعملها الرواد ، والتى فى امكانها أن تلهب خيال القارىء حتى يبكى بمرارة دون أن يدرى •• أو يضحك حتى تتصلب أمعاؤه •• أو يشد قبضته بينما عيناه تلوحان مثل بحيرتين من دم •• أو يفعل أى شىء آخـر •

وكان أن تفجرت أمام عينيك احدى هذه الحيل :

أن ترصف الصور بجانب بعضها على نحـو متدفق •• وأن تكتبها بأقل عـدد ممكن من الكلمات ، ثم تغمـرها بالألوان •• والضـوء •• والظلال ، على أن تحـدد جميع حوافها دون أن يهزل المد من خلال آية كلمة ! !

ولقد بدا ذلك مرهقا الى حد الموت •

ولكنك أفرغت جهدك كله بصبر متكابر ، حتى عرفت كيف تضع الطعم باتقان ودقة •• وكيف تنصب مصيدتك بمهارة ، وترشها بقليل من الأعشاب والأوراق ، وتنتظر •• وتنتظر ريثما تعبر الثعالب جوف الوادى !

بيد أنك ، حـين شرعت تدلق نبض قلبك على الورق ، أدركت برعب صاعق انك لا تعرف شيئا عن الثعالب • وانك مجرد مخلوق تعس يحاول أن يحلب النجوم •• أن يمسك

المـاء بقبضته .. أن يحدث ثقبا غائرا فى سموات الله .. أن يكون كاتبا من خلال فوقعة مغلقة معبأة بالمعلومات المحنطة مثل مناهج المدارس !

وشعرت بحزن قاهر ..

ثم قررت أن تسير الطريق الى أقصى مـداه ، حتى يظل فى مقدورك أن تتحسس الأشياء ـ كل الأشياء ـ بيديك معا قبل أن تكتب عنها .

وكان ذلك عملا شائكا .

ولقد طوفت على الفور فى كل الدروب المضيئة والمظلمة على السواء بقدمين مسعورتين ، وعينين جائعتين .. وولجت كل الأقبية فى بلادنا ، وتعرفت على النسـاء الرخيصات ذوات الوجوه الملطخة بالأصباغ .. وبائعى جسد الانسان ، وروحه أيضا .. والرجال ذوى العيون الوقورة .. وأشباه الرجال ومحترفى الشجار والكلمات القنـافذ .. والوجوه الطيبة ذات النظرات الودودة على الدوام .

ونمت فى كل مكان متوسـدا زجاجتك المفرغة أبدا .. فى الحانات .. والمراكز .. والبيوت المشـبوهة .. وعلى الأرصفة ، وأيقظك الكناسون ألف مرة .. ورجال الشرطة .

وامتلأ قلبــك بالندوب ..

وفيما انطلقت الى الشمال وغطسته فى نهر الراين لتغسل الدم المتخثر فوق جـروحه ، وتربت عليه بوداعة ، كان فى وسعك أن ترى قمم الألب المدببة وهى تغزل بمناقيرها أسلاك الشمس المجيــدة .

وتنهدت بارتياح ..

وواصلت يا سيدى مسيرك الى سقف العالم ، على حين كانت خيوط المطر الناعم تمشط شعر رأسك على جبينك ، وتفعم أعماقك بالسلام والسكينة ، بينما أنشأت الطرقات المبللة الملتمعة تعكس أضواء العربات واعلانات « النيــون » الملتهبة المتراقصة على كل الجدران ! !

كان ذلك عالما متوهجا .. ثريا بالضوء والدفء والحياة مثل شمس الربيع ، وما كنت قادرا أبدا على أن تغلق عينيك فيه لحظة واحدة .

وعدت الى قبــوك من جــديد ..

عدت يا سيدى الى مصباحك العتيــق .. والشــاى ، وجمرات النــار المغلفة برداء ضبابى .. ، وحين احتضنت أصابعك قلمك السيء الحظ ، تعرت أمام عينيك كل الثعالب

فى بلادنا .. تعرت عريا فاضحا لا شك فيه ، حتى تورد لون الورق خجلا ، وأغمض قلمك عينيه !

كنت تود أن تـكون « برومثيوس » ..

ولكن الكلمات الناضجة ظلت تقفز على جبينك بنزق مثل براغيث حسقى .. وأخذت تركض عبر قلبك المحترق برعونة بالغة كجياد برية ، ولقد أردت بحرارة أن تجمعها فى عقد من زمرد .. أو أن تكون مثل أشرعة ممتلئة الصـدر .. أو مثل عصافير مهاجرة .

وكان لديك صبر متكابر ..

وكانت أعماقك مترعة بألف لون .. وألف أمنيـة فى أن تلثم شفاه القراء كلماتك المشرقة المدهشة مثل عيون الأطفال، بعدما أنفقت سنوات فى الكتابة لنفسك .

ونزفت كثيرا من العرق .

والتهبت أعصابك على نحو قاتل ، وأهرقت كل الضـوء من عينيك على الورق .. وأعطيتهم أجود ما لديك !

كانوا يجلسون فى ذلك المقهى ..

وكانوا يتحدثون عن الصبية المنتظرين ثمن التذكرة أمام السينمات .. وسـكرة الليلة الماضية .. والأغانى الفجة ،

وعندما مرقت نظراتهم عبر كلماتك . قالوا انك مجرد سكير، وملحد ، وعميل . وانك لاتكتب سوى من أجل حفنة قروش قــذرة !

لم يكن لديهم ثمة ما يحكونه .

ولقد كنت بالنسبة لهم موضوعا جيدا لنفث بقية لعناتهم الى حد جعلوك تشعر كأنك تعيش داخل فرن ملتهب . وقبل أن ينتهوا من قراءة كل كلماتك قذفوا بالصحيفة على الرصيف، وجاء أحد الكلاب وشمها بفضول ، ثم بال عليها .. ورحل !!

فمعذرة يا سيدى ..

فأنت تعرف أن هذا يحدث دائما .. كما تعرف أن قلوبهم قد حطمتها الأحلام الجنسية الرديئة ولكن أسوأ ما فى الأمر أنك اكتشفت حقيقة أخرى عبر احــدى لحظات يأسك .. حقيقة حادة مثــل غابة مرجانية ، هى أن الــكلمات ــ كل الكلمات ــ عاجزة عجزا مفجعا عن خلق الرجال ، فليس ثمة من يقبل أن يعيش داخل تجربة انسان آخر ، وليس ثمة من يرضى أن يحتضن كلمات تقــول له ان ذلك الطــريق ملىء بالفخاخ والموت ، والجثث دون أن يعبر الطريق بنفسه ! !

ان الجدار الصلد حين يحطم الجباه يكون قد فعل ذلك على نحو متكامل .

الجـدار الصلد وحده .

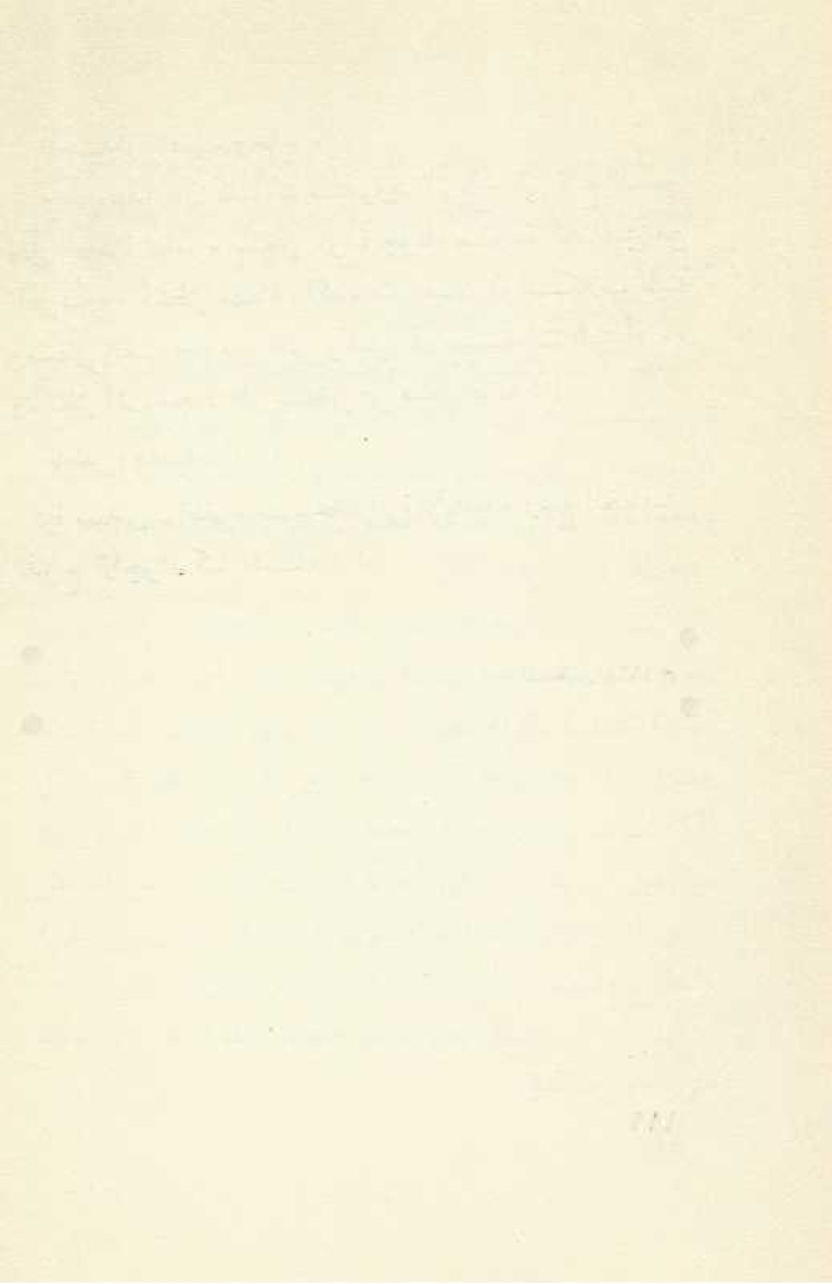
وعلى هذا فان كلماتك ستذروها الرياح الى قاع السعير
مثل الخطاة تماما . ستظل باردة جوفاء مسودة كخنافس من
الخزف .. ستظل مطفأة راكدة مثل عيـون الـكلاب الميتة
وسيظل القمر يخوض حتى ركبتيه فى مستنقعات السماء ..
وستظل أنت مجرد فأر ينتفض فى منقار بومة ! !

فاطفىء مصباحك ..

يا سيدى ، اطفىء مصباحك الى الأبد .. ودع الخفافيش
تذرع الأجواء كما تشـاء ! !

●
●
●
●

١٧ أغسطس ١٩٦٨ م



رحلة الريح الجنوبية

كان ذلك فى أثينـا ..

كنت جالسا فى ذلك المقهى المتسع من كل جانب ، متطلعا الى بركان المـاء فى تلك النافورة العملاقة بميدان «أمونيا» .

كنت وحيدا هنـاك ..

ولقد ظل بصرى يلوى عنقه بين حين وآخر صوب الفتاة الجالسة فى أقصى اليسار .. ويحتضنها بنظرة طويـلة .. طويلة شرهة ، وأحلم أنها ستنهض بعد قليل وتأتى الى مائدتى بقدمين وجلتين وتسألنى :

– معذرة ، لقد لمحتك تجلس بمفردك .. ولاح لى أنك غريب هنا .. هل تسمح لى بالجلوس ؟

وفيما تطلب زجاجة « فكس » تشرع فى حديث شيق عن مدينتها فى السويد ، وعائلتها ، ووحدتها فى أثينا ، وتشرف

قافلتي العطشة ، التي بقيت تذرع الصحراء آلف سنة ، تشرف على الواحة المنتظرة ، واذ يهدر تدفق المـاء عبر النافورة ، وأنظر الى يدها الشمعية الرقيقة وهي تسكب بقية الزجاجة في الكأس •• تفاجئني عيناها الزرقاوان :

ـ احك لي عن افريقيـا •• عن تلك الغابات الاسطورية الممتـدة باتساع السماء •

وتنثال من بين شـفتي حزمة أكاذيب مثـيرة حتى يأكل الشيطان أصابعه ، عندئذ أتمنى لو آغمض عيني وأقول لها بانكسار محزن :

أنا يا سيدتي لا أعرف سوى التلال الرملية الرهيبـة المترامية على مدى الأفق •• والشمس الملتهبة بلا انقطاع •• والعرق •• والرياح الجنوبية •• والعطش !

ولكنني لا أقول لهـا شيئا من هذا ، بل أرسل بصري ليغتسل في ميـاه النافورة ، ثم أغرق قلـبي في ابتسامتها المترفة الاشراق ، وادع أصابعي تتسلل الى يدها المستلقية فوق المائدة ، وأدعوها على الفور الى مكان آخر •

لقـد حلمت بذلك طويلا ، الى حـد أنني طلبت زجاجة « فكس » مفرطة البرودة ، ووضعتها أمامي رانيا الى قطرات

العرق المرصعة على جدارها ، متخيلا آلاف الصور الشهية فى كل قطرة ! !

كان الوقت مساء ، حوالى الساعة الخامسة .

ولقد وقف أمامى حينذاك صديق قديم . وانتزع يدى، وصافحنى بحرارة :

أنت آخر مخلوق أتوقع أن أراه هنا .. أين كنت كل هذه السنين ؟

هكذا قال لى .

كنا قد تربينا فى شارع واحد .. وارتكبنا كل الحماقات معا ، وحين انتقلت الى طرف المدينة لم أره بعد ذلك قط ..

وطفق يحكى بتدفق :

– أتذكر .. أتذكر تلك الايام ، كأننى أراها أمام عينى الآن .. كان والدك قد حلق لك رأسك حينذاك تاركا لك فى وسطه واحة من الشعر ، كان يعتقد أنك ستبدو مباركا حين تحمل « شوشة » هناك .. ولكنك بدوت كمن يحمل « وشكة » فوق رأسه ! !

وضحك بصوت مرتفع ..

– أنت لا تنسى شيئا .

كذلك قلت له ماسحا شعر رأسى .

– حسنا ، ان ما يذكرنى بهذا هو تلك الظهيرة ..

– ايــة ظهيرة ؟

– سأحكى لك عنها ، لقد جئت بطبق الخبز الى المخبز .. وحين رأيت تلك البنت ، وضعت الطبق بهدوء .. واقتربت منها كأنك لا تدرى بها ، ثم قرصتها حتى صرخت بحدة مثل كلبة دفعتها احدى العربات .. ورآك أخوها الكبير عـلى نحو فورى .. وقبض على حزمة الشعر فى رأسك ، وأخذ ينفضك كأنه مسك بربطة فجل .. ثم صفعك حتى ســال الدم من شفتيك .. هل نسيت هذا ؟

– لا .. لا .. أنا لم أنس ذلك قط .

وداهمنى شعور مفاجىء بالغم الى حد الاختناق ، ثـم أحسست بحزن جليل غامر .. وتذكرت قافلتى بمزيد من اليأس والموت .. وقلت له باستياء :

– أنا لم أجىء الى هنــا لأقضى أجازتى فى ذلك المخبز اللعين ، فدعنا نتحدث عن شىء آخر .

– حسنا ، أعرف أنك تكره تلك القصة ، ولكن قل لى ، هل اصطدت شيئا ما ؟

وتنهدت . وهززت له رأسى على الجانبين ، فيما أنشأ يحكى عن سائحة فاتنة تعرف بها فى احدى المقاهى ..

– لقد شربت كثيرا .. أنا لمحتها تفعل ذلك طول الوقت وحين رجعت بها الى غرفتى وحاولت أن أقشرها ، صفعتنى كما لم يصفعنى أحد من قبل .. وشعرت بالنيران تهتاج فى صدرى .. ولم أكن قادرا على أن أسمع صراخها عندما أخذت مخالبى تمزق القشور ، أنا أقول لك بصراحة ، ولكنها أفلتت من بين يدى .. ومرقت من خلال الباب الى الساحة التى وجدت رواد الهوتيل فيها أمام حجراتهم يرنون الى بازدراء قاتل غير أننى قلت لنفسى اننى سكران .. وان هذا لا يهم ، ذلك أن النعاج لا تفعل شيئا فوق المذبح غير أن تنتفض وتصيح !!

ثم نظر الى ساعته ونهض فى الحال قائلا :

– حسنا ، أنا لدى موعد بعد قليل .. سأحاول أن أراك هنا غدا .. الى اللقاء .

وتذكرت ربطة الفجل .

□■□

ثمة فتاة ألمانية التقيت بها قبلئذ فى احدى الحانات .. كانت الحانة لا تفتح الا فى الساعة التاسعة مساء ، وكنت

أقابلها هناك فقط ، اذ يبدو أنها تقضى طول اليوم فى عملها بالسفارة الالمانية •

كان اسمها « خلادى » •

وكانت جدائل شعرها الأشقر تحتضن وجهها باتصال ، حتى اذا ما برقت منها التفاتة ما ، ظل فى وسعك أن ترى وجهها مغمورا بلفائف الخصلات الملتهبة •

كنت أرتاد الحانة من أجلها كل ليلة •• ونجلس معا خلف كأسينا •• ويشرع « فاسيليوس » فى شد أوتار قيثارته •• ثم يغنى :

« عندما أسدل جفنى همسا
وتلتهب النار على وجنتى
ويخرق النبض قلبى الصغير
فمعنى ذلك أنى أحبك »

ويرفع السكارى كؤوسهم الى أعلى •• ويصيحون بابتهاج •

كانت شمس يوليو قد احترقت تماما ذلك اليوم ، وبدأت تغطس فى قاع العالم الآخر ، بينما وقفت بجانب النافورة ، متلذذا برذاذ الماء المتطاير على وجهى ، متطلعا بشوق مجتح

عبر الأفق الرمادى الى موعد الساعة التاسعة ، ولقد سرت على طول شارع « تدينى ستيفريو » المكتظ بالمارة ، والواجهات الزجاجية المشعة أبدا ، واعلانات الضوء الملتهبة، غير أننى لم أستطع اطلاقا أن أنزع من خاطرى ذكرى ذلك المخبز ، والتلال الرملية ، والعطش !

وجئت الى الحانة ..

كانت الجدران مغطاة جميعها بالحصران ، على حين وضع المصباح المتدلى داخل سلة صغيرة ، كانت الكراسى منخفضة بغير مساند ، وقد نسجت مقاعدها من السعف وكانت منافض السجائر فوق الموائد قد نحتت من جذوع الأشجار .. وكان ثمة مدفأة فى ذلك الركن ، مدفأة مسودة بها بقية من رماد الأخشاب المحترقة فى الشتاء الماضى ، وقد تألقت على جبينها خيوط من الشمع المذاب الجاف .

كان المكان بعبارة واحدة ، مثل جزيرة وارفة الظلال ، ولقد جلست فى مكانى المعهود بالزاوية ، وجاءنى « يانى » ــ عامل البار ــ بكأس (أوزو) تزغرد فيه قطعة ثلج ، وطفقت أنتظر .. وأنتظر ريثما ينفتق القمر عبر ذلك الباب .

ودخلت « خلادى » ..

دخلت مثل موجة من عبير ، وأجالت بصرها فى كل الرواد ، ثم نبتت فوق شفتيها ابتسامة مضيئة ، وجلست أمامى مباشرة خلف نفس المائدة .

- هل نمت جيدا ليلة البارحة ؟

كذلك سألتنى .

- أجل .. أجل ، نمت مثل ميت تماما .

وغمست بصرى طويلا فى مراعى عينيها الخضراوين .. وأحضر « يانى » عدة كؤوس .. وحمل كؤوسا مفرغة أخرى ، وامتلأت الحانة بسحابات الدخان .. والأصداء ورائحة الأوزو النفاذة الى حد يدمع العينين ، وطفق « فاسيليوس » يشد أوتاره ، ثم يتطاول عنقه فيما عيناه نصف مغمضتين ، وتخفق ريشته عبر الأوتار .. وينهمر صوته الدافىء :

« عندما أسدل جفنى همسا »

وخطت أصابع يدى خمس خطوات فوق المائدة ، ثم تهالكت على يدها ، غير أنها انتفضت بفزع حتى أننى شعرت كأننى وطئت ذيل قطة .. وتذكرت فورا ربطة الفجل ! !

كانت تجذب يدها دائما كلما لامستها ، الى أن أقنعت نفسى بأن لديها تجربة رديئة من قبل .. ولكن ما أن يذرع الشفق الأحمر سماء عينيها وربما عينى أيضا حتى يسقط بصرى على ركبتيها المتكومتين البراقتين ، الممتلئتين بالحياة. ويهمس صديقى فى أذنى بطريقة ما :

– لقد حملتها الى غرفتى ..

وتلفح الشمس والتلال الرملية صدرى .. ويستبد بى الظمأ حتى تتشقق شفتاى.. وأدلق الكأس الحارقة فى جوفى وأنظر الى المدفأة الميتة ذات الأهداب الشمعية ، وأجفف حبات العرق المتحدرة فوق جبينى ، وأشعر أن صداح « فاسيليوس » يفرك أذنى برقة :

« .. فمعنى ذلك انى أحبك »

وعندئذ تسرح نظراتى عبر مراعى عينيها الى حد أحس فيه أننى أذرع سموات الله فوق سحابة ريشية ، ناصعة البياض .

وصاح أحد البحارة الامريكيين فى الحانة بصخب :

– من تود أن ترافق فتى خجولا مثلى ؟

وضحك الجميع ، فيما أحضر « يانى » طبقا آخرا من

الفستق ، وسقط كأس « خلادى » من يدها ، وتحطم عند قدمها ، لكنها لم تتزعزع لذلك على الاطلاق ، بل أخذت تغنى بانفعال مع الرواد ، ولقد ظلت جدائل شعرها الملتهب تتطاير فى كل صوب من خلال هزات رأسها الموقعة .

– غن .. غن أنت أيضا .

هكذا صاحت لى ، غير أننى لم أكن أود أن أفعل ذلك ، ولذا فقد شرعت ألاعب كأسى بين كفى الى أن لمحت حزمة ضوء الفجر الباهتة تتسرب من خلال النافذة المقابلة .. وقالت « خلادى » :

– آه ، أنا تعبت ، دعنا نذهب الآن .

كانت عيناها مثل بقعتى دم .. وكانت أجفانها موهنة على نحو مثير .

– هل ترغبين يا سيدتى فى أن تشاهدى غرفتى ، انها ستلوح لك مثل جزيرة مترعة بألف حلم ملون .. هل ترغبين يا سيدتى .. هل ترغبين ؟

كذلك كنت أهتف فى ذات نفسى ، ولكننى ما كنت قادرا أبدا على نسيان ربطة الفجل ، والصراخ ، والمخالب .. ولمحت « فاسيليوس » مقبلا من بعيد فناديت عليه ، بينما

بقيت « خلادى » تتمايل فى سيرها .

فاسيليوس ، أنا متعب جدا .. أرجو أن توصلها الى بيتها أننى مجهد .. مجهد جدا .

ووقفت أشاهدهما يبتعدان عنى .. يبتعدان ، ثم أخذت قدماى تسحبان الطريق وحيدا مثل الليالى الماضية الى أن وصلت الميدان ، وجلست عند النافورة تماما متطلعا اليها بحزن قاهر فيما طافت بخاطرى قصة « البستان والثعلب » !

ونهضت فى اليوم التالى ..

نهضت من سريرى بتثاقل بالغ .. وكان رأسى مليئا بالأصداء المزعجة ، وحلقى جافا وجسدى منهوكا كضبع ميت بيد أننى ـ قبل أن أتذكر بأننى سأرجع الى بنغازى فى نفس اليوم ـ استرجعت فى ذهنى المكدود كل ما دار فى الليلة السابقة .

واستندت براحتى على ركبتى ، وحين فرغت من حزم حقيبتى الصغيرة ، وهبطت بها درجات السلم بخطوات مرهقة كان فى وسعى أن أرى « فاسيليوس » واقفا مع « خلادى » أمام مكتب الاستعلامات ، ليدفع ثمن الغرفة التى ناما فيها معا هناك .

واستلقت التلال الرملية عبر أعماقى •• والشمس اللافحة وعصفت الرياح الجنوبية وطفح جبينى بالعرق ، واذ عبرت الميدان بعدئذ ، كان فى امكانى أن أرى النافورة العملاقة •• والمياه المتفجرة فى اتجاه السماء •

كنت عائـــدا ••

وكان الظمأ يحفر شفتى ، وسقف فمى ، وقلبى كذلك ! !

٢٤ اغسطس ١٩٦٨ م

الهوان

كانت الفتاة تبكي هناك ..

وكانت مقتعدة أحد المقاعد غير المريحة فى الحجرة المفضية الى غرفة النوم .. ؛ كان ثمة تمثال صغير ناصع البياض لفينوس ينتصب فى أقصى الزاوية .. وكان صوت أم كلثوم عبر المذياع الضئيل يعلو حادا الى حد مزعج :

« مجروح وضامم جناحه
على الجراح اللى فيه »

فيما ظلت القطة تموء ببلاهة عند الباب دون حراك .. وكانت الفتاة تبكى !

لقد استجمعت الآن كل حماقات حياتها الرديئة .. ودلقتها من عينيها على نحو فياض .. ؛ على حين ذهب صديقها

لاحضار « تاكسى » ينقلها الى بيتها ، بعد أن قال لها :

- أنا لا أريدك أن تأتى الى هنا مرة أخرى !

لم يحدث لها هذا من قبل قط !

وقد كانت تهش عنها مغازلات الرجال دائما حتى شعرت أحيانا أنها مجرد ذيل بقرة .. ، ثم عرفت لأول مرة حرارة الذراعين عبر العناق عن طريق الطالب المجاور .. ، وتوالى العشاق بعدئذ .

كانت تدعهم يلعبون فى ثمارها بنهم .. وكانت تتحايل على أهلها كل يوم من أجل ذلك ، الى حد أنها تظاهرت بالانتحار أمامهم ذات مرة ! !

لم تكن جميلة ..

كانت قصيرة ، ممتلئة الوسط مثل سمكة ، ولكن ذلك الرجل ، حين تعرفت به ، شرع يبنى لها على أهدابها تمثالا فاتنا من الكلمات الدافئة .. حتى اعتقدت أن فى وسعها أن تبهر الأبصار فعلا وانعكس هذا على طريقة سيرها ، فطفقت تتثنى كأنها تشكو ألما فى قدميها ! !

واهتم بها الرجال ذوو الأعماق القاحلة .. وأنشأوا

يتعقبون خطواتها الى المدرسة وينفثون فى أذنيها كل الكلمات الشبقة بصفاقة مطلقة .. غير أنها أصبحت تلتذ بذلك الى حد الزهو ، حتى ارتبطت أخيرا بهذا الصديق .. وها هى تبكى متطلعة بين حين وآخر الى تمثال « فينوس » نصف العارى ، الذى يلوح أمامها الآن قبيحا على نحـو بغيض ، منتظرة السيارة لتحملها الى جهنم ! !

— كان ودودا دائما !

كذلك قالت فى ذات نفسها .

— فكيف يتغير بهذه السرعة ؟ !

كان يترقب على منكب الطريق ، مادا عنقه مع كل سيارة تمرق من هنالك .. ولقد ظل يشعر بشىء يدغدغ أعماقه ، جعله يتنفس بحرية أكثر .. وهتف بهدوء دون وعى :

— خلاص .. خلاص .

كانت تفعم قلبه زغاريد شيقة .. ولكنه لم يكن قادرا على أن يوقف تسرب الذكريات تباعا عبر ذهنه .

انه يسكن بمفرده فى هذا البيت ..

وقد طافت بخاطره ليـالى السهاد الطويلة التى قضـاها متصنتا خلال الليل لصوت خطوات اليونانية التى تقطن فوقه

مباشرة فى الدور الثانى .. كان فى امكانه أن يسمع زقزقة السرير .. وأن يحترق على نحو مقرف مثل قطعة مطاط !

لقد تذكر أيضا تلك الزنجية البشعة التى سخرت منه بكلمات عارية عندما طاردها ذات يوم ، ثم انسابت أمام عينيه انتصاراته الخاطفة ذات العبير الرخيص .. وهداياه وعبارات الود الغامرة الحرارة .. والشعور بالفقد .. والوداعات ! !

لقد تذكر كل هذا .. وفكر مليا ، ثم قال لنفسه :

– يحسن بى ألا أطردها !

وأضاف :

– لقد بقيت معى حتى الآن عاما كاملا .. وبضعة شهور ، صحيح أنها لا زالت تتردد على ذلك الرجل بين حين وآخر .. ولكنها كانت طيبة معى دائما ! !

وانبعث صوت من أعماقه :

– أنت وعدتها بالزواج بعد أن أجريت لها عملية الاجهاض منذ شهرين ، ويتعين عليك ألا تنسى هذا !

وانقطعت تلك الزغاريد الشيقة عن الصداح ، وصاح فى قاع نفسه :

– لقد قلت لها منذ قليل أننى لا أستطيع أن أفعل ذلك ،

أنا لن أتزوج فتاة تتردد على أماكن القذارة مثل «شعرانه» !!

– ولكنك دفعت للطبيب خمسة وثمانين جنيها من أجل أن يقتل ابنها .. أليس كذلك ؟

– لن أفعل أبدا .. كيف أتزوج فتاة كل عالمها المبهج مجرد سرير فى أى مكان ! !

واذ تحركت خطواته صوب البيت ركله الصوت بعنف قائلا :

– أنت مخلوق فريد فى نوعك .. معاند .. ابن زنا مثل بغل ! !

لكنه لم يهتم بذلك ، حتى اذا اقترب من الباب تناهت اليه شهقات الفتاة من الداخل .. ، وتسمرت قدماه هناك ، فيما أحس بشىء يعصر قلبه .. ، وداهمه حزن مفاجىء الى حد أطرق فيه رأسه مغمض العينين .. وردد الصوت فحيحه :

– لقد تمزقت أحذيتك خلفها ، حتى عرفك كل الناس فى طريق مدرستها من قبل !

ودلف الى الداخل ..

ووجدها منكورة فوق المقعد مثل أرنب مذعور .. وبينما كانت تنتفض ، اقترب منها واضعا كفه على كتفها قائلا :

- كفى بكاء .. أنا لم أقصد شيئا مما قلت ! !

وطرف باصبعه دمعة متخمة تكاد تنهار من فوق جفنه ، واذ واصلت عويلها المنقطع احتضنها بذراعيه معا ودفن رأسه فى عنقها وشعرها .. حتى هدأت تماما .

ورافقها الى البيت ..

كان حزنه القاهر من أجلها قد دفعه الى أن يعدها مرة أخرى بالزواج .. ، ولكن حين عاد الى غرفته تلك الليلة طفق يتمزق بحدة .. ويصفع نفسه بكلمات حادة .. ويبكى .. ويبكى حتى يزرق قلبه .

كان يشعر أن الفخ قد بدأ يعض على قدميه من جديد .. وما كان قادرا على أن يفعل أيما شىء ! !

● ●

٩ نوفمبر ١٩٦٨

● ●

الوجه الطيب القديم

فلمن تغنى الساحرات ؟
والبحر مات ..
والعشب فوق جبينه يطفو وتطفو ذبيوات
كانت لنا فيها ، اذا غنى المغنى ، ذكريات !
« البياتى »

كان الحى منتعشا دائما ..

وكانت تعشش فى ميدانه الصغير شجرة الورد ، ناشرة أغصانها الرفيعة عبر احدى الزوايا ، فيما تستلقى أوراق كرمة العنب من فوق ذلك السطح .. وتكاد تملأ جبين الجدار بالبقع المخضرة .

كان هناك عنقود خجول يطل مع اطلالة شهر يوليو على الميدان .. ولقد تعود الصبية أن ينتظروا عتمته ، وأن يتسلقوا الجدار بطريقة ما ، وينزعوه من بين الأوراق !

كان السكان يربون السلاحف من أجل اطالة العمر !

على حين تبـاع الزبدة واللبن ، والصفصفة •• وبضعة أشياء أخرى على الرصيف ، وتظل الحمير تنهق فى الجانب الآخر ، وتنتظر بعـد ما أنزلت عنها قـرب اللبن ، ودنـان الزبـدة •

كنت أجلس هناك باتصال مع حزمة من الرفاق الجيـدين •• وكنا نعد الشاى طول المساء ، ونحـكى •• ونحـكى بلا انقطاع ، ودونما ملل !

انه ليس فى وسع أحد أن ينسى هذا أبدا •

واذ تعدو احدى النساء وسط الميدان خلف الدجاجتين لتعيدهما الى البيت •• بينما يركن العجوز فى دكانه لاعداد « المصير » ذى النكهة العجيبة ـ العجوز المقوس الظهر ، المنهوك ، الذى داست كنفيه مائة سنة ـ يظل فى امكانك أن تسمع الجزار يقسم بالطلاق كالعادة لأحد المشترين بأنه يبيع بالخسارة •• ثم يخرج له طرف لسانه عندما يذهب ، حتى يقفز أنفه قليلا الى أعلى •• ويضحك البقال على الفور وينظر الينـا متعجبا ، ثم يهز رأسه برتابة !

لم نكن نملك سوى بضعة قروش •• ولكننا لم نشـعر بالفقر قط •• وكنا نقوم بعدة رحلات الى الباكور وطلميثة ••

ونستدين قبلئذ كل ما نحتاجه من باعة الحى بلا أدنى حرج !

وفيما تتطاول الظلال عبر الميدان .. ويزحف الظلام على جدار السماء ، ويغمر الدكاكين بخيوط الضوء الواهنة التى تنثها المصابيح العتيقة .. ويشرع الصبية فى اصطياد الخفافيش المحلقة بنزق خلال الحى ، ويزعقون بنداء موحد . ويقذفون بقبعاتهم خلفها ..

عندئذ ، نتسلل الى أحد بيوت الأصدقاء .. ونعد عشاء هناك ، ونلعب الورق .. ونحكى عن الأفلام .. وذكريات « بازامه » !

كان الحى منتعشا دائما .. وكان مرآى شجرة الورد .. وأوراق العنب .. والسلاحف السارحة أمام البيوت .. والخضروات والضوء .. والصبية المدهشين .. كل ذلك كان يغمر قلب المرء بالبهجة والرضاء .

كنا ندخل كل بيت فى الحى .. وكنا نعرف جميع سكانه ولقد مرت ذات يوم امرأة متلفعة بعباءتها أمام دكان الجزار الذى كان يحكى مع صديق له ، وما أن اقتربت منه حتى قال بصوت متذمر مرتفع :

— تصور أن « فلان » استدان منى منذ أيام أربعة كيلوات

من اللحم ، وحملها مع سلة خضار الى تلك العاهرة دون أن يفكر مطلقا فى تسديد المبلغ حتى الآن ؟

واتنفضت المرأة على نحو فورى •• وبدت عينها من خلال العباءة أكثر حدة من عين نسر ، ذلك أن الجزار يتحدث عن زوجها ! ! ولقد رجعت بعد ساعتين حاملة أثاث البيت على عربة كارو ، معتقدة أن زوجها يخونها فعلا ••

وانتشرت الحكاية عبر السوق •• وأغرقت كل السكان فى الضحك •• وقام الجزار باعادة المرأة بنفسه الى زوجها بعد يومين فقط ! !

انه ليس فى وسعك أن تنسى ذلك ••

كما ليس ثمة من يستطيع أن ينسى رحيل أحد الأصدقاء للعمل بمعسكرات التنقيب عن البترول فى جوف الصحراء لقد رحل فجأة •• ثم تبعه آخر ، وأحسسنا تجاههما بالفقد ، والكآبة ، الى حد أنفقنا كل الوقت فى تذكرهما وتصور مدى تعبهما هناك •

وأصبحت أوراق العنب بنية غامقة •• ثم أكلت الشمس لونها حينما ترك البقال دكانه ، وطفق يشتغل مع أحد المتعهدين •• فيما هدم دكان الخضار •• ودكان العجوز •• وبيت مجاور ، لتقام بعدئذ عمارة مفرطة الضخامة •

وضاعت بضعة سلاحف ..

ورحـل رفيق آخر الى الشمال للدراسة .. على حين هجرت عائلتان الحى عقب اعلان علاوة السكن .. وفر ذلك الصديق الى هلسنكى الى الأبد .. وتزوج الجزار ، ولم يعد يقسم بالطلاق .. ولكنه عندما يحتاج الى هذا يسير ثلاث خطوات متسعة فى اتجاه الجنوب ، ويقسم برب القبلة ثلاث مرات أيضا ، مشيرا باصبعه ــ كل مرة ــ فى نفس الاتجاه !

واجتثت شجرة الورد بعدما هـدم بيت العنب ، وشيدت عمارة أخرى .. ولم يعد يطلب الصبى شيئا بعدئذ سوى أن تمنحه قرشا ، أو يعقرك بكلمات مسرفة القبح والنتانة ! !

فكيف حدث ذلك ؟

أنا لا أدرى ، كل ما أعرفه أن أصدقائى قد رحلوا الى بقاع أخرى .. واننى لا أرى أحـدا منهم حين أجلس فى احدى زوايا الحى ، سوى أسراب العمال الغرباء الذين بدأوا يقطنون هناك .

وامتلأ درجى ببطاقات البريد التى يتذكرنى بها الرفاق عبر

المـدى •• وعبأت جيبى بالعناوين •• وتعلمت أن أعيش داخل حلم ملون طول الوقت •• وأنفض الذباب !

ليس ثمة ما أملكه غير حزمة عناوين شيقة •• وألف بطاقة بريد •• وأمل مجنح فى أن أغـزل جناحين ذات يوم فوق ظهرى ، وأكون قادرا ــ أنا أيضا ــ على الانطلاق خلف وجوه أصدقائى •

فهل لديك تذكرة ؟

حسنا ، لا تقل « لا » ودعنى أتخيل أننى أجلس الآن فى مقهى « أميركان اكسبريس » بأثينـا ، متطلعا الى الفضاء الرحب أمامى •• والعيون المشرقة •

دعنى أطر الى أقصى الشمال ، على حافة العالم بلا شىء أحمله معى مثل عصفور مهاجر •• وأتهالك أمام بيت هنالك ممتلئا بالحنين •• والتعب !

دعنى أزرع نفسى فى كرسى وحيد تحت شجرة عجـوز فى « كازينو النيـل » بالقاهرة •• وأنظر الى تجاعيد النيل المتألقة عبر شعاعات القمر ، والأشرعة المتخمة العملاقة •

دعنى أفعل ذلك ، بعد ما ضاعت كل السلاحف •• فأنا لم

أعد أملك شيئا سوى العناوين ، وبطاقات البريد ، والتطلع من ثغرة حلم معشب .

دعني أفعل ذلك ، بعد ما مات الحي .. وغمرت ميدانه الأتربة .. والعمال ، والأطفال ذوو العيون القاحلة .

بعد ما أصبح القلب مجرد ثمرة بلح فجة .. وبعد ما ظلت شفتاي ترددان بخفوت :

« فقـراء ، يا قسري ، نموت
وقطـارنا أبـدا يفـوت » !

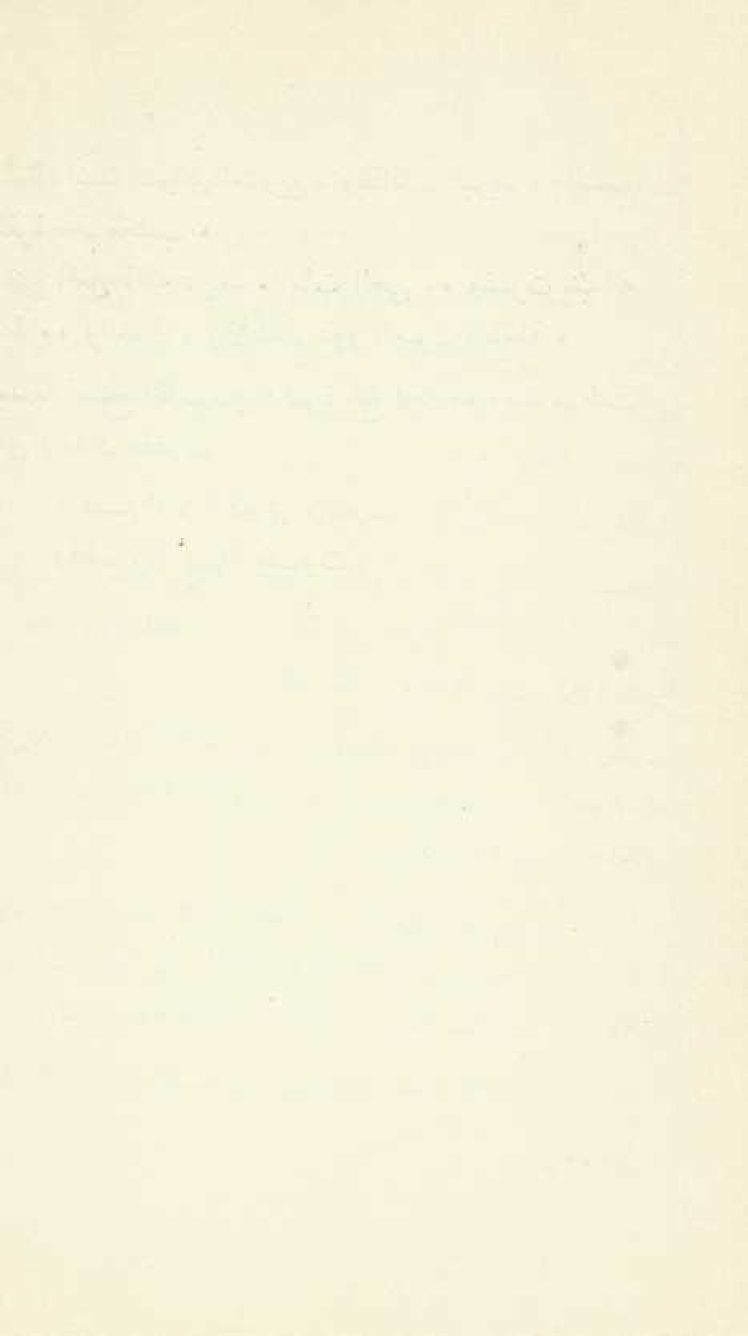
●

●

●

●

٢٠ يوليـه ١٩٦٨



الرجل الوحيد أبدًا

ماذا تعرف عن الجنوب ؟
عن تلك القطعة المقلقة بالرمال ، المجتثة
من قلب بلادنا على نحو ما ؟
ماذا تعرف عنها ؟

أنا عرفتك صغيرا .

كنت مجرد صبى أحمق يعدو عبر الشارع بقدمين حافيتين .. وقميص متسخ ، مسود الأكمام .. وأنف زاخر بالسوائل على الدوام .. وعينين متربصتين مثل فخين ! ! لم أكن أملك شيئا حينذاك سوى مقلاع .. وكيس من النوى .. وحزمة من الحباقات مثل كل الصبية فى شارعنا !

وجئت أنت الينا .

وسكنت مباشرة فى الدكان القريب من متجر البقال .

كنت زنجيا ، نحيلا الى حد مفرط .. وكانت عيناك

هادئتين هدوءا عجيبا .. وساقاك مثل ساقى طائر .

كنت قد جئت من الجنوب منذ أيام قليلة .. ولقد لمحناك فى اليوم التالى تجر تلك العربة الخشبية عبر الطرقات .. وتجمع النشارة والأعواد وقطع الاخشاب الصغيرة لتقذفها بالتـــالى فى جوف المخبز .

كنت حافيا أيضا .. وكان رأسك مطرقا دائما !

أنا أذكر ذلك جيدا .

ورغم أنك تسكن بمفردك هناك .. ولم تتحدث أو تسىء الى أحد قط ، الا أن البقال لم يدعك تلتقط أنفاسك دقيقة واحدة .. لم يدعك حتى تجفف قطرات عرقك فى دكانك الهرم ذى الباب المتشقق .. فقـــد كان يبتكر طول الوقت آلاف الالعـــاب السمجة لمناكدتك مثل أى شيطان معتوه !

وظل فى وسعى بعدئذ أن أسمع صوت النواة المنطلقة من المقلاع حين تقصف مؤخرة رأسك .. ولكننى لم أكن أدرك أنك تملك تلك القدرة الخارقة على الجرى . بيد أن البقال كان يتدخل دائما فى الوقت المناسب لينقذ أحد الصبية من بين يديك ، فيما يحاول أن يخنق ضحكته بجهد بالغ ! !

واذ ترجع الى دكانك ممتلئا بالحقد والغضب .. كان

يهمس لنـا بأن ننادى خلفك :

- بيـاع نـوه !

أنا لا أدرى على وجه الضبط ماذا يعنى هذا النـداء .. ولكنك كنت تفقد صوابك فجأة .. وتضع طرف قميصك بين أسنانك .. وتشرع فى العدو خلفنا من جديد !

وتختبىء خلف الرجال .. ويقـولون لك انك أبـله ، وان فى مقدورك أن تتغاضى عن حماقات الصغار .. ولكنى أعرف الآن تماما أن الميت نفسه لا يستطيع ذلك ، فلقد كدنا أن نفقس رأسك بالنوى .. وأن نحطم بابك بالأحجار .. وأتينا بكثير من جثث الكلاب والقطط النتنة من الخـربة المواجهة ، ورميناها أمام دكانك .. وسرقنا عربتك مرارا !!

ولم تعد عيناك هادئتين ..

لقد ظلت أهدابهما ترتعش باتصال .. وبقيت حبتا العنب تذرعان آفق عينيك بلا انقطاع عـبر تلفتات رأسك فى كل صوب .. فماذا فعلت لنـا ؟

لا شىء .. لا شىء على الاطلاق !

وأنا يا سيدى أشعر تجاهك بالخجل .. بالعار ، وبشىء حاد ينهش قلبى الى حـد أغلق فيه عينى عندما أتذكر ذلك اليـوم .

لقد لمحتك تجلس على « دكانة » المتوضأ أمام المسجد .

كنت تنتظر صلاة العصر .

ودعاني البقال اليه على الفور ، وأخبرني بما يجب أن أفعل .. وحين دخلت المتوضأ بعدئذ ، أوصدت الباب خلفي .. وملأت الجردل بالماء .. واعتليت به السلم حتى وضعته حيث يؤذن للصلاة عادة .

كنت متلهفا الى أقصى حد .

وكنت مبتهجا أيضا على نحو مدهش ، بحيث لم أجد صعوبة في رفع الجردل الى السطح .

وعلى أي حال ، فقد أدليت بعنقي قليلا الى أسفل .. ورأيتك جالسا هناك بهدوء كامل .. وأفرغت فوق رأسك كل الجردل ! !

وكان يجب أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ، لو لم يدلق لك ولد البقال عشاءك في نفس الليلة من فوق الكانون المتوهج أمام دكانك ، اذ اندفعت اليه من الداخل مثل زوبعة ، وصفعته ثلاث مرات قبل أن يصل والده اليك ، ويلكمك على فكك حتى تهاويت عند قدميه ! !

وحينما قبعت في دكانك بعدئذ ، جئت اليك على رؤوس

أصابعى ، مستندا على الجدار ، وظللت أرقبك عبر شقوق البـــاب .

وفيما كنت أتنفس من فمى لكى لا أشد انتباهك ، كان فى امكانى أن أراك تبكى بالداخل .. وأن أرى خيوط الدمع المستلقية على وجنتيك تعكس شعاعات المصباح المحتضر !!

كنت متكوما هناك مثل فأر مذعور ..

وكنت تنتفض بين حين وآخر .. ثم تسترسل فى بـــكاء صامت !

أنا أذكر ذلك جيدا ..

وأذكر أنك اختفيت فى اليوم التالى .. ولم يرك أحد بعد ذلك قط .. فالى أين رحلت ؟

— رجع الى بلاده !

هكذا قال البقال .

فيـــا سيدى ..

لقد زحفت فوق صـــدرى سنوات طويلة .. وكبرت ، وكدت أنساك كلية ، ولكن أتيـــح لى منذ بضعة أشهر أن أشـــاهد الأولاد يطاردون رجـــلا يشبهك تمـــاما ، يدعى « قنـــو » .

كان يزاول نفس مهنتك أيضا ، غير أن قلبه قد تقيح ..
ولم يعد فى وسعه أن يتحمل أكثر من هذا .. ، ولقد ذهب
الى البحر ذات يوم .. وأغرق نفسه هناك !

فما أوحش أن يظل المرء مطاردا .

وما أوحش أن يظل مبعدا! .. مهجورا فى قاع الجنوب .

فماذا تفعل الآن ؟

بعدما قذفك المقلاع الهائل بطريقة ما الى أقصى الجحيم
فى بلادنا ؟

ماذا تفعل الآن ؟

بعدما أكلت الرمال قلبك وعينيك عبر الرياح الجنوبية
الحاقدة الوافدة مثل وباء لعين ؟

ماذا تفعل الآن ؟

بعدما أدركت أن بنغازى ـ وكل مدن الشمال ـ مجرد
مكان زلق بالنسبة اليك مثل أعشاب شاطىء صخرى ؟

ماذا تفعل الآن ؟

تحت الشمس المحرقة القاتلة ، ماذا تفعل ؟

مـاذا .. مـاذا ؟ ؟

●　　　　●

١٣ يوليـه ١٩٦٨

ذكريات صديقنا الكبير

نحن فتحنا أعيننا عليك .

كنا مثل صغار القطط وكنت أنت أكبرنا جميعا .

وكان جرابك معبأ بألف شيء لم نعرفه بعد ! !

كان شارعنا مكتظا بالعجائز المتسوسين .. والأطفال الحفاة ذوى الأنوف المسودة أبدا .. وباعة البرسيم واللبن وعمال المرفأ القاطنين فى دكاكين كالعلب .. واليهود الذين يتاجرون بالربا .. والخمور ! !

كان شارعا عجيبا .

وحين انعتقت من بيتنا أول مرة ، وجدت كل الصبية متحلقين حولك بعيون مشدودة فى صمت شره .. ، وفتحت شقا بمنكبى .. وجلست هناك !

كنت تتحدث عن « ادجيم » ذى الزى الأسود ، والمسدسين الفضيين . والحصان الناصع البياض الذى يعرف كل شىء بالصفير .. ، وعن « الفرخة » التى « ماتت فيه » من أول نظرة حين قتل زعيم العصابة برصاصة بين عينيه ! !

كان حديثك مثيرا للغاية ..

ولقد مسحت وجوهنا بنظرة متكابرة حينذاك .. ثم شرعت تحكى :

- كان زعيم العصابة مجرما شرسا .. وكان يجيد الرماية أيضا ، ولقد جمع حوله كثيرا من القتلة المتحين ذوى النظرات الصارمة الوقحة .. ان فى امكان أى واحد منهم أن يغازل أية فتاة دون أن ينهره أحد .. وأن يسكر ويأكل بالمجان فى كل محال المدينة متى أراد ! !

حسنا .. وقد أصبح الزعيم أكثر السكان ثراء فى مدى بضعة أشهر عن طريق القمار .. والمزارع التى كان يغتصبها .

وتصمت قليلا لتنظر الى أفواهنا المفغورة فى ذهول .. وتحك أنفك وتستنشق الهواء بعمق ، ثم تواصل الحديث :

- .. ورحل العمدة الى المدينة المجاورة ، وقابل «ادجيم»

هناك .. وشكا له بكل شيء ، واذ عرض عليه وظيفة « الشريف » ، قبلها على الفور !

كان « ادجيم » أشهر انسان فى العالم !

وعندما جاء الى المدينة ، خرجت كل النساء يتفرجن عليه .. وتناقل المواطنون والقتلة المحترفون نبأ وصوله : حتى اذا دخل الحانة بمسدسيه المتراقصين ، تحرش به اثنان من العصابة فقتلهما فى الحال .. !

كنت ممتلئا بالحكايات !

وكنت تضطر أحيانا الى الزحف على يديك وركبتيك لكى تصور لنا كيف تسلل البطل الى الاسطبل تحت سحابة الرصاص حتى يفاجىء العدو المتربص خلف النافذة .. ؛ ويشرئب عنقك قليلا فى حركة استطلاعية حذرة .. وترفع يسراك عن الأرض بهدوء .. ثم تجذب شيئا ما من أعلى ساقك بسرعة خاطفة .. وتزعق :

– طاخ .. طاخ .

على حين تظل عيناك متسمرتين لبضع لحظات على نقطة معينة أمامك ، ويدك متصلبة فى شبه مسدس مثل فك الخروف ! !

ويغمرنا الجـذل •

ونصيح دون وعى ابتهاجا بانتصار البطل ، فاذا ما انفضت الجلسة ، عدنا الى بيوتنا بقـلوب مفعمة بالبطولة •• فيما يسير كل منا فى طريقه بذراعين منفوشين•• متخيلا اهتزازات المسدسين على جنبيه ! !

ومات « ادجيم » ذات يوم !

كان خبرا مفجعا للغـاية ، وقد اغتاله أحـد اللصوص برصاصة فى ظهره عندما أرادوا أن يسطوا على البنك !

لقد مـات حقا •

وكاد أن يخنقنا البكاء من أجله •• ، بينما طفحت عيناك بحزن هائل •• وأقسمت لنـا « بالربعة » أنك لن تدخـل سينما « ٩ أغسطس » بعد الآن !

وتثاءب شارعنا فى ملل عدة أيام وأقحلت أعماقنا تعطشا الى حكاية جديدة •• غير أنك كنت تلوح متجهما ، كالح الوجه ، حتى أننا لم نستطع أن نحلب من شفتيك أية قصة مثـيرة ! !

أنا أذكر ذلك جيدا •

كما أذكر أنك جلست بجانبنـا على الرصيف بعـد فترة

الحداد ، وطلبت من أحدنا « لا أذكره الآن » أن يشترى لك أربع سجاير « اسبريا » كالعادة ، وما أن أشعلت أحدها ، وسحبت نفسا عميقا ، وحككت أنفك ، حتى بدأت تحكى عن بطل مذهل آخر يدعى « ارسين لوبين » ! !

كان يخبىء مسدسه الصامت داخل معطفه دائما .. وكان له ألف اسم .. وكانت عيناه ذكيتين متيقظتين على الدوام !

– حتى وهو نائم تظل احدى عينيه مفتوحة مثل الثعلب !!

كذلك كنت تقول ..

وكان فى وسعه أيضاً أن يكتشف كل الفخاخ قبل أن تشها قدمه .. وأن يسحق أى مجرم مثلما تسحق باصبعك بقة على الجدار ! !

كان بطلا خارقا ..

ولقد أصبح الأمر أكثر اثارة عندما طفقت تحكى لنا عن مغامر آخر يسمى « شارلوك هولمز » مملىء بالحيل .. والجرأة .. والمصائد ، وعن الصدام الممتع الذى كان يحدث أحيانا بينه وبين اللص الظريف ! !

ونسينا « ادجيم » تماما !

نسينا حصانه الذى مات بعده من الهزال .. ومسدسيه

اللذين أكلهما الصــدأ •• ومهمازه النحاسى البراق الذى ضاع فى مكان ما ! !

نسينا كل ذلك ، وأصبحنا متعلقين بالبطلين الجــديدين القادرين ، قدرة عجيبة ، على قيادة السيارات بسرعة مجنونة •• والهروب من سجون العصابات بيسر بالغ •• ومراوغة الموت الى حد محير ! !

وذهبنا الى المدرسة ••

ومارسنا سرقة افطار أبنــاء الأغنيــاء والتهامه أمامهم وأخــذ الأساتذة يقرأون لنــا حكايات الثعلب والبستان ، والقرود وبائع الطرابيش وعاشــق الذهب ، وسرحان بين الغيط والبيت ، وسعاد ودجاجها ، وعدة قصص أخرى •• ولكننى عندما أتيتــك ذات يوم ، وتلوت عليك قصــيدة

« لا تخافى •• »

« نحن رجال المطافىء » !

طلبت منى بامتعاض شديد أن أصمت فورا ، وقلت لى أن هذه الكلمات السخيفة لا تسحر أحدا سوى « عملة » العاهرة ! !

ولم يعــد أى منا ليستطيع أن يحدثك عن المدرسة ، بل

ظللنا نهرب منها كلما سنحت الفرصة لنأتى الى خيمتك الصغيرة المنتفخة أبدا على شاطىء « الشابى » فى أيام الصيف ! !

لقد تعلمنا منك الكثير ..

تعلمنا أن نحك رؤوسنا عندما يمر أى قسيس ، حتى لا نصاب بالصلع ، وتعلمنا أن نقول « عمى الدجاج » حين لا نريد أن يرانا أحد ما .

وأن نضع فحمة ونصف قرش وحبات شعير فى صرة صغيرة ، حين يصيبنا مرض العين المعروف ، ثم نرميها فى عرض الطريق .. وأن نبصق على قدمنا حين تتخدر لكى تصحو من جديد .. كما تعلمنا أن نفشل كل مساعى الآخرين بمجرد أن نقول : « شمبروخ يهودى فاطس » ! !

لقد تعلمنا الكثير حقا !

ولكنك أصبحت أخيرا تحدثنا عن فرارك الى مصر بدون جواز سفر .. وتهريب البضائع فيما أنشأت تتاجر بالسجاير المسروقة من مخازن الجنود الانجليز .. والمفرقعات التى تستعمل فى صيد السمك .. والمسدسات القديمة .. والرصاص ! !

وامتــلأنا اعجابا بك مثلما امتــلأنا بالحقد تجاه الرجال الآخرين الضعفاء الذين لا يعرفون شيئا على الاطلاق ، بينما يتسترون خلف بدلهم الأنيقة ، وأربطة العنق مثل الكلاب !

كنت زربا دائمــا ..

ولقد فتحت لنــا بيتك الآخر المهجور الذى كنت تنوى تشييده من جديد ، وعلمتنا هناك كيف تتجرع كأسنا دفعة واحدة دون أن نغمض أعيننا .

كان ذلك مؤلمــا فى البداية .

ولكننا أخذنا نخنق سعالنا فى جوفنا عقب كل جــرعة ، ونحرص على أن تبدو حركاتنا متزنة أمامك .. وحــديثنا أيضا ، على حين لم تسأم قط من سرد حكايا مشاجراتك مع السكارى فى الحــانات الوضــيعة .. والأعــراس .. والرحلات الفاسقة !

وامتلأنا اعجابا ببطولاتك !

ثم انطلقنا نرتاد أقبية المدينة بمخزون هائل من المعرفة.. والحقد ، وشربنا كفايتنا من كل شىء ، حتى بدا العالم أمام أعيننا ضبابيا حالكا .. وسرقنا سيارات الآخرين فى أعقاب الليل ، ونقود اليهودية المخبأة تحت السجادة .. وتشاجرنا مع رواد الحانات .. وتشوهت وجوهنا .. وامتلأت قلوبنا

بالندوب .. وطاردنا رجال الشرطة فى الدروب المعتمة .. وهشموا أضلاعنا فى غرف التوقيف الكريهة الرطبة .. وأقفلت أبواب الأعراس فى وجوهنا .. وضمنا قفص المحكمة عدة مرات .. ثم اكتشفنا فوق حد المقصلة أننا مجرد كلاب مسعورة ، معبأة بالحمق والتفاهة .. وأن كل ما تعلمناه كان حزمة ذكريات مخجلة .. وغرورا أجوف مثل أصداء طبل ضخم !

وكبرنا .. كبرنا قليلا !

ولم تعد أحلامك البطولية تكفينا لغزو العالم .. واعدام القتلة المحترفين ، والتخلص من المرض عن طريق الفحمة .. وحبات الشعير ، فلقد بصقنا قلبنا القديم فى لهب النار دون وداع .. وتعلمنا أن نبصر الى قرص الشمس الوهاج دون أن نغلق أعيننا لحظة واحدة ! !

وفيما بدأت تدلق حكايات جديدة عن الحرب .. و « رومل » الشجاع الماكر .. والسياسة ، امتلأ قلبنا مللا

على الفـور .. وانطلق بعضنا الى أقصى الشمال لاتمـام دراستهم .. وهجر البعض الآخر شارعنا الى الأبد .

فماذا تفعل الآن ؟

يا صديقنا العجوز ، ماذا تفعل الآن بعد أن رحل الجميع .. وانقرض كل الصغار ؟

٧ ديسمبر ١٩٦٨

ممنوع دخول الأطفال

لم تكن تحسن شيئا سوى البـكاء ..

وكانت عيناك الشاحبتان أبدا مثـل غيمتين متخمتـين بالدموع .. ولقد ظللت تصرخ بحدة منذ أن زرعتك تلك القابلة الملعونة فى أرض الله عـبر التأوهات .. والنواح .. والعـرق !

كنت مجرد طفل سىء الحظ منذ البداية ..

اذ ما أن تسربت من عمرك سنة واحدة ، حتى ثقبوا أذنك ووضعوا لك فيها خيطا لبضعة أيام ، ثم أسالوا فوقها قطرات من الزيت ، وجذبوا الخيط فجأة حتى ظلت أذنك تقطر دما .

وأنشأت تصرخ .. وتصرخ .

ولكنهم قالوا ان الصراخ سيفيدك كثيرا لأنه سيوسع لك « مصرانك » ، فيما البسوا أذنك حلقة ذهبية بدل الخيط ، وجعلوك تلوح مثل أى قرصان !

كان ثمة ألف وسيلة لديهم للوقاية من « العين » ، والحسد والموت .. ولقد حفروا لك فى ذقنك وشمتين صغيرتين بعدئذ .. ودفعوك الى الشارع مثل أحد الجراء ، وبدأت تعرف مدى حدة أظافر الأطفال الآخرين .. وأسنانهم وأدركت على نحو ما أن عالمك الصغير ممتلىء بالعداء والعويل .. والصعاليك !

وواجهت يوما آخر ..

كانوا قد ألبسوك قميصا أبيض طويلا .. وعقدا كريه الرائحة الى حد مقزز ، واكتظ بيتكم بالنساء والأولاد وسحابات الشواء والضجيج ، على حين تجمع الرجال فى المربوعة .. وعرفت تلقائيا أن ثمة شيئا عدائيا قاهرا سيفجر رئتيك بالصراخ ، وفيما كانوا يجرونك الى حجرة الرجال حيث يقبع ذلك الحلاق الذى سيختنك ، مررت بوالدتك وهى تبكى فى السقيفة واضعة قدميها وسوارها فى الصفيحة المعبأة بالماء !!

كان الحلاق يبتسم لك ببلاهة .. ولقد بدا مفرط السمنة حتى أن عينيه كادتا أن تتواريا خلف تورم وجنتيه .. بينما طرح عند قدميه طبقا من الرمل .. واستلقت بحذائه حقيبته الجلدية المسودة من اثر العرق .. وعدل جلسته كأنه يتأهب

للأكل .. وأخرج ذلك المقص الصدىء ناشرا خنصره بعيدا عن بقية أصابعه .. واذ أوثقك والدك بطريقة ما ، بعدما رفع قميصك الى أعلى وشرعت تعول .. أشار لك الحلاق الى الطائر المعشعش فى سقف الغرفة .. ثم سمعت على نحو فجائى قضمة المقص الحادة !

وأنشأت تصرخ .. وتصرخ حتى أسود وجهك .. وبات فى وسع أخيك أن يسرق نقودك عبر صياح النساء وزغاريدهن المتفجرة .

وكبرت قليلا ..

وتعلمت أنت أيضا كيف تمزق أوجه الصغار بأظافرك .. ولكنك كنت ترجع الى البيت باكيا كل مرة .. ويضربك والدك على الفور ، ويقول لك انك شيطان ، وأن الله سيشنقك مثلما فعل بتلك الزنجية فى قرص القمر .

– هل تراها ؟ لقد شنقها الله هناك لأنها مسحت مؤخرة طفلها بكسرة خبز !

كذلك كان يقول لك .

وكرهت القمر .

ولم يعد ثمة ما يمكن عمله تجاهك سوى أن يحملك والدك الى ذلك الفقيه للتخلص من مشقتك .

ولقد ظللت تصرخ لديه كل يوم دون أن تعلق فى ذهنك كلمة واحدة .. وبح صوتك وتمزقت قدماك من « الفلقة » وواصلت الصراخ ، والبكاء حتى بدا لك الفقيه مثل الحلاق تماما ! !

كانوا يضربونك فى البيت والشارع والجامع .. ولم تستطع أن تنام ليلة واحدة دون أن تحلم بالغيلان .. والصل المتربص آخر الليل فى المسجد .. والجن القابع فى البالوعة .. والبحر الذى « ياخذ رقبة » كل عام .. والعفاريت السارحة عبر كل الأماكن الخربة ! !

وزحفت بضع سنين ..

وقرر والدك العجوز أن يغسل ذنوبه بماء زمزم .. ، وقبل سفره بقليل انقلب البيت الغاص بألف امرأة الى مأتم غامق الحزن ، وطفقت والدتك تبكى .. واخواتك .. وأقاربك جميعا .. وأنت أيضا .

عويل .. عويل متصل !

ولقد رجع كل الحجاج ،ولكن والدك أغرقته ذنوبه هنالك ، ولم يأت اليكم مرة أخرى كما كان يفعل . وتحول البيت الى مأتم حقيقى .. ووضع ذلك الصندوق الضخم فى ساحته ، وشرعت النساء فى تحطيمه بالعصى عبر الصراخ..

والكلمات القـاتمة المسرفة الشؤم واللعنة ، فيما أخـذت أخواتك يذرين الرماد فوق رؤوسهن الى حد أصبحت فيه سماء البيت موغلة العتمة .

ورأيت كيف يجذب النواح النساء الأخريات من آنوفهن مثـل فراشات حمقاوات . وكيف يفجرن عند عتبـة البيت صرخات مفجعة حتى تكاد أن تنشق السماء .

وأقبل الليـل .

وظل فى مقدورك أن تتطلع الى تلك الزنجيـة المعلقة فى قعر القمر .. وأن تشتم أبخرة اللحم المطبوخ .. ورائحة الرز .. والعرق ، وأن تسمع العويل !

□■□

وخطت سنوات أخرى .. وتثاءبت الأيام فى قاع قلبـك حتى التهب الألم على جبينك .. وتعلمت أن تفر الى تلك الحانة الموبوءة فى كل مرة .. ولكن لم يكن فى امكان أية زجاجة من أى نوع أن تنسيك أحزانك الخالدة ، والبحـر الذى يأكل انسانا كل عام ، فما أن تدلق فى جوفك بضعة كؤوس صاعقة حتى تنهمر الزنجية بدموع ميتة .. ويخنقك البكاء الى حد تتمنى فيه لو أن الله لم يخلق تلك القابلة قط .

وعلى أى حال ، فقد قررت ـ عبر احدى لحظات يأسك

ـ أن تتزوج .. أن تمد هذا العالم الباكى بأكبر عدد ممكن من الأنوف المحمرة الصغيرة .

وأقيم « الفـرح » ! !

واختنق البيت بالنساء والأطفال كالعـادة .. وتعـالى الصياح والضجيج ، فيما انفرد الرجال في بيت آخر مع آلاف العقد .. والجذور المتآكلة .. والزجاجات .. والدخان .. والأغانى الرخيصة ؛ ولاح أن كل رجل هناك مبتهج تمـاما مثل ابتهاج القطط فى ليالى يوليو .. ثم احمرت العيـون وانطلقت الكلمات الشـائكة عبر ضوضاء السـكارى .. وانفلت الشجار مثل نهر هائل المـد .. ومرقت الزجاجات الخاطفة ، وسالت الدماء بتدفق وحرارة .

وبكت الزنجية من جديد بدموع ميتة ! !

□■□

وحفرت قلبك سـنوات أخرى ..

وتركت آثار أقدامها على جبينك وشعر رأسك .. وبدأ السأم يمتص شرايينك بلا انقطاع الى حد يلوح فيه وجهك مصفرا مجعدا مثل خيارة قديمة .

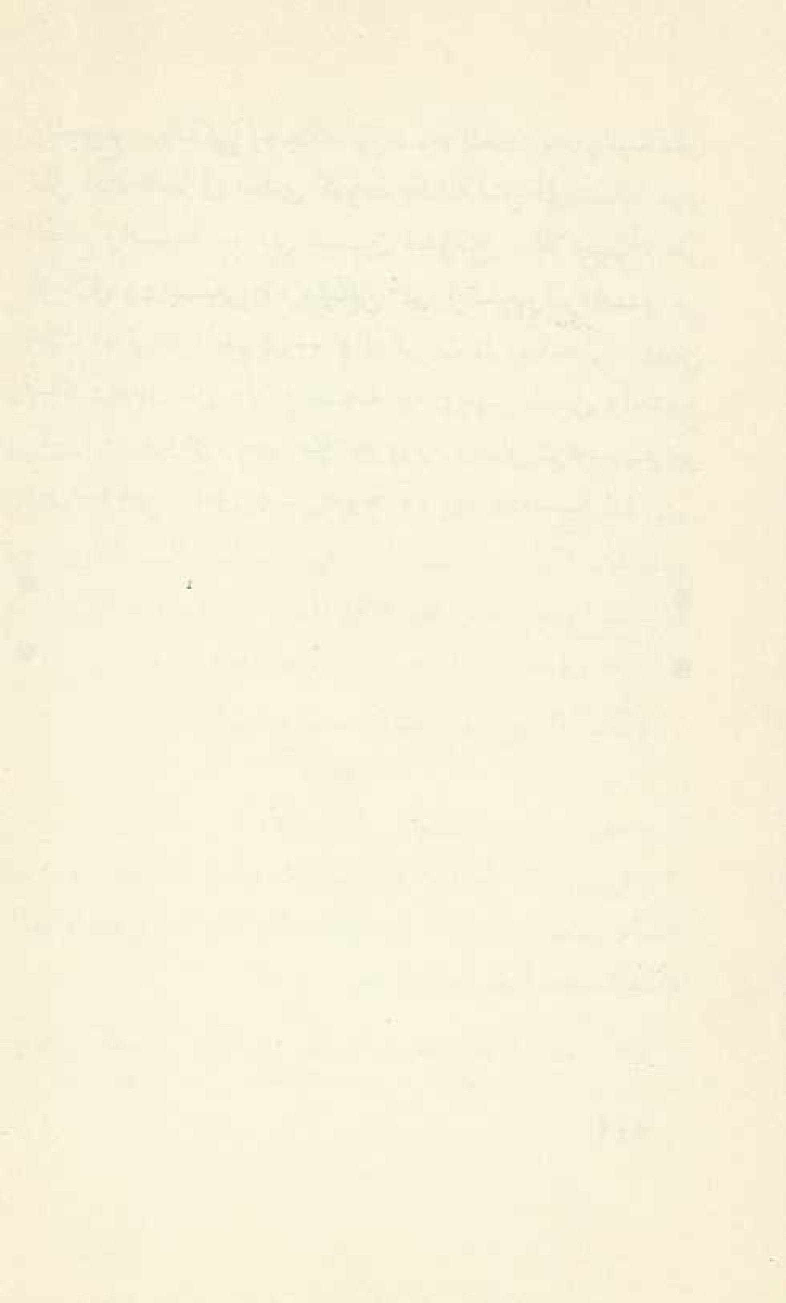
واذ يبكى أطفالك طول الوقت من أظافر الصبية الآخرين

والجوع ، وتبكى زوجتك من سوء الحظ .. والوحدة ، تظل أنت قابعا فى احدى كهوف جليانة مثل أى سكير سيء الطالع والسمعة .. ذى عينين مجوفتين ، بلا حياة على الاطلاق ، وتبكى .. وتبكى أنت أيضا طوال الليل من خلال أغاني « العلم » .. والذكريات الرديئة حتى يتغضن قلبك ويغدو مثل بالونة مستصة .. وينهش السل والتبغ رئتيك .. ويأكل البحر جثة أخرى .. وتهطل الزنجية ــ عبر خيوط القمر البللورية ــ دموعا .. دموعا ميتة ! !

● ●

٢٧ يوليه ١٩٦٨

● ●



سنوات العمر الصدئة

« ان أطول رحلة ..
هى الرحلة الى الداخل » .

أصدقائى ..

طفولتى رديئة ..

أكثر رداءة مما يتصور خيال بشرى ، فماذا تنتظرون منى الآن ؟

لا شىء .. لا شىء على الاطلاق !

فأنا لم أكن قادرا على أن أبدو ولدا صالحا ، اذ كانت قدماى تنزلقان بيسر بالغ الى ارتكاب أفظع الحماقات بلا انقطاع ، حتى يلتوى أنف الشيطان امتعاضا ؛ وتقطر أطراف أصابعه بالعرق !

ولقد تمنيت عبر انكساراتى الحادة ، لو أن الله مسخنى

قملة ، وزرعني في ابط أحد الرعاة .. ولكن ذلك لم يحدث قط ، ولعله حدث الآن بصورة جزئية .

وعلى أية حال ، فليس ثمة ما يقال عني سوى أنني كنت صبيا تعسا على أحسن الفروض ، وأعتقد أننا كنا جميعا كذلك ، وفيما ظل أهلي يرسمون أيامي القادمة بطريقة سوية ، كنت أنطلق عبر الشارع ، لأقف عند المنحنى تماما ، مترقبا بائع الخضار ريثما يترك الدكان لصلاة العصر ،عندئذ كنت أمد يدي لأسرق رمانة ، وأفر بها الى الساحة الخربة ، على أنني كنت أواجه دائما شعورا بالخيبة عندما كنت أكتشف عبر نظراتي الشرهة أن الرمانة غير ناضجة .. وكان يتعين علي الاستعاضة عنها بشيء آخر لا يقبل الشك .

وقد بدا صندوق التفاح مغريا للغاية !

طفولتي عجيبة ! !

وكان يكفي أن أدل الآخرين على الكنز الواقع عند المنحنى حتى أغدو رئيسا على حزمة من اللصوص الصغار ، ولكن عقلي كان مثل حبة الحمص ، اذ لم أفكر في أن الأمر سيفتضح في النهاية ، وأن ولدا ملعونا سيهمس للخضار بكل الحكاية من أجل قطعتي حلوى !

وكان نهارا غائما عندما خرج أبي من المسجد ، وقال

شيئا ما للخضار ، ثم تترنى من ذراعى ، فيما كنت جالسا على المصطبة المواجهة للجامع مع بقيــة الصبية ، وصفعنى بعنف حتى ارتميت على الأرض .

انه عمل مسرف القسوة أن تكذب على الآخرين بزهــو متكابر ، ثم يقوم أحد ما بصفعك أمامهم .

ولقد نهضت على نحــو مباشر ، وطفقت أذرع الطريق صارخا بحثا عن حجر ، بينما كنت أقذف الخضار بكلمات وقحة .. الا أن والدى أدركنى على الفور ، وقام بشــدى الى شباك النافذة بالبيت ، وانهال على ضربا بحبل البئر .

وبقيت هناك مصلوبا متألمــا الى أن قدمت جدتى وفكت وثاقى ، فيما كنت أتخيــل نورجا هائــلا يمزق جسد ذلك الخضار !

كانت جدتي عجوزا ودودة ، ضئيلة الجسم ، ذات عينين صافيتين .. وكانت تحمل فى رأسها كل الحكايا والخرافات، ولقد ظلت طيلة الليــل تمسح جروحى بالزيت والكافور ، وعبر أطياف الضوء المنهمر من السراج ، شرعت تغزل احدى الحكايات :

كان ثمة رجل ثرى ، لديه حقول متخمة بالغلال .. ولديه

أبقار وأغنام كثيرة .. وسبعة أولاد ، وبنت وسيمة ، طيبة جـدا .

وكان أبناؤه يقومون بحرث الأرض ، والرعى ، والحصاد .. وكل الأشياء الرائعة الأخرى .. والله وحده يعرف مدى العرق الذى أهرقوه فوق تربة ذلك السهل .

واذ ماتت أمهم فى احدى ليـالى الخريف ، أخذت الاخت بعدئذ تعد لهم كل احتياجاتهم .. هل قلت لك انها فتـاة طيبـة ؟

حسنا ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بحدث سيىء لهذه الأسرة ، ولكن الزمن قاهر مثل مصيدة حادة ، اذ أن الوالد تعلق فجأة بامرأة ذات وجه مثل اسفنجة ثم تزوجها فى الحال .

كانت ساحرة مجدورة الوجه ، متكبرة ، رافعة أنفها الى أعـلى .. وكانت تحـاول أن تبـدو فاتنـة بقـدر جهدها ، ولكنها ظلت تحطم مرآة كل يوم ، وظل قلبها طافحا بالحقد على نحو موصول ، ولقد حرصت منذ الأيام الأولى على ابعاد الأولاد ، غير أن الأب انتهرها بفظاظة .. ثم طفق يمسد شعرها !

هل قلت لك انها ساحرة ؟

حسنا ، وبعد أسبوعين تماما وضعت لهم مسحوقا رماديا فى افطارهم ، وفيما بدأوا يأكلون كان فى امكان الوالد ـ فى الغرفة المجاورة ـ أن يسمع اصطفاق الأجنحة خلال البيت كله !

كان الأولاد قد أصبحوا طيورا شديدة البياض مثل النوارس ! !

ولقد عبروا الحقل ، ورحلوا صوب النهر ، بينما شرعت الفتاة تعدو خلفهم بذعر بالغ .. وكان بصرها معلقا على مدى الأفق ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ فقد حدث لهم مثلما وقع فى حكاية القنفذ والبومة .. هل أخبرتك عنها من قبل ؟

حسنا ، وكان ذلك عملا محزنا ، مدمرا للروح .. ولم يبق ثمة عزاء للأخت الطيبة سوى أن الطيور ـ عندما تغرق الشمس خلف التلال الغربية ـ كانت تحط على ضفة النهر ـ عند ركبتى الفتاة ـ ثم تغطس مرة واحدة فى الماء لترجع للأخوة هيأتهم السابقة .. ولكن ما أن تنهض الشمس فى اليوم التالى حتى يحتضن الشفق الأحمر سبعة طيور كئيبة .

طفولتى عجيبة ! !

وكنت أنام دائما قبل أن تنتهى الخرافة ، مستغرقا فى حلم دافىء عن القبرات المتوجة ، والزرازير الممتلئة الصدر ،

وأسراب السنونو المباركة التي تهاجر أبدا الى الحجاز •
ولكنني لم أشاهد النوارس قط !

ولقد أفقت ذات صباح ، وطلبت منى والدتي كالعادة أن ألعب فى الخارج ، وقبل أن أصل الباب ، عرجت على قن الدجاج وسرقت ثلاث بيضات ، اشتريت بثمنها فخا جيدا ، ثم ذهبت مع صبيين آخرين الى الخربة ، وطفقنا ننبش الفضلات بحثا عن ذلك الدود المتخم ، ذى اللون البللورى ، والذيل المدبب ، الذى كنا ندعوه « جمار » ، وعندما ملأنا علبة صغيرة ، انتزعنا فى طريقنا قبضة سبيب من ذيل حصان ، وتوجهنا فورا الى المقبرة •

ولقد وجدت كثيرا من الدود هناك ، الا أننى لم أصد طائرا واحدا ، وبدلا من ذلك تشاجرت مع أحد الصبيين ، ومزق وجهى بأظافره ، فيما فر الآخر يشكونى لأخى الكبير ، الذى لمحته حين عودتى واقفا أمام الباب ، غارزا يديه فى جنبيه مثل مقص مفتوح •

وكان أن جرنى الى الداخل ، وربط وسطى بحبل الجردل ثم أنزلنى فى « الماجن » قائلا لى أن الثعبان سيقرض أقدامى فى القاع مثلما يلتهم بقية الديدان ، ولقد تعرضت بجسدى طويلا فى الفوهة الضيقة ، ولكنه دفعنى الى أسفل وبدأت

أتدلى فى بطء قاتل عبر الظلمة الغامقة المفرطة البرودة ، وكانت أصداء صراخى تتحطم فوق الجدران الصلدة الرطبة على نحو صاخب مثل أجراس الكنائس .

وحينما لامست قدماى الماء ، أخذت أخوض مرتجفا فوق طبقة الطمى اللزجة الى جهة أقل عمقا حتى وقفت فى الزاوية خائفا مقرورا مثل فأر مبتل .. وأبكى بمرارة .

وما حدث بعد ذلك ، كان أسوأ ما فى الأمر ، اذ بدأت أحلم بالثعابين والغيلان باتصال وأعول فى سريرى ، ولم يعد ثمة ما يمكن عمله حيالى سوى أن تحملنى جدتى الى ذلك الفقيه القابع تحت الأقواس عند « الفندق » ليكتب لى حجابا !

كان صعلوكا مزريا قد قدم من أقصى الغرب ، وكان فمه عريضا ، وعيناه زرقاوين ناتئتين ، ووجهه نحيلا مصفرا مثل أبى بريص ، ولقد شعرت على الفور بالاستياء ، وتركت جدتى بجانبه ، متوجها الى الجانب الآخر حيث يتحلق بضعة رجال .. وشرعت أرقب لعبة الثلاث ورقات ! !

طفولتى عجيبة ! !

وكانت ملابسى رثة متسخة أبدا ، وأنفى مليئا بالسوائل ،

وقدماى حافيتين على الدوام . وكان فى وسعى آن أجعل الآخرين يشكون منى طوال الوقت ، اذ كان لسانى حادا مثل سن خذروفى .. وسليطا أيضا ، وكنت أترصد للرجال النازحين من مكان ما ، الذين يقطنون الحوانيت متطلعا الى عشائهم فوق الموقد ريثما يستوى أمام الدكان ، ثم أقذفه بالأحجار ، ولقد أفرغت جهدى فى حماقة من نوع آخر ، عندما ظللت أبتر آذان الكلاب فى أيام الأحد ـ لكى لاتعرف أحدا ـ وقد عقرنى أحدها ذات مرة اذ لم يكن طرف الزجاج قاطعا بما فيه الكفاية . على أن أيسر المتع كانت أن أقوم بتغيير علامات أرغفة الخبز ، لأعود بعد قليل وأجد الخباز غارقا فى دوامة محيرة ، فاقدا صوابه الى حد مفزع !

أصدقائى ..

كنت أفعل كل هذا ببساطة مطلقة ، ولا أذكر كم كان عمرى حينذاك على وجه الضبط ، ولكن ما أذكره هو أننى لم أشعر بالحب تجاه أى من البشر .. والمخلوقات الأخرى ، كما لم أشعر بأى ميل لأداء عمل نبيل .. فماذا تنتظرون منى الآن ؟ لا شىء ، لا شىء على الاطلاق !

ولقد اهتدى والدى الى قرار مفاجىء ..

كان قد اقتادنى الى الجامع لحفظ القرآن ـ هكذا قال

لى ــ ولكنه أخبر الفقيه ، عندما قدمنى اليه ، أننى « جن مرسل » ، وانه يجب ترويضى بطريقة ما ، ونظر الفقيه فى عينى مباشرة ، ثم ضحك بترفع ساخر ، وطلب أن أجلس بجانبه ، ولقد سقط بصره على قدمى القذرتين ، وطرقنى عليهما بالعصا ، ثم أمرنى أن أذهب لغسلهما فى المتوضأ .. ولكننى لم أرجع !

وعلى أية حال ، فلم يلح لى ذلك الفقيه ألوفا منذ اللحظة الأولى ، وان كان علمنى القراءة والكتابة ، فقد جعلنى أدرك أيضا مدى فائدة قدميك حينما لا تكونان متسلختين .. وكانوا يقولون لى ازاء ذلك ان عصا الفقيه من الجنة ، ولكننى لم أحب الجنة قط ، ولم أقابل ــ طيلة حياتى القصيرة المليئة بالمتاعب ــ انسانا عدائيا مثل ذلك الفقيه ، غير أن هذا لم يمنعنى من مزاولة لعبتى البدائية فى الجامع كل يوم ، اذ كنت أتصيد الذباب المتطاير برتابة مملة عبر صياح الأولاد المتواصل ، وما أن أقتنص واحدة حتى أستل سلكا من قميصى أو دكتى لأربط به وسطها أمام العتبة فى الشمس وأظل أرقبها أثناء تلاوتى بتركيز هائل حتى تموت .. ويصدر الفقيه أمرا بتسريحنا على الفور !

ولقد كانت أمتع الأوقات عندما يضطر الفقيه للذهاب

فى احدى الجنائز ــ وكثيرا ما كان يفعل ــ ويضع بدلا منه ذلك الرجل الضرير بقية اليوم •

كان فقيها أعمى ، مقوس الأنف ، وكان لا يأتلى يلبس نظارات سوداء ، وما أن يجلس على النطع الوثير حتى يستغرقه النعاس •• وتبدأ المروحة فى الهبوط من يده على نحو متدرج ، فيما تنزلق نظارته الى طرف أنفه ، متشبثة بأذنيه الكبيرتين مثل رغيفى تنور •• ولا أدرى لماذا كنت أتخيل النظارات عندئذ مثل رجل يمتطى جوادا بريا ، ولكنه لم يؤذنا قط •• وكان يدعنا نذهب مبكرين •

ولقد مكثت فى ذلك المكان طويلا ، ولكننى لم أفلح أبدا فى حفظ أى شىء بصورة متكاملة •• وكنت أواجه احساسا مربكا عندما يتضح لى أننى نسيت ما استوعبته بالأمس •• غير أننى ، على الأقل ، لم أنس الكتابة ، وقد أثبت ذلك آلاف المرات على جدران الشارع ، اذ كنت أكتب بقطعة فحم كثيرا من الكلمات السيئة المخجلة عن بعض الأولاد الذين كان يهزهم الغضب لرؤيتها ، ويشرعون فى طمسها مباشرة •

ولقد أورطنى هذا فى مشاجرات شائكة ، ولم يعد هناك طريقة أخرى سوى أن أعتلى كتف أحد ما ، وأكتب نفس الكلمات فى موضع مرتفع ، ولكن المطر المنهمر بغزارة كان

يتولى ــ هذه المرة ــ محوها أمام نظراتى المهزومة .

طفولتى عجيبــة ..

واشتروا لى حذاء طويل العنق ذات يوم ، وأعطونى قرشا وكراسة وقلما ، وحقيبة معدنية كانت لأحــد الجنود أثناء الحرب الماضية ، ووضعونى فى المدرسة .

ولقــد كرهت ذلك المبنى العتيق ، وأطفاله الصغار منذ البــداية ، وتمنيت طول الوقت لو أن الله خلق كل الأيام جمعا ، على أننى فى الواقع أحببت موعد الافطار حين كنت أجوب فناء المدرسة المكتظ ، وأستجدى الأولاد حتى يكاد يخنقهم البكاء لكى أنال نصيبا من افطارهم ، محتفظا فى ذات الوقت بالقرش لشراء أربع سجاير « اسبيريا » .. أو لشراء مقلاع لاصطياد الطيور ، ومصباح الشارع !

أصــدقائى ..

طفولتى رديئــة ! !

أكثر رداءة ممــا يتصور خيال بشرى .

وأنا التصق الآن بكوكبكم مثل قرادة ، وليس ثمة ماأفعله غير أن أتنهد أيامى مثل أحد الدببة فى مبيته الشتوى ، ريثما يقذفنى الله الى قاع الجحيم .. فماذا تنتظرون منى الآن ؟

لا شيء .. لا شيء على الاطلاق .

فأنا أحس باختناق رهيب ، كأنني معلق داخل مدخنـــه ، وأدور بامتعاض حول نفسي مثـــل كرسي الحلاق ، وليس لدي ما أمنحه لأحـــد ، اذ لا يزال المـــطر يمحـــو الكلمات السوداء الكريهة مثل الخنافس ، المستلقية بعري فاضح على الجدران ؛ فيما تنتظر تلك الفتاة الودودة طيورها الســـبعة عبر السهل المجـــدب ، وشعاعات الغروب المتـــكسرة فوق صفحة النهر .

١٠ أغـــطس ١٩٦٨

عندما أنهى الاسكندر الاكبر كل فتوحاته
وقف على حافة العالم ليتساءل فى ملل :

ماذا بعد ذلك ؟

أنا أجيد النوم .. أجيده تماما !

وأستطيع أن أنام يومين كاملين دون انقطاع مثل ميت ، وأتشاجر معك على الفور اذا أيقظتنى فى اليوم الثانى .

كذلك كنت دائما ..

ولكننى لم أنم ليـلة البارحة قط ، وأسوأ ما فى الأمر أننى لا أدرى لمـاذا ، اذ ليس ثمة سبب لدى يؤرقنى على هـذا النحو ..

وعلى أى حال ، فقـد ظل بصرى معلقـا بالسقف طول الوقت ، مفكرا فى كل الأشياء السمجة التى لاتعلق الا برأس مخلوق فج !

وحين طال أرقى ، فكرت فى احتمال لو أننى أموت غدا ،

على ناصية الطريق الساعة الخامسة مساء على وجه الضبط .
وأمام حشد هائل من البشر .

وشعرت بحزن غامر . وقلت لنفسى ، اننى ما ان جئت الى هذا العالم حتى مت فجأة مثل عطسة . وكاد أن يخنقنى البكاء - أقسم لك - ثم بدا الأمر مدهشا حين استعرضت جنازتى المهيبة .. ودموع الأصدقاء .. وكلمات الرثاء حول القبر المفعمة بالأخطاء والكذب .. وابتهاج رئيس مصلحتنا بموتى ! !

فهل تصورت مرة أنك ستموت غدا ؟ !

وأن جسدك المتكامل سوف تنخره الخنافس ، وألف أبى بريص وغد .. فيما تنهش الديدان حبتى عينيك .. وأجفانك كذلك ، ثم تصير شبحا ملعونا فى النهاية .. ويرصدونك بسمار ؟

ان الأمر يلوح مقرفا .. مقززا الى أبعد حد . فهل تصورت مرة أنك ستموت ؟

أنا فعلت ذلك ، ولكن حظى كان جيدا اذ لم أمت فى اليوم التالى ، بل ذهبت مباشرة الى المصيف .

كان البحر ساكنا لا يجعده غضن واحد .. وكانت الأمواج الصبيانية الودودة تلعق أقدام الشاطىء .. فيما

استلقت الشمس الجليلة باتساع السماء كلها ، على حين ظل أحد الرجال يقوم بحركات رياضية ، مستعرضا جسده البغل بالقرب من المرأة المتمددة على الرمال ، التى لم تفكر — على ما يبدو — فى أن تقع فى حبه !

كنت متهيبا من النزول الى الماء .. ، وجلست هناك وحيدا أرقب البحر على مدى البصر مثل ربان ينظر الى سفينته التى تغرق ، ثم بدأت ذكرياتى العتيقة تذرع خاطرى .

أنا أسير الآن فى شارع « الألفى » بالقاهرة ، حتى اذا وصلت ميدان « عرابى » لمحت فتاة فاتنة بدكان الحلاق الذى هناك .. ودخلت على نحو فورى لأحلق .

كانت الجدران مغطاة بالمرايا ..

ولقد جلست بجانب الرجال المنتظرين ، محاولا اختلاس النظر الى الفتاة الجالسة خلف مكتبها .. والتى كانت تستلم النقود من الذين تم حلقهم .

— أنت يا سيدتى أكثر فتنة مما يتصور خيال مجنح !

هكذا قلت فى ذات نفسى ثم انغمست فى حلم وردى دافىء الى أن دعانى الحلاق اليه .

كنت أود أن أتطلع الى عينيها المبهجتين باستغراق كامل .. ولقد حاولت .. حاولت ذلك ألف مرة ، ولكن الحلاقين

والرجال المنتظرين يملأون المرايا ، وقد خشيت أن يلاحظوا نظراتي الشرهة .. وبقيت متحسرا .

ـ لماذا كل هذه المرايا يا سيدتي ؟ .. لماذا ؟

كذلك تساءلت في نفسي ..

وحين دفعت لها نقودي ، احتوتها عيناي معا .. ان النظر اليها يغمر قلبك جذلا ـ أقسم لك ـ ولكني أدركت حين خرجت أنني تركت عينيها البهيجتين خلفي .. وهتفت بمرارة :

ـ المرايا .. المرايا !

فهل تهيبت مرة النزول الى الماء ؟

أنا فعلت ذلك .. ، وقد سرت ذات ليلة تحت المطر . كنت عائدا الى بيتي « بسوق الحشيش » آخر الليل .. كنت مقرورا مثل طائر مبتل . كانت السماء دامسة .. وكانت بقع الضوء الممتلئة بالثقوب ، التي ترسلها المصابيح الضبابية، تغرق الطريق .. ولقد خرجت الضفادع التي استثارها المطر من السبخة ، وشرعت تعبر الطريق ، فيما ظلت العربات تفقسها هناك .. تسحقها باطراد .. وتغمر ملابسي برذاذ الماء المتطاير .

انه ليس في وسع أحد ـ أقسم لك ـ أن يسير مطرق

الرأس فى طريق مكتظ بالضفادع الميتة دون أن يطفح قلبه بالحزن والذعر .. ان الأمر يبدو كما لو انك تعيش فى مقبرة .. كما لو انك أدركت أن الله قد تخلى عنك فجأة فى أسوأ الظروف ! !

واندفع الماء تحت قدمى .

كانت الريح قد هبت من الشمال .. وكبرت الأمواج قليلا ، وتدافعت صوب الشاطىء ولقد زحفت الى الوراء لكى لا أكون فى متناولها .. ثم تسللت أصابعى فوق جرح قديم بذراعى .. وتذكرت ذلك الشجار .

كانت الحانة غارقة فى الصخب .. والدخان .

والله وحده يعلم كيف بدأ ذلك القتال .. ولكنى أعرف أن قبضتى قد تسلختا .. وأننى ضربت بزجاجتين بكل ما تحوى كل قلوب البشر من حقد .. وتكسرت احداهما على جبينى .. وسالت دمائى بحرارة .. ثم اقتدت مثل جرو هزيل الى تلك الحجرة المظلمة .

وحين فتحت عينى فى صباح اليوم التالى ، كان فى امكانى أن أقرأ لعنات السكارى المحفورة على الجدران .. والنافذة الضيقة جدا .. والباب الحديدى الثقيل ،

والحارس المنتصب هناك مثل سندياتة ، الذى أنشأ ينظر الى عبر القضبان باستياء وتذمر كما تنظر أمك الى حذاء مقلوب!!

وتحسست جروحى •• وأحسست بانكسار مفجع •

- أنا مجرد مسمار غائب الى قبعته فى تابوت !

هكذا كنت أردد لنفسى باتصال •

فهل تهيبت مرة النزول الى المـاء ؟

أنا فعلت ذلك كثيرا من قبل •• وذات يوم وقفت مرتعشا على الشاطىء •• ثم أولجت بالسبابتين بصقتين فى أذنى ، وقذفت بنفسى مغمض العينين الى البحر •

كان الأمر مبهجا فى البداية •

ولكن حين خرجت طفقت أرتعد •• أرتعد مثـل ساق الذرة فى وجه الريح !

وتعالى الزعيق خلفى •

والتفت فى الحال ، ووجدت بعض الصبية يلعبون الـكرة هناك •• ، ولكنى استأنفت تطلعى بعدئذ الى البحر على مد العين •• والى تنوءات المـاء المتوهجة الى حد تؤذى البصر على صفحة البحر •• وطاف ذهنى بالأماكن المضيئة الدائمة الخضرة :

شارع « امسـتل » بامستردام •• وملهى « الجوهرة »

بحى « بلاك » فى أثينـــا •• والنـــافورة العمـــلاقة بميدان « شنكوى شنتو » فى روما •• ومحطات القطار البالغـــة الضجيج على طـــول الطريق •• ومشاهد الوداع واللقـــاء المؤثرة والـــكنائس الوقورة عـــبر كل دروب مالطـــا •• وحديقة « ميرى لاند » بمصر الجـــديدة •• ونهـــر الراين العظيم •• والانعتـــاق من الأنفـــاق الطويلة المعتمـــة •• وقمم «الألب» المستلئة جلالا وروعة •• ثم أخيرا تلك الرحلة العجيبة الى « الباكور » •

كنا نتسامر داخل الخيمة ، ولقد حاول أحد الرفاق تـــلق ذلك الجبل عند الظهيرة ، ولكنه لم يستطع •• لقـــد شعر بالاجهاد ، ولم يعد فى امكانه أن يرتقى خطوة أخرى •

كنت الـــكزه بكلمات ساخرة تلك الليـــلة حتى ثـــار فى وجهى :

– أنت نفسك لن تستطيع صعوده •

هكذا صاح مشيرا بسبابته تجاهى بحدة •

– أنا أستطيع أن أفعل ذلك الآن •• فى الظلام !

أجبته بصفاقة •

– كذب ، وحق القرآن ، هذا كله كذب ! !

ـ هل تراهن ؟

ـ أراهنك بعنقى !

وفيما شرعت أربط حذائى ، كان فى وسعى أن ألاحظ ارتعاشات أصابعى •• وتيبس حلقى •• ومشاعر الفزع التى بدأت تجتاحنى ، ثم شعرت بارتياح كبير حين حاول منعى صديق ثان ، ولكن الآخرين أخذوا يتحمسون للمحاولة ، وأطفأوا آخر أمل تشبثت به •• الا أنهم سمحوا لى أن أحمل معى مصباحا صغيرا على أى حال •

وبدأت أنحدر من الهضبة الى سفح الجبل ، وأنشأ المصباح ينتفض فى يدى على اثر خطواتى المتعثرة حتى وصلت الى ذلك الدغل ، وخرجت منه بجهد مفرط بعدما تمزق قميصى • وطفقت أصعد الجبل •

كان الأمر مثيرا للغاية ••

ولكن شفتى قد جفتا تماما •• ولقد ظللت العقهما بلا انقطاع ، فيما كنت أرتقى على نحو أفقى بحثا عن مسلك أقل تعبا •

كنت أضطر الى الزحف فى بعض الأحيان •• وكان الجو ماتعا رغم أن القمر بدا مغروزا فى السماء مثل قلامة ظفر على حين ابتعدت نداءات الأصدقاء لى أمام الخيمة ، قليلا ••

قليلا .. وأخذت تصلني واهنة ، أكثر وهنا فى كل مرة وكانت القمة لا تزال بعيدة .. وواصلت صعودى حتى أصبحت يداى مثل شريحتى لحم من اثر الأشواك والأحجار الحادة .. فيما بقى قلبى يخفق بعنف .. وغمرنى العرق .

– سوف أشعر بالابتهاج بعدئذ .

هكذا كنت أمنى نفسى ..

ولكن حين وقفت على قمة الجبل المفرطة الشموخ ، لم أجد شيئا سوى الريح المسعورة الباردة .. الريح .. الريح لا غير .

– حسنا ، وماذا بعد ذلك ؟ !

وكان على أن ألوح لهم بالمصباح من هناك ، بيد أننى لم أشعر بأى ميل لذلك .. ثم جف العرق على جسدى .. وأحسست بالصقيع ينخر عظامى .

كان القمر مغروزا فى جبين السماء مثل قلامة ظفر .

ولقد شعرت بالدوار .. وسقط المصباح من يدى فتهشمت زجاجته .. وانطفأ .. وبات على أن أتحسس طريقى الى السفح كعكاز .. ثم انتابنى اعياء قاهر ، فاستندت الى ساق شجرة ، وبقيت مطرق الرأس ، مفعما بالأسى مثل الطائر « مالك الحزين » ! !

•• فهل تهيبت مرة النزول الى المـاء ؟

وهل تخيلت أنك ستموت غـدا ؟ ؟

أنا فعلت كل ذلك •• ولقـد أنفقت طول الوقت أرقب سفينتى وهى تغرق •• واننى لأشعر الآن ـ اذ أجلس على الشاطىء ـ بأننى مجرد مسمار غائب الى قبعته فى تابوت !!

•• فماذا بعد ذلك ؟

ماذا بعـد ذلك ؟ ؟

●

٢٥ مـايو ١٩٦٨

●

تذكرني هناك

تقول لك والدتك العجوز :

- أنت لست كباقى الرجال .. انك لن تكون مثلهم قط . الرجال المتخمين بالنقـود .. والكبرياء .. والملابس الثمينة والذهب ، اتفو .. انك لن تكون مثلهم أبدا وستموت جوعا ذات يوم على الرصيف دون أن يكون لديك ما تشترى به كسرة خبز .. اتفو ، انك ستموت عاريا مثلما خلقك الله .. وسيشحذ لك الناس كفنا لكى تقابل به وجه ربك غدا .. آه يا عارى !

وتشيح بوجهها عنـك فى ازدراء ، وتلعق بطرف لسانها فقاعات الزبد الصغيرة الطافرة على زاويتى فمها ، ثم تمسح بكفها شفتيها النديتين ، وفيما تلتقط بقية أنفاسها فى تأهب ،

تلتفت اليك .. وتقول :

– أنظر الى جارنا (سعيد) لقد بدأ يشتغل بعدك بسنين،ومع هذا فقد شيد منزلين واشترى قطعة أرض واسعة .. وتزوج مرتين .. وأنت ماذا فعلت ؟ لا شيء .. لا شيء يا عديم الهمة .. لا شيء سوى أن تنفق معظم الليالي في القراءة مثل فقيه معتوه. آه لو كنت تكتب حتى مثل فقيه لأصبحت الآن أكثر الناس ثراء .. ولتزاحمت كل العجائز أمام دارك كل يوم ، لكنك عديم الهمة .. فماذا أقول لجاراتي عنك ؟ اتفو .

وتلوي عنقها ناحية الجدار .. وقبل أن تنفلت كلماتها النارية من جديد ، وقبل أن تنفجر دمامل قلبك ، تسحب قدميك المخذولتين .. وتخرج من هناك مطرق الرأس كأنك قد وضعت كل آمالك في تابوت .

وتجلس على عتبة البيت متطلعا الى أكواخ الصفيح المقامة على طول جدار المقبرة المهجورة المواجهة .. وعلى نحو مباشر يتسمر بصرك عند ذلك الكوخ الصدىء ، الذي تعلو سقفه بضعة أخشاب متهرئة ، وحصر عتيقة ، وهيكل دراجة قديم ، وبضعة أشياء أخرى لم تعد تستعمل .

كنت دائما تتطلع الى هناك .

وتـظل تنتظر ريثما تسمع صرير البـاب .. وتنفتق الفرجة عن تلك الفتـاة اللطيفة الطيبة ، ذات الوجه المشرق مثل القمر .. انها تسد عنقها كالعادة خارج الباب . وترمى نظرتين سريعتين على طول الشـارع ، ثم تجذب رأسها الى الداخل حين تلمح احد المـارة .. وتصخب اصطفاقة الباب دون أن توفق الى أن ترسل اليها حتى مجرد اشارة .

ويعود بصرك منكسرا .

وفيما يعلو نباح الكلاب الوحشية عبر المقبرة .. وتختفى الشمس خلف الأفق الشاحب ، تظل ترنو الى الشارع الملىء بالترع المتخمرة .. والدجاجات السارحة هنـاك بمناقيرها المتسخة .. والصبية الذين يعدون خلف بعضهم فوق جدار المقبرة المتآكل .. والعجائز اللاتى يردن المـاء من الحنفية العـامة المنتصبة فى أقصى طابور الاكواخ .. والعـابرين المتطلعين باختلاس خلال سيرهم الى كل الشقوق فى واجهات الأكواخ .

انك تظل ترنو الى كل ذلك .

واذ تشرع فى الرد على تحيات العجائز المارات من أمامك تنفذ بصرك المارق بين حين وآخر صوب ذلك الكوخ .. وتنطفىء دمامل قلبك قليلا .. قليلا ، وتبقى ترقب أن يبزغ

ذلك الوجه المبهج بابتسامته الشيقة من خلال الباب الصدىء على حين تبدأ أحلامك الخضراء فى رفع غطاء التابوت •• لكنما العجائز والمارة لا يدعونك تظفر بنظرة آخرى الى تلك الفتاة •• وفيما يقبل والدك الى البيت ؛ يطالبك بأن تدخل لكى يتحدث معك •

انه يحاصرك فى زاوية الغرفة •• ويشرع فى القاء كلماته المحنطة مثل واعظ أحمق •• ويرسل نفسا طويلا دافئا من قاع قلبه ؛ ثم يقول لك :

— أنت موظف كبير •• وأمثالك تحصلوا على علاوة السكن •• وبعثات دراسية وهمية ، ولجان طبية •• وعلاوة بدل المبيت •• وأراض ومساكن حكومية • ومراكز فخمة•• وسلطة ، بينما تقبع أنت وحدك هنا مثل ميت ، فضيحة •• فضيحة ، انك ستستيقظ ذات يوم وستكتشف بأنك قد أنفقت كل حياتك تبيع الريح للمراكب •• هل تدرك هذا ، تبيع الريح للمراكب ؟

ويكتسى جبينه بتجاعيد جادة وينظر فى عينيك طويلا ؛ ثم يطالبك بأن تكتب طلبا ملحا للبنك العقارى فورا •

وتخفض رأسك فوق قلبك الحزين •• وتوافق فى كلمات متلعثمة باردة ، لا تدرى كيف مرقت من بين مفصلة شفتيك

.. انك توافق كالعادة دون أن تفعل أى شىء من ذلك ، فيما يظل مرأى وجه تلك الفتاة الطيبة يذرع خاطرك من خلال باب الكوخ الصدىء ، عابرا الشارع المليء بالترع المتخثرة ، والدجاجات السارحة ذات المناقير المتسخة .. والعجائز اللاتى تحمل كل واحدة صفيحة ماء عتيقة بكتف متطاول .. والصبية التعساء .. وجدار المقبرة المتآكل .. والكلاب الوحشية الضالة .. والمارة الفضوليين ذوى النوايا السيئة .

– نظرة واحدة يا صديقتى .. نظرة واحدة فقط ، انها ستمسح كل الغضون المحفورة على جدار قلبى .. وستجعل أعماقه غامرة بالزغاريد ، والحكايات الطريفة .. والتطلع الأخضر المتصل .. نظرة واحدة ، فأنا مجرد حجر ساقط فى قاع بئر سحيق .

كذلك تهتف فى ذات نفسك ، ثم تفتح كتابا ، وتشرع فى القراءة بتدفق عن «سنتياغو» العظيم فى « الشيخ والبحر » ، الى حد يدع الصرير ينبعث من بين فكيك ، ويجعل يديك تتكوران فى قبضتين عنيفتين ، فيما تقذف عيناك نظرة عناد صارمة .. وتكتب عن تلك الفتاة الطيبة .

وما أن تحفر بأظافرك أولى الكلمات ، حتى يأتيك جارك الفقيه قائلا :

ـ أنا أتيك فى موضوع مهم جدا •• اسمع يا سيدى ، هناك فقهاء معينون من قبل الجامعة الاسلامية للعمل بالمساجد ، ويتقاضون مرتبا يصل أحيانا الى مائة جنيه ، بينما يتقاضى بقية الفقهاء التابعين للأوقاف ثلاثين جنيها فقط • اننى أقوم بالآذان والصلاة ، وخطبة الجمعة ، ولا أستلم فى آخر الشهر سوى ثلاثين جنيها •• اسمع ، أنت ترى أننا نؤدى نفس العمل •• ويجب بالتالى أن نتساوى فى المرتب • أليس هذا معقولا ؟

وينظر اليك كأنه قد أوقعك فى مصيدة ، ثم يفتح عينيه فى اهتمام بالغ •• ويرفع سبابته نحو أنفك قائلا فى مودة :

ـ اسمع •• أريدك أن تكتب لى طلبا بهذا المعنى •• طلبا جيدا ، وأريدك أيضا أن تنشره فى الجريدة كخطاب مفتوح ، بينما أقدم أنا نسخة منه غدا الى المصلحة •

وتزفر تنهيدة طويلة •• ثم تقول له نصف مغلق العينين:

ـ أنا لا أملك جريدة •• أنا لا أملك أن أفعل لك أى شىء ، فلماذا لا تبحث عن عمل آخر ؟

وينظر اليك باستغراب كريه ويرفع حاجبيه الى أقصى جبينه ويقول :

ـ اتريدنى •• قل لى •• أتريدنى أن أترك خدمة الله ! ؟

وينضح قلبك حزنا حالكا •• وتهم أن تخبره بأنه لا يخدم أى أحد ، بما فى ذلك الله نفسه ، لكنك تخنق خفقات قلبك المثارة ، وتبدأ فى كتابة الطلب شاعرا بانسحاق رهيب ، على حين يرنو اليك الفقيه بنظرة انتصار •

واذ تفرغ من ذلك ، وترفع عينيك اليه ، يتهيأ لك أن وجه الفقيه قد اكتسى بالوشم الغامق وأصبح مثل وجه والدتك العجوز ! !

وتفر من البيت •

ولكن الى أين تمضى ؟

فالمدينة موصدة الأبواب أبدا •• ومليئة بالترع المتخمرة، والعجائز والمقابر والكلاب المتوحشة الضالة ، وليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس فيه ، وتحكى عن « سنتياغو » العظيم ، وصراعه مع الأقراش •• غير أن قدميك يقودانك أخيرا الى ذلك المقهى المتثائب ، وتجلس هناك •

وفيما توغل فى الابحار على جناح حلمك القديم حتى تصبح مثل قطرة فى المحيط كما فعل « سنتياغو » نفسه ، وتجتاحك مشاعر الوحدة •• والحنين الى الوجه المشرق عبر باب ذلك الكوخ الصدىء ، عندئذ يتوافد عليك الأصدقاء ، ويكونون حلقة صامتة فى البداية •• ثم يشرعون

فى اجـتـرار كلمات الملل على نحو قاتـل •• ويغرزون كل النعوت العارية القبيحة فى جبين المدينة الى حد يدفعك الى أن أن تخفى كل أحلامك فى تابوت !

ويعـلو الضـجيج ••

ويعرب أحدهم عن اشتياقه الى قطرة خمر •• بينما يرتفع صوت آخر :

– اننى مستعد أن أتركه تماما ، أقسم لكم ، لو لم تعد هناك أية زجاجة فى البلاد •• أقسم لكم ، ولكن أنتم تعرفون ماذا يحدث بالضبط !

– هذا صحيح •• أنا أيضا أشعر بالقهر حين لا أجد عشرة جنيهات لشراء زجاجة ، ثم يأتينى أحد ما فى اليوم التـالى ويشكو لى من صداع سكرة الليلة الماضية •• ان الأمر لم يعد يحتمل •

ويقول آخر :

– الحل الصحيح •• اسمعوا •• الحل الصحيح هو أن يعدم تماما أو يبـاح •

ويتطاول عنق صديق آخر وسط الحلقة ، ويقول :

– سمعت من مصدر أكيد •• سمعت انه سيصدر قرار باباحته بعد غد •

ويشيح أحدهم بوجهه عنه قائلا :

– تحلم الدجاجة .

وتظل ترقبهم فى صمت ، محرقا لفافاتك وأصابعك دون أن تدرى .. وتغيم عيناك الى أن تلتصق أهدابك الندية بعضها .. وترشف بقية الفنجان ، وتسحق عقب لفافتك تحت قدمك .. ثم تمسح وجوههم بنظرة اعتذار وتخرج .

– ولكن الى أين تمضى ؟

حسنا ، انك تجوب شوارع المدينة فى وحشة المساء الوافد مثل قصاصة ورق عبر الريح ، وفيما يتناهى الى سمعك عواء الكلاب من بعيد ، تظل قدماك تلعقان تراب الطريق دون هدى ، الى أن تجد نفسك أمام بيت أحد الأصدقاء .

وتطرق الباب ..

واذ تدلف الى الداخل ترى البقية متحلقة حول المائدة ، منهمكة فى لعب الورق ، بينما وضع كل واحد منهم نقوده أمامه ، واكتسى وجهه بغيمة حالكة .

انك تجلس هناك فى صمت كئيب .. متطلعا الى الغرفة الغامرة بالدخان .. والى لوحة « العشاء الأخير » المرسومة على السجادة المعلقة فوق الجدار ، على حين تلج أنفك رائحة احتراق منبعثة من قاع قلبك .

وتحتنق من هناك ..

.. ولكن الى أين تمضى ؟ فالمدينة موصدة الأبواب أبدا ومليئة بالترع المتخمرة والعجائز ، والمقابر والكلاب المتوحشة الضالة .. وليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس فيه وتحكى عن « سنتياغو » العظيم .

لكنك تعود الى بيتك ، وقبل أن تجتاز العتبة ، ترسل نظرة طويلة الى الكوخ الصدىء الغارق فى الظلام ، ثم تحتويك غرفتك الباردة الجدران .. وتنفق بقية الليل فى القراءة عن «هارى» ، الذى يموت عند سفح جبل « كيلمنجارو » دون أن يفارقه الحلم بتلك القمة الثلجية ، العريضة كالعالم برمته ، الهائلة ، السامقة الناصعة فى وجه الشمس الى حد لا يصدق !

ويستغرقك النوم فى النهاية مثل ميت تماما .

وتنهض فى صباح اليوم التالى ..

كنت تريد فى ذلك اليوم أن تودع صديقا مسافرا الى الشمال ، ولقد أوصلته حتى المطار ووقفت بجانبه هناك ممتلئا بشتى المشاعر القلقة ، فيما طفقت تذرع أعماقك سحابة حزن

فاتم بغير أن توفق الى أن تقول له كلمة واحدة رغم محاولاتك المليحة . كنت تريد أن تقول له :

- سوف أفتقدك كثيرا .

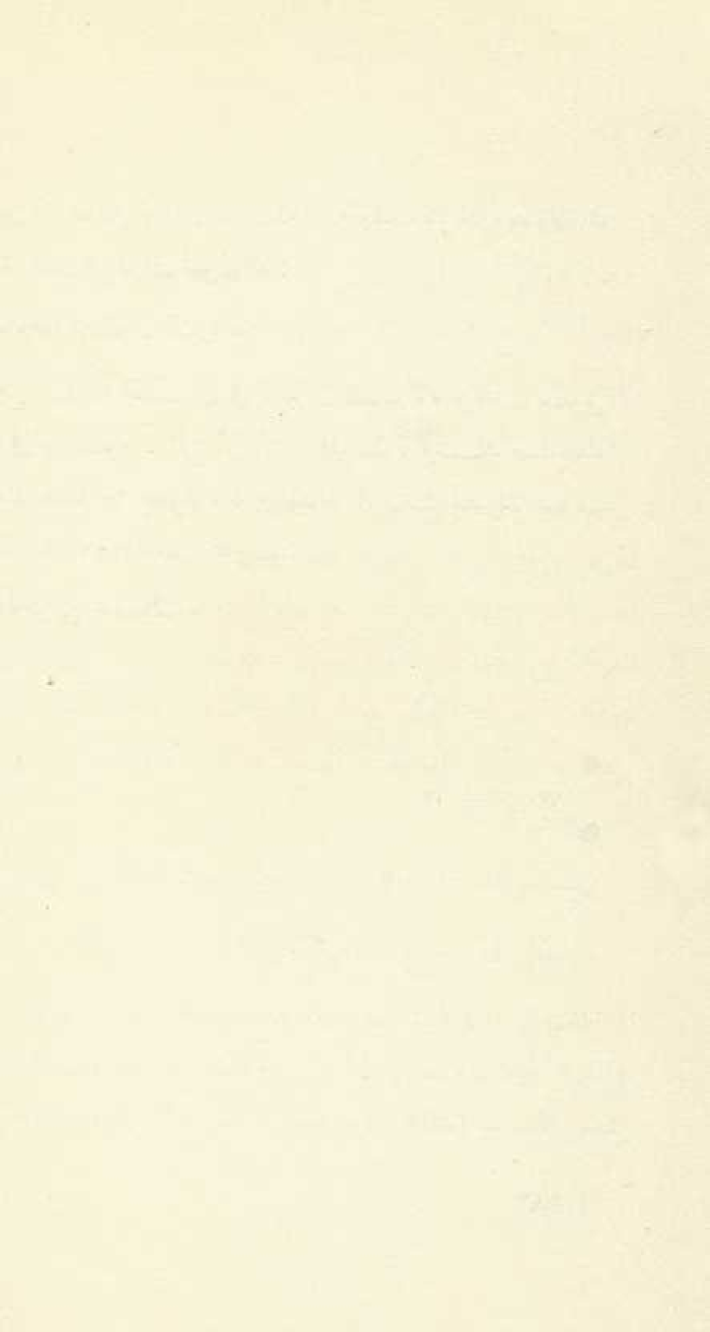
ولكن الكلمة احتبست فى تابوت قلبك .. وظللت مطرق الرأس فى وجــوم ، الى أن أزف الموعد ، وشــد صديقك على يدك مصافحا بحرارة ؛ وعندئذ أرسلت بصرك صوب عينيه قليــلا .. وقلت بخفوت :

- تذكرنى هنــاك .

●　　●

١٧ يناير ١٩٧٠

●　　●



الديك الأحمق

أنت مفلس الآن ..

أكثر افلاسا من فأر الجامع .. وقد أنفقت نقودك كلها فى اليومين الماضيين .. أنفقتها مع أصدقائك فى سهرة واحدة معبأة بالنكات والحكايات المعـادة .. ثم جلست تنتظر فى اليوم التالى ما يأتى به الغيب من نقود وهدايا ! !

كذلك كنت دائما .. ولم تستطع قط أن تشعر بالاحترام تجاه الآخرين الذين يحسنون الادخار ، لأنهم حزمة بخلاء . ولأن الموت وحده هو الذى سيجعلهم يدركون هذه الحقيقة والجحيم أيضا ! !

فماذا أقول لك ؟

حسنا ..

لقد استيقظت نهار الأمس عند الظهيرة .. كان رأسك مليئا بالأصداء مثل جردل تتقاذفه جدران البئر ، وكانت عيناك مثل جرحين تماما .. وكان سقف فمك قاحلا متيبسا للغاية .. وشفتاك كذلك !!

وفيما تقوس ظهرك بعدئذ فوق الحوض ، أولجت اصبعك فى حلقك ، وتقيأت كل نقود الليلة الماضية مغمض العينين .. ثم شعرت بانسحاق رهيب .. وكرهت نفسك كما لم تكره أحدا من قبل !!

وخرجت الى الشارع ، وظلت خيوط الشمس تنغرس فى عينيك على نحو مؤلم .. على حين أنشأت قدماك الواهنتان تلعقان الطريق حتى تهالكت على أحد المقاعد فى ذلك المقهى !!

كنت متهدما جدا ..

وقد أخذت تتهرب من عيون المارة خوفا أن يتعرف عليك أحدهم ، ويجلس معك .. اذ لم تكن تملك قرشا واحدا على الاطلاق .. ولم يكن لديك أية سيجارة .. أو أية رغبة فى الحديث مع أحد !!

وجاء المساء ..

وغرقت المدينة فى سحابة رمادية قاتمة .. وبدا رأسك

أكثر صفاء من قبل ، الى أن ذابت كل الأصداء وانقشع الأفق الأحمر عن عينيك .. وفيما جئت الى والدتك العجوز .. اشرأبت كل الحيل عبر أعناقك ، وطفقت تنتظر الاشارة !

وأعطيت الاشارة :

لقد نظفت حنجرتك بسعال خفيف .. وحككت رأسك بظفرين فقط .. وامتدت بضع تجاعيد فوق جبينك .. ثم سعلت لآخر مرة بصوت مرتفع .. وقلت للعجوز انك تريد سلفة ! !

وشهقت فى وجهك بعينين مشرعتين الى أقصى مدى .. ثم قوست سبابتها فوق حاجبها ؛ ناشرة أصابعها الأخرى الى أعلى .. وقالت باستنكار :

- وأين نقودك ؟ !

وقفزت احدى الحيل ، ولكن العجوز أقسمت برأس أخيك الكبير انها لا تملك سوى سبعة قروش .. ثم تشبثت بها حيلة أخرى حتى كادت أن تخنق أنفاسها .. وعندئذ بدأت العجوز تلقى موعظتها القديمة ! !

وابتسمت عيناك .

كنت تعرف دائما انك ستحصل منها على النقود كلما بدأت تدلق المواعظ .. ولكنها أطالت كثيرا .. كثيرا حتى

أحرق السأم قلبك •• اذ شرعت تعـدد لك الرجال الذين استطاعوا أن « ينسوا على أرواحهم » وأن « ينبتوا الريش » بينما ظللت أنت تشتغل طيلة عشر سنوات دون أن يكون لديك أى شيء •• حتى مجرد بدلة ! !

- أنت متـلاف •• وجيوبك بها خروق على الدوام •• وسوف تموت عاريا محترقا مثل عود الثقاب !

كذلك تقول العجوز •

وتدرع خاطرك ذكريات الفقر •• وطفولتك التعسة •• لقد كنت تخوض طول اليوم فى غـدران المطر بقدمين حافيتين ، حتى تصبح أصابعك شديدة البياض ، ممتلئة بالتجاعيد •• وكنت تلتقط هناك قشور البرتقال الطافية •• وتأكلها بنهم •• انك لم تكن تعرف القرش قط •

وحين بدأت تذهب الى المدرسة كنت تحمل معك صباح كل يوم كسرة خبز جافة ، حتى امتلأت جيوبك بالفتات المتيبس الشائك عبر الأيام •• وكنت تستجدى الآخرين فى بعض الأحيـان بنظرات محزنة من أجل أن يعطوك شيئا من افطارهم ، فيما يظل أنفك يلتهم روائح « الحرايسى والفاصوليا » المغرية •• على حين ينزلق لسانك ليدهن شفتيك حين تتطلع

الى أبخرة السحلب الدافئــة .. المتصاعدة كأى شيء فاتن خـــلاب ! !

وتثــور العجوز من جديد .. وتقول لك بحدة :

- أنت لا تسقى نفسك شربة مـاء !

ثم تغطس رأسها قليـــلا بين كتفيها .. وتنظر فى عينيك مباشرة بهدوء مفرط .. ثم ترفع حاجبيها فى اهتمام مؤثر ، وتقول لك :

- اعطنى خمسة جنيهات كل شهر .. وأنا أدخر لك !

ولكنك تنفض يدك بلا مبـالاة بعد أن تقتنص السلفة ، وتطلق من زاوية فمك صوتا يعـنى انك لا تهتم بذلك ، ثم ترفع رأسك باعتزاز .. وتقول حكمتك الفخمة :

- عش يوم ديك ولا عشرة دجاجة ! !

وتنحتق الى الطريق .. تاركا العجوز غارقة فى كلمـات الرثـاء .. والتحسر ! !

فماذا أقول لك ؟

حسنـــا ..

لقد رحلت ذات يوم ـ يا سيدى الديك ـ الى القاهرة وجعلت تنثر دراهمك فى الأسواق مثـل أى ثرى أحمق . وقالت لك تلك الفتاة انها تحبك حتى الجنون ، وبات فى

وسع أيما أحد أن يعتقد انك ديك حقيقى •• زاهى الألوان ممتلىء بالروعة والجلال ! !

ثم ضـاع جواز سفرك ••

ضاع فى اليوم الذى أردت فيه أن تعود الى بنغازى •• أعنى بعد أن تساقط كل ريشك الجذاب •• وذوى ، واسود عرفك الأحمر الجميل •• وبح صـوتك ، وتعين عليك أن تمكث هناك شهرا آخر ريثما تنتهى اجراءات منحك وثيقة سفر مؤقتة للعودة ! !

ومزق أحشاءك الجـوع ••

ولم يعد بائع السجاير والبيرة يدعوك بلقب أمير كما كان يفعل •• وكذلك البقال المجاور •• والمكوجى ، بينما اختفت فتاتك نهائيا دون أن تصاب بالجنون من حبك ! !

واذ وقفت ذلك اليوم على كتف الطريق بشارع الألفى ، ظل فى وسعك أن ترى الباعة يجوبون الحانات والأرصفة • الرجـل العجوز الذى يبيع أوراق اليانصيب •• والصـبى الممزق القميص الذى يبيع السميط •• والمرأة المتعبة التى تبيع الجـوارب •• وذلك الرجـل العجيب الذى يطوف بدراجته حاملا فوق رأسه عشرات الأطباق الممتلئة بالأرغفة ، وبائع الجمبرى ، وماسح الأحذية ، وبائعة السجق •• وآلاف

الآخرين الذين ينزفون عرقا أسود دافئا على نحو موصول من أجل القرش البراق الساحر ! !

وأنت لم تكن لديك فرصة واحدة .. ذلك ان جبينك لم يحبل أبدا بقطرة من العرق .. انك لم تعرف قط كيف تبكى الرجال من الجوع .. ثم ينطلقون فى مسيرة مسعورة لقهره فى النهاية عبر آلاف التضحيات المريرة القاتلة ! !

وأنت لم تكن لديك فرصة واحدة ..

ولقد أيقنت هناك على نحو مفجع أن القرش الذى يأتى بلا عرق .. يضيع أيضا بلا عرق ، وانك لم تتعلم طيلة حياتك سوى بذر النقود فى المستنقعات المالحة ! !

.. أما كيف يستخرج القرش من الصخر بالأظافر ..

أما كيف تتحول قطرة المطر الى سنبلة .. أما كيف يتبدل الألم الملتهب على الجبين الى عرق ناضح شذى ، فذلك ـ يا سيدى الديك ـ لم يبرق فى ذهنك المريض على الاطلاق !!

.. والجوع يذل أعناق الرجال .. فماذا لو رماك الله فى القاهرة الى الأبد بلا جواز سفر ليبى مزين بالكلمات الذهبية ؟

ماذا ـ يا سيدى الديك ـ لو رماك الله هناك ؟ ؟

٤ يناير ١٩٦٩



تعويضة

- أنا لا أدرى من أين تأتى تلك النتفة من القطن التى تجدها أحيانا فى تجويف سرتك !

كذلك قال « بيتر » يتثاءب فيما كان مستلقيا بجانبى على الحشائش فى حديقة المدرسة .

كان اليوم الدراسى قد انتهى ، وقد تعود الطلبة دائما أن ينتشروا فى تلك الحديقة خلال أيام الصيف الدافئة ، متوسدين كتبهم أو أحذيتهم .

كانوا قد قدموا من معظم بلاد العالم .. ورغم الشعور بالوحدة والغربة الذى ينتابك فى الأيام الأولى من دراستك ، الا أنك تكتشف بعدئذ أن فى امكانك أن تعقد صداقات طيبة معهم .

•• تطلع « بيتر » الى قرص الشمس بعين واحدة ، بينما أولج اصبعه داخـــل قميصه متحســـسا به سرته ، ثم التفت ناحيتي دونما اهتمام ، وقال :

– ان الأمر يبدو كما لو أن أمعائي تغزل القطن !

كان طالبا سويسريا ، وكانت ملابسه رثة أبدا ، وشعره غزيرا متهدلا فوق كتفيه ، وكان يشتغل بين حين وآخر في مطعم المدرسة ، ويقوم بغسل الصحون لـــكي يسد نفقات دراسته •• وكان متفوقا للغـــاية !

قلت له :

– ان هذا يحدث لي أيضا •

أراح رأسه فوق حذائه ثانية ، فيما ظل اصبع رجله الكبير يهز رأسه خارج الثقب الموجود في جوربه ، ثم قال مغمض العينـــين :

– أعتقد أننا لا نستحم جيدا •• أعني بما فيه الكفاية !

قلت له :

– أنا أعتقد ذلك أيضـــا •

•• وتثاءب بعمق ، ثم نهض مـــستندا على مرفقه ، وقال :

– انني أود ذلك حقيقة •• أعني أن أغتسل كل يوم ، ولكنني حين أفرغ من غسل تلك الصحون ، وأرجع منهكا

للبيت ، أتذكر على الفور أنه يتحتم على أن أغسل حوض الحمام أيضا بعد أن أستحم ، وعندئذ يتسطى شيء ما في دماغي ، وينصحني بأن أؤجل كل ذلك الى يوم آخر .. هذا كل ما في الأمر ! !

قلت له بلا اكتراث :

– هذا ما كان يحدث لى أيضا ، الى أن استشرت طبيبا ذات يوم فيما يتعلق بتلك النتفة .

– حسنا ، ماذا قال لك ؟

– لم يقل شيئا ، ولكنه وجد – فيما كان يفحصني – شيئا غريبا في تجويف سرتي .

سألني باهتمام :

– ماذا .. ماذا وجد ؟

قلت له :

– دودة القطن ! !

قال بخيبة دون أن ينظر الى :

– يا الهي ، أية كذبة هذه !

.. وأقبلت « كاترين » ،وافترشت الجريدة التى معها ، ثم جلست عليها بجانبها .

كانت تشتغل في قسم الاستعلامات بالمدرسة ، وكان

الجميع يدعونها « كـات » لأن عينيها الخضراوين تشبهان عينى قطة .. وكانت دائمــا لا تألو جهـدا فى مساعدة أى طالب .. ورغم الابتسامة الودودة المعلقة أبدا على شفتيها ، الا أنها بدت حزينة ذلك اليوم !

سألها « بيتر » بلطف :

– ما بك ؟ أنت لست على ما يرام ، أليس كذلك ؟

قالت مطرقة الرأس ، باستياء :

انى أفكر أن أترك العمل بهذه المدرسة .

ونظرنا تجاهها باستغراب ، على حين سألت :

– ما الذى حدث ؟

ونفضت بيدها فى ملالة قائلة :

– ان الأمر لم يعد يحتمل .. ألم تسمع ما حدث الليــلة المـاضية ؟

قال « بيـتر » :

– لا .. ماذا ؟

ولكنها عندما بدأت تحكى أدركت كل ما حدث .

كان ثمة مجموعة من الطلبة الليبيين قد قدموا للدراسة فى نفس المدرسة على حساب احدى الشركات ، وحين هبطت بهم الطائرة فى مطار « جاتويك » بلندن ، كان واضحا جدا

انهم سكارى للغاية ، فيما تأبط معظمهم زجاجات أخـرى كانوا قد ابتاعوها من الطائرة ذاتها ، وطفقوا يتجرعونها على طول الطريق فى الحافلة التى أقلتهم الى « بورمث » حيث توجد المدرسة .

كانت ادارة المدرسـة قد هيأت لجنـة لاستقبال أولئك الطلبة ، وكانت « كات » لسـوء الحظ ـ من ضمن أفراد اللجنـة .

كانت تلك أسوأ حفلة استقبال شهدتها « بورمث » . فما أن بدأ المدير فى القاء كلمة الترحيب المعتادة ، حتى انطفأت الأضواء فى أعين بعض الطلبة ، وأصابهم الدوار ، ثم شرعوا يتقيأون فى وسـط الصالة ، على حـين اغتنم الباقى هـذه الفرصة ، وهجموا على « كات » مثـل ذئاب مسـعورة ، مزمعين التهامها كلها .. حتى العظم ! !

قالت « كات » بعد أن فرغت من سرد حكايتها :

ـ ان الأمر لم يعد يحتمل حقا ، فهـذا يحدث بالاضافة الى ما لقيته فى السابق من طلبة مماثلين .. أعنى أساليب القرص ، والمغازلات الفاضحة ، والدعوات الشـبقة و .. و .. وغير ذلك !

كان الخجل يحرق جبينى ، وما كنت قادرا على أن أقول

أيضـا شيء لبعض الوقت ، فيما شعرت بأنني أتضاءل باطراد الى أن أصبح مجرد قملة ستلقى حتفها فى أية لحظة عـبر مقصلة ظفرين حاقدين !

كانت الشمس قد انبثقت ثانية من خلف ركام السحب ، ثم تطلعت الى « كات » وقلت لها بجدية مطلقة :

ـ ذلك يحدث بسبب رجل يدعى « تعويضة » !

واستفسرت قائلة :

ـ من ؟ تاويدا ؟ !

قلت لهـا مصححا :

ـ ان اسمه « تعويضة » وليس « تاويدا » ، هل سمعت عنه من قبل ؟

ـ لا ، أبدا !

جذبت آخر نفس من لفافتى ، واذ رميت بالعقب ، قلت باستغراق :

ـ حسنا ، انه ـ فى الواقع ـ نصف رجل ، وقـد كان يسكن دكانا فى زقاق قذر فى « الفندق القديم » ببنغازى ، وكان وجهه غير حليق أبدا ، وكانت عيناه قبيحتين مثل عينى صينى أحول ، كان فمه يكاد يكون أهتما ، أما بقية أسنانه فقـد كانت متسوسة ، كان حافيا أبدا .. وكانت ملابسه

مرقعة متسخة باتصال .. كان يرفع طرفى حاجبيه فى استجداء حين يتحدث، ناشرا خنصره الى أعلى عبر حركات يده المتموجة وكانت كلماته تنبعث خافتة متكسرة مثل آية عاهرة عجوز.. وكانت رائحة دكانه المعتم آسنة الى حد الغثيان .

والتفت « بيتر » الى « كات » وقال لها :

– لا تنصتى اليه ، لقد بدأ يكذب !

قلت له :

– أنا لا أكذب ، بيتر ، أقسم لك .

سألنى بصبر نافذ :

– حسنا ، ماذا يعنى ذلك ؟

– تقصد تعويضه ؟

قال :

– أجل ، تاويدا !

صمت قليلا متطلعا فى عينى « كات » الخضراوين ، ثم قلت :

– كان الصغار يأتون اليه فى دكانه ، كل الصغار فى بنغازى يترددون عليه باتصال ، مخبئا كل واحد منهم قرشين فى دكة سرواله .. كنا نذرع الخرب والطرقات بحثا عن النحاس.. كنا نسرقه أحيانا من بعض المخازن ، ثم نبيعه الى « سيدى

سعيد » البقال فى الفندق القديم ، ثم تحمل نقودنا بالتالى الى تعويضة الذى يدسها فى جرابه المسود بحرص بالغ ، ثم يحملنا فوق كتفيه ـ واحدا بعد آخر ـ ويطوف بنا بقاع العالم ، كل العالم ، فى لحظة واحدة !

زفر « بيتر » قائلا :

ـ أنا ـ على اللعنة ـ ان كنت قد فهمت أى شىء !

ونظرت فى عينى « كات » ثانية ، على حين تبدى فى خاطرى مرأى ساحة « الفندق القديم » الصدئة ، وحوانيت الحدادة ، والمحاريث والنوارج ، والعربات العتيقة المتحطمة، المكدسة هناك ، والقنابل المفرغة ، والخيول ، والحدوات الملتهبة ، وعجلات عربات « الكارو » القديمة ، والسكارى وباعة « الصفصفة » ، واللصوص الصغار ، والأتربة ، والصدأ ، والجدران المتهرئة ، والضجيج !

قالت « كات » :

ـ حسنا ، وماذا بعد ؟

ـ كان تعويضة يفترش دائما ذلك النطع المغسول منذ زمان فى « بئر الكلبة » ، وكنا ننظر اليه كما لو انه بساط الريح .. كان نصف رجل أحول ، كان قميئا متسخا .. ولكنه كان فى وسعه أن يحمل أيما أحد فوق كتفيه مقابل

قرشين ، ويذرع به كل الآفاق !

قال « بيتر » الذى بدأ يثيره الحديث :

– يا الهى ، هل تعنى انه ..

قلت مقاطعا :

– أجل .. أجل !

وسألنى على الفور :

– أ لايزال حيـا ؟

– لا ، لقد مات منذ زمن ، انه بالرغم من أنه كان يعيش بمفرده فى ذلك الدكان ، الأن وفاته اكتشفت فى نفس اللحظة التى مات فيها ، على أية حال ، أنا أعتبره حيا حتى الآن ، حيا على نحو ما ، أعنى أن المرء حين يأتى من بنغازى الى هنا يكون ــ فى الواقع ــ قد جاء ممتطيا ظهر تعويضة بطريقة ما ، هل تدرك هـــذا ؟

لكنه لم يقل أى شيء ، فيما فتحت « كات » عينيها الى آخرهما ، واكتسى وجهها بحمرة مفاجئة حين رفعت بصرى اليها ، على حين أخذ « بيتر » ينظر الى العمال الذين خرجوا من الباب المقابل حاملين جرادلهم وفرشاتهم .

كانوا قد فرغوا للتو من اعادة طلاء جدران دورات المياه الداخلية بالمدرسة ، التى كانت مليئــة بالكلمات القبيحة ،

ورسومات موشى دايان ونيكسون فى أوضاع مخجلة ! !

قال « بيتر » :

- لقد أدركت ما تعنيه ، وماذا أيضا ؟

أشعلت لفافتى الأخيرة ، وجذبت منها عدة أنفاس بعدما رميت بالعلبة المفرغة بعيدا ، ثم قلت :

- ان الأمر يبدو هينا حين يقتصر على هذا الحد .

وتطلعت « كات » باهتمام بالغ .. فيما واصلت حديثى شاعرا بمرارة قاهرة تسبح عبر صدرى :

- ان تعويضة لا يزال يحملنا فوق كتفيه حتى الآن . ولكن هذه المرة بالمجان ، انه يحملنا هناك بطريقة ما ، ويطوف بنا كل الأعراس الشبقة فى المدينة ، هل تعلمين ماذا يحدث بالضبط ؟ حسنا ، اننا نجلس هناك ، ونتجرع نهرا كاملا من الخمر ، ثم نطالب تعويضة من نوع آخر .. تعويضة آخر لا يرضى بمجرد القرشين ، اننا نطالبه بأن يرتدى زى امرأة ، ويقف بيننا .. ويرقص بشهية ، فيما نظل نعوى مثل ذئاب مسعورة ، زارعين كل أوراق نقودنا فى حزامه ، حالمين بحصاد آخر الليل .. وبساط الريح ! !

كنت أشعر برغبة ملحة فى أن أبصق فى وجه أحد ما ،

وكنت مغتبا على نحو يدعو الى الشجار ، غير أننى تطلعت الى وجه « كات » قائلا :

– هل يفسر لك هذا ما حدث فى الليلة الماضية ؟

هزت رأسها دون أن تقول أية كلمة ، على حين التفت ناحية « بيتر » ، الذى بدأ يتحسس باصبعه تجويف سرته ، وقلت له :

– معذرة ، هل لديك سيجارة ؟

●

●

●

●

٢٧ مارس ١٩٧١

فخاخ على طول الطريق

- أنا يا سيدى لست كذلك .. كل ما هنالك أننى كنت ذاهبا بعربتى مع صديقى هذا الى المصيف .

هكذا قلت للشرطى الذى بدا مزهوا للغاية حين سألنى على الفور :

- وماذا تفعل فى هذه الشركة الآن .. اه ؟

وخيل له انه اقتنصنى ، ولكنى أجبته بصدق :

- ان صديقى يشتغل هنا وقد أضاع مفتاح بيته منذ قليل ، وجئت به الى هنا بعدما أخبرنى أن لديه مفتاحا آخر بدرج مكتبه .. فى وسعك أن تسأله أيضا .

وصرخ فوق أنفى مثل لذعة سوط :

- لن أسأل أحدا ، اننى أعرف تماما انكم جئتم الى هنا من أجل الاضراب وتوزيع المناشير .. سترون .. سترون !

- ولكن اليوم يوم أحـد ، وليس بالشركة أى موظف أو عامل سوى الخفير ، فكيف أدعو الى الاضراب ؟

- أسكت !

- تستطيع أن ..

- قلت لك : أسكت !

كان ذلك فى يوليو .. فى السنة الماضية .

ولقد قدمت بعـدئذ عربة مكتظة برجال الشرطة على اثر المكالمة التليفونية التى أجراها الخفير .. الذى تبين بعدئذ انه مخبر سرى ، وقام الضـابط وشرطيان آخران بتفتيش السيارة ، واذ لم يعثروا على أى شىء مثير بها ، اقتادونى مع صديقى الى المركز . وفى الطريق قال لى أحدهم :

- هل تتوقعون انكم ستهزمون اليهود حين تدعون الى غلق المتـاجر ؟

وما أن واصلت صمتى دون أن أرد عليه ، حتى اقتنع تماما بأننى مجرم حقيقى ، وقد تطوع بدفعى من السيارة بعنف حين وصلنا المركز ، ثم أهدانى لكمة أخرى فى ظهرى ليرينى الطريق الى الداخل .

كان الأمر بالنسبة لى مجرد مسرحية هزيلة ، وان الستارة ستسدل بعد ساعة على الأكثر ، وينتهى كل شىء ، حتى عندما أقفل خلفنا الباب الحديدى الصدىء ، توقعت انهم سيكتشفون الخطأ فى الحال ، ويفرجون عنا .

ولكن ذلك لم يحدث .. وبات علينا أن ننتظر .. وننتظر !

كانت الحجرة معتمة على نحو موحش .. وثمة عند السقف تطل نافذة ضيقة جدا ، مرسلة بعض خيوط الضوء الشاحب ، وكانت تستلقى فى احدى الزوايا ترعة بول متخمرة فيما أنشأت الصراصير تسرح عبر المكان كله .. ولقد استندت على الباب ، وظل فى وسعى أن أشتم الرائحة الكريهة وأن أسمع صوت الصفعات والعويل المنبعث من المتهمين بتوزيع المناشير فى الصالة المجاورة ، وغربلت جسدى ارتعاشات باردة ، وتحدرت قطرات عرقى ، على حين طفق صديقى يربط أصابع يديه ببعضهما ، ويسير بين الزوايا بخطى قلقة .

— اجلس ، لا تدع القلق يأكل قلبك .

وصفع الجدار براحته قائلا :

– أنا لا يهمنى حتى أن أشنق ، ولكن عندما أكون قد فعلت ما يستحق ذلك .

– حسنا ، أعرف أنك برىء .. وأنا أيضا .

وانفجر على الفور :

– قل لهم هذا .. حاول أن تقنعهم اذا استطعت .

وجاء الشرطى بوجهه الحالك ، ونظر الينا من خلال القضبان ، ثم قال لصديقى بازدراء :

– كف عن النباح !

وألقى نظرة أخرى تجاهى ، حاملا بين عينيه تجاعيد الاستياء كأنه قد علقت بأنفه جثة فأر نتنة !

وأفرغ صديقى زفرة طويلة ، ثم جلس .

وفيما بدأت تلك النافذة الصغيرة تغلق عينها على نحو مطرد ، ولف الحجرة جناح موغل السواد ، بينما تسربت من الغرفة المجاورة بضعة أنات موجعة ، لاح لى أننى انفصلت تماما عن العالم .. وأن الله خلقنى وحيدا مهجورا كحزمة صبار فى عرض الصحراء ، وليس ثمة ما يمكننى عمله سوى أن أموت .. أموت فى هذا الركن المتعفن مثل جرذ جائع .

وإذ أخذت أسراب البق ترعى عبر جسدى ، قال لى صديقى :

- هل نمت ؟

- لا .. كيف أنام مع هذا البق ؟

وخيل لى أنه ابتسم ابتسامة مريرة خلف ستار الظلمة قبل أن يقول :

- أشعر كأننى دجاجة معبأة بالقمل فى قفص ضيق متسخ .

وبدا لى أن أعماقه قد انفرجت قليلا ، فقلت له :

- ما رأيك فى هذا المصيف الذى جئنا اليه ؟

- رائع .. رائع ، تمتع بهذه الرمال الدافئة ! !

كذلك هتف من الركن المقابل .. ثم سكت ، على حين انطلق خاطرى على جناح أسطورة :

وتهالك قارب السندباد فى مرفأ مدينة بعيدة .. واذ ألقى مرساته هنالك ، ودخل المدينة ، وجدها قد مسخت حجارة : كل الرجال ، والصبايا والأسواق ، والسلع ، والفواكه كلها .. كلها أصبحت حجارة . وفيما عقدت الدهشة أهدابه العليا بحاجبيه ، سار عبر الطريق بخطى فزعة الى أن وجد نفسه أمام قصر مذهب ، واشرأب عنقه داخل الباب ثم قادته قدماه الى الساحة المترفة بالضوء والهدايا . ووجد

رجلا قابعا هناك ، مقيدا بالأغلال داخل قفص ، بينما تحول نصفه الأسفل الى سمكة . وما أن لمح السندباد حتى طفق يبكي قائلا :

- ان زوجته تخونه مع عبد أسود ضخم مثل دب هائل ، وانه لما اكتشف ذلك وحاول قتل العبد ، اجتاح الغضب زوجته فجأة ، ومسخته بسحرها على هذا النحو ، ثم حولت المدينة الى كوم من الأحجار .

وبكى من جديد بدموع من دم ، وقال ان زوجته تأتى اليه كل مساء ، وتمزق جلده بسوط حاقد .. ثم ترحل .

وقال صديقى :

- لاشك أنهم سيفرجون عنا هذا الصباح .

- أرجو ذلك .

وحين استدعوه عند الظهيرة ، وخرج مع الشرطى ألقى الى ابتسامة مبتهجة ، وظن أنهم سيطلقون سراحه ، غير أنه رجع بعد ساعة ، وقذفه الشرطى بقسوة الى الداخل حتى استلقى على وجهه ، ثم تكور فى الزاوية مثل أرنب مذعور وقال دون أن ينظر فى وجهى :

- لقد ضربونى مثل كلب .. مثل كلب قذر .

وارتج شىء ما فى صدرى باحكام .. وماتت الكلمات ـ

كل الكلمات ـ على شفتى •• وأغمضت عينى فى وجه النافذة الضيقة المعلقة ، وخيل لى أننى أموت داخل قفص •

وعندما تقادم الليل ، وفد علينا رجل آخر ، وظل يصرخ بحدة دون انقطاع ، وما أن أغلق عليه الشرطى معنا حتى خلع حذاءه ، وأخذ يقرع به الباب ويصيح بحقد مفرط •

كان سكرانا ••

وقد حاولنا أن نهدئه قليلا ، واذ هده التعب بعدئذ ، واحترقت حنجرته من الصراخ ، اخبرنا بصوت واهن انهم حين قاموا بتفتيشه ـ عند الأحوال ـ وجدوا بمعطفه صورة لزوجته وأولاده ، وأخذوا يتطلعون اليها واحدا بعد الآخر ، وينفثون كلمات الغزل الشبقة الرديئة أمامه •

كان سكرانا ••

ولقد نهض مرة أخرى محاولا أن يحطم القضبان بقبضته ، صارخا بأعلى صوته :

ـ تعيش اسرائيل •• تعيش •

ونتر ذراعى جانبا حين أردت تهدئته ، وواصل صياحه :

– آه .. أين أنت يا موشى ديـان ؟

وجاءوا اليه بالأحزمة الخشـنة ، الا أنه لم يـكف عن الزعيق ، فيما بدا أمام عينى كأنه مقيد داخل قفص شائك وقد مسخ نصفه الأسفل سمكة .. سـمكة ممزقة من اثر السـياط .

٢٠ سبتمبر ١٩٦٩

جسر فوق المياه العكرة

حين تحتويك محطة « فيكتوريا » فى لندن ، وتحفر رأسك الأصداء المزعجة التى تبثها مكبرات الصوت ، ولهاث وصفير القطارات ، وصياح باعة السجق ، والبطاطس ، والصحف ، والتبغ فى الأكشاك المتناثرة ، ونداءات الحمالين الراكضين بعرباتهم المحملة بالحقائب ، رانيا الى اعلانات « النيون » المختلفة ، المتوهجة فوق الجدران ، والى ازدحام المسافرين .. ومشاهد الوداع ، عندئذ تظل تتطلع الى اللحظة التى يتلقفك فيها مقعدك فى القطار ، والى تلك الانطلاقة السلسة الصامتة لبداية تحرك العجلات فوق الشريطين الناعمين ، تاركا كل ذلك الضجيج خلفك !

كنت متجها الى المـانيا ..

وكان الجليد قد أخذ يسقط طيلة اليوم .. وكنت مرهقا للغاية كما لو أننى لم أنم لمدة أسبوع كامل ، واذ وضعت حقيبتى المعبـأة بالورق فوق الرف ، وجلست متملسلا فى مقعدى لاتخاذ وضع مريح مناسب للاستغراق فى النوم ؛ قالت الفتاة الجالسـة أمامى فى عربة القطار :

– يبدو أن احتفالات عيد الميلاد قد أجهدتك كثيرا .

وابتسـمت فى وجهها قائلا :

– أعتقـد ذلك .

كانت المـانية ، وكانت متجهة أيضا الى بون ، وكانت قبيحة بشكل يدعو الى النوم حقا !

عيناها الضيقتان جـدا ، ونظارتها الطبية السـميكة ، وشعرها الخشن المنفوش مثل قنفذ ، وجسمها النحيل كعصاة مكنسة .. وكنت أنا أشعر بالتعب .. وأود أن أنام .. أن يهبنى الله مقدارا هائلا من النوم مثل ميت .. مثل ميت تمـاما !

وشـعرت بالقطار ينزلق فوق الشريطين بهـدوء كامل ، فأزحت الاسطوانة التى كنت أحملها معى جانبا ، كانت تدعى

« جسر فوق المياه العكرة » ثم أخرجت الجريدة ، وقابلني على الفور الخبر التـــالي :

« وافق البرلمان أخيرا ـ بعد مناقشات استمرت خمسين جلسة ـ على زيادة ساعة واحدة للتوقيت المحلي ! »

وفيما استغرقت في قراءة تفاصيل الخبر شعرت أن الفتاة تطالع الصفحة المواجهة لهـا في نفس الصحيفة ، حتى اذا رفعت عيني نحوها ، أشارت الى المقال الذي يتحـدث عن انتهاء اضراب الكناسين .. وقالت :

ـ لقد استمر الاضراب خمسة أسابيع ، أنت تعرف ذلك، ووقعت حكومة المحافظين في مأزق تين .. وتكدست القمامة في طرقات كل المدن الى أن أجيبت مطالبهم .. أنت تعـرف ذلك .

ـ أجل ، ولقد طلبوا أيضا أجورا اضافية لازالة تـلك القمـامة التي تجمعت أثنـاء الاضراب ، قبـل الشروع في العمل .. وفعلا منحوا ما أرادوا .

هزت الفتاة رأسها وقالت :

ـ شيء رائع أليس كذلك ؟

ونهض فوق كتفي كل التعب المحزن مرة واحدة ، وقلت محدثا نفسي بخفوت :

— أجل .. أجل ، ولكن الضفدع الملقى فى قاع بئر سحيق يعتقد حين ينظر الى أعلى أن السماء باتساع فوهة البئر !

وتشاغلت بمسح نظارتها الطبية ، قائلة :

— أنت تهذى ، لاشك انك متعب حقا .

— هذا صحيح ، فلقد أرهقتنى احتفالات عيد الميلاد ، والأنخاب ، وتساقط الجليد .. وألف شىء آخر !

ثم تطلعت من النافذة الى الأشجار المارقة ، والتلال البعيدة الناصعة البياض ، وفيما جذبت أنفاسا عميقة من لفافتى ، عاودنى ذلك الخاطر القديم ، وطفقت — على الفور — أحلم بيثرب ، وبالأنصار !

قالت الفتاة لكى تشد انتباهى :

— ما أبعد الطريق .. أعنى الى بون !

— اغمضى عينيك ، وستجدين نفسك هناك ، الأمر يسير جدا !

— هل تزمع العمل فى « بون » ؟

— لا ، أنا لن أمكث هناك طويلا !

كنت متعبا ، ولا أرغب فى الحديث مع أحد ، ولكنها بدت طيبة للغاية .

قالت ببساطة :

— حسنا ، ماذا تشتغل هناك ، أعنى فى بلادك ؟

قلت كمن يلقى الكلمات مثلما ينفض الذباب :

— أنا أبيع الريح للمراكب الغارقة ، ولست أملك شيئا سوى حلم قديم ، واسطوانة تدعى «جسر فوق المياه العكرة» ، وحزمة ديون .. هل تفهمين ما أعنيه !

— أنت بدأت تهذى من جديد ، اننى لا أفهم شيئا !

وصمت قليلا ، على حين أخرجت « الكتاب الأحمر » من معطفها ، وشرعت تقلب أوراقه بلا مبالاة ..

كان الغلاف يحمل اسم ماوتسى تونج بحروف مذهبة ، وكانت تود أن تقول شيئا ما ، غير أننى بادرتها قائلا :

— حسنا ، اسمعى ما يقوله الكتاب الأصفر :

وكان السندباد يطوف باتصال حول أسوار بغداد ، وكان السلطان يتقعد عرشه المنحوت من زمردة واحدة ، متطلعا الى الحاشية بكبرياء وجلال .. كان السلطان يود أن يكون محبوبا ، خفيف الروح .. وكان ــ للأسف ــ يحفظ نكتة واحدة ، نكتة عتيقة يعرفها كل الحمالين ، وصيادى الخليج ، والمزارعين على طول النهر ، والجوارى والعبيد ، ولقد سعل ذات يوم للفت النظر ، ورددها على مسامع رجال

الحاشية الذين استغرقهم الضحك على الفور ! •• وابتهج السلطان للغاية ! ثم رددها مرتين فى اليوم التالى ، وضحك الجميع ، ورددها فى اليوم الثالث •• وضحكوا كالعادة ، وحين استمر يرددها شهرا كاملا ، أصاب السأم كل الرجال الى أن كفوا عن الضحك ذات مساء •• وقرروا الصمت فى وجه النكتة المحنطة •• عندئذ أحضر السلطان سوطه وألهب به ظهور الرجال ، ودعاهم « حيوانات لا تعرف الذوق » !

ثم تقول بقية الحكاية فى الكتاب الأصفر أن السلطان لم يعد محتاجا الى ترديد تلك النكتة ، وأنه أصبح يقتعد عرشه المنحوت من زمردة واحدة ، ويكتفى بأن يهز السوط فى صمت فى وجه الرجال الذين يستغرقون فى ضحك صاخب على الفور !

ثم تقول بقية الحكاية فى الكتاب الأصفر ان السندباد ظل يطوف حول أسوار بغداد جائعا منبوذا طيلة ألف سنة !

وأغمضت عينى ، شاعرا بالتعب ينخر فى كل عظامى •• ولم أعد قادرا على سماع ما تقوله الفتاة بوضوح ، وألقيت برأسى فوق مسند المقعد ، فيما عبرت ذهنى كل الأقواس الملونة الفاتحة أرجلها على كل الطرق ، واللافتات الملتهبة بالكلمات الفخمة ، وجموع الطلبة الصغار ، وعمال الموانىء

المنطلقين عبر الشوارع فى كل مناسبة .. والهتاف والضجيج والابتهاج بالعطلة غير المتوقعة .. وافتتاحيات الصحف .. والتعليق على الأنبــاء .

ثم رفعت رأسى ، وتطلعت الى القمم الثلجية الناصعة البياض ، قائلا لنفسى بصوت مسموع :

– لا تثــق فى افتتــاحيات الصحف ، ودعاء المنــابر ، والتعليق على الأنبــاء ، لا تفعل ذلك قط ، فالفقيه الذى يبيعك حجابا من أجل الحب والسلامة لا يحمل لنفسه ـ فى الواقع ـ أى حجاب مماثل ، لأنه ـ ببساطة ـ لا يثــق فى ذلك !

ورفعت الفتاة رأسها عن الكتاب ، وقالت :

– أنت بدأت تهــذى مرة ثانية !

– أنا أهذى بلاانقطاع ، كما ترين ، فماذا يقول « ماو »؟

وسحبت سبابتها المندسة فى وسط الكتاب .. وســوت نظارتها بعنــاية ، ثم شرعت تقرأ بصوت مرتفع :

– « لا يكفى أن نحدد المهمات فحسب ، بل علينا أيضا أن نحل مشكلة الأســاليب التى تمكننا من تحقيق هــذه المهمات .. ان مهمتنا كعبور نهر ، ولكننا لا نستطيع عبوره بدون جسر أو قــارب .. واذا لم نحــل مشــكلة الجسر

أو القارب ، فكل حديث عن عبــور النهر باطل ، وكذلك الحديث عن انجاز المهمات بدون حل مشكلة أساليب العمل هو مجرد ثرثرة » !

قلت لهــا على عادتنا فى النقاش :

– خــرفى ! !

كنت متعبا للغــاية ، وقد شعرت برغبة حقيقية فى الموت غير أن القطار كان قد توقف .. وكان يتعين علينا أن نغادره الى العوامة التى ستعبر بنــا مضيق « دوفر » الى محــطة « أوستند » على الساحل البلجيكى .

كنت قد جلست فوق السطح مستندا حقيبتى ، على حين أصاب الرواد بعدئذ دوار البحر ، وطفق بعضهم يتقيأ مدليا برأسه من فوق الحاجز ، بينما أخــذت أرقب نسور البحر المحلقة بكبرياء فى سموات الله ، قائلا فى ذات نفسى :

خــرفى ، يا رفيقة السفر ، أجــل .. خــرفى ، فأنا سيحتجزنى الشرطة بعد قليل حين يكتشفون أننى لا أحمل فى جواز سفرى تأشيرة عبور بلجيكا ، وســوف يحرر لى محضر بذلك،واذ أظل منتظرا أمام مكتب الضابط المختص ، سيمر بى بقية الركاب فى طريقهم الى البوابة ، وسوف ينظر الشرطة فى وجهى بريبة مقرفة معتقدين أننى سأخطف القطار

خرف ، فأنا لن يكون فى وسعى مواصلة بقية الرحلة ..
أجل خرف !

كان هذا ما حدث بعدئذ بالضبط .. وفيما كنت مستلقيا على المقعد العريض،متوسدا حقيبتى ، فى محطة «أوستند» ، كان المساء قد هبط كئيبا .. باردا ، وكان الجليد لا يزال يتساقط فوق زجاج المداخل والنوافذ ، ثم سحبت معطفى فوق رأسى ، وغمرنى على الفور نوم لزج .. دافىء ، ظلت تذرعه باتصال رؤى حلمى القديم عبر لهاث القطار التالى الى ألمانيا ! !

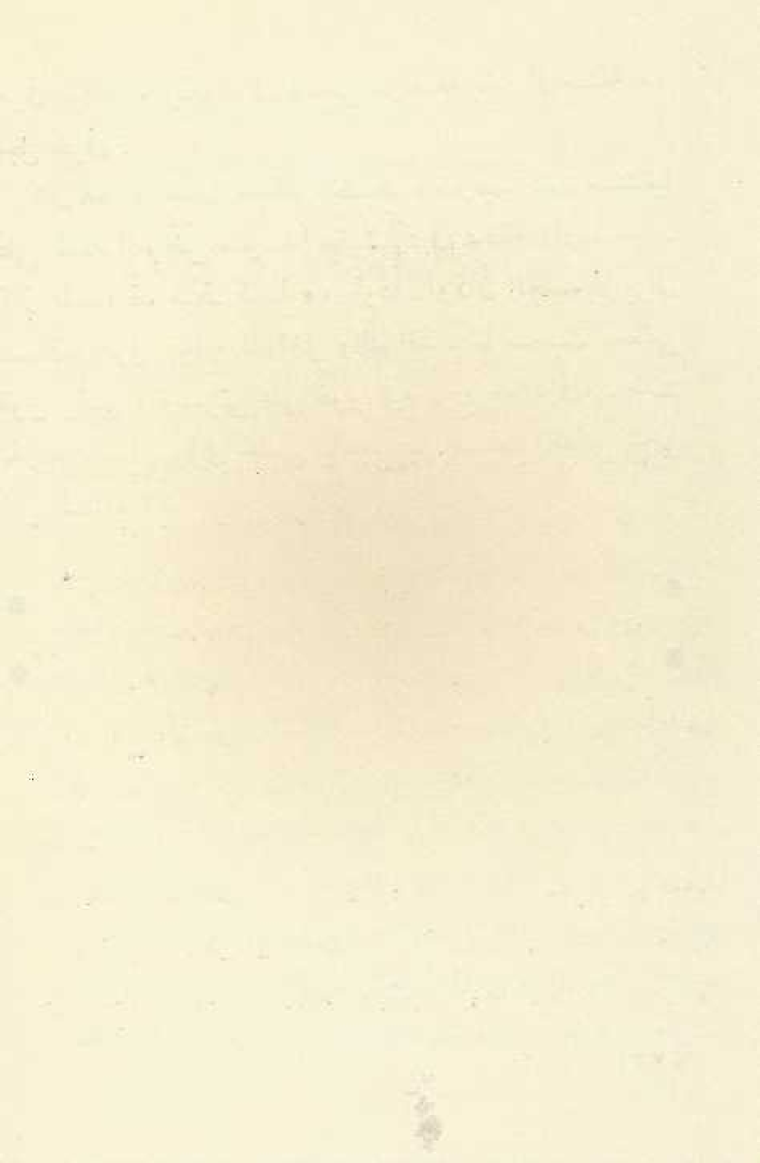
●

●

١٢ مارس ١٩٧١

●

●



لا تجر أمام الكلاب

« بورمث » مدينة مكتظة بالعجائز ، والكلاب ، والمداخن والغـربـاء .. وهى تحلم بالشمس أبدا ! !

انهـا تستلقى فى سكينة على شـاطىء البحر فى جنوب بريطانيا ، واذ تتفتق الشمس فى سمواتها الشاحبة بين حين وآخر خلال مايو ويونيو .. وربما يوليو أيضا ، تهرع كل البشر الى المصيف والحدائق العـامة حاملين معهم مظلاتهم الواقيـة من المطر المتوقع فى أية لحظة .. وكذلك الصحيفة اليـومية ! !

انك تراهم هنـاك غارقين فى ضوء الشمس ، مقتعدين الحشائش ، والرمال الدافئة ، والمقاعد ذات المساند المتكئة الى الخلف ، وفيما ترتشف مسامهم حزمة هائلة من شعاعات

الشمس ، يغطون وجوههم بالصحف ، ثم يستغرقون في سبات لذيذ خدر الى أن تلسعهم الريح الباردة القادمة من ناحية البحر .. عندئذ يتحسسون مظلاتهم متطلعين الى السماء بامتعاض .. ويزمعون مغادرة المكان !

ذلك يحدث أثناء الصيف ..

ولكن حين ينتهي يوليو ، لا يعود ثمة أمل في خيط واحد من ضوء الشمس ، على حين يوالى المطر هطوله في الطرقات الخاوية عبر الأماسى الرمادية .. وتنفح الحانات ضوءها الوردى الدافىء ، وصدى الأغنيات الجماعية المبتهجة ! !

وتشعر بالوحدة .

الشتاء المفجع هناك يشعرك بمدى وحدتك ، وليس ثمة ما يغمر قلبك بالدفء سوى أن تكون هناك عينان ودودتان تنتظران عودتك خلف باب بيتك .. ولكنك ـ في الواقع ـ تشعر بوحدة أقسى حين تدرك ـ فيما تعبر الطرقات تحت المطر ـ انه لا بيت لك !

أنا لم يكن لدى شيء من ذلك ..

واذ كنت أسير ذلك المساء في شارع «هولدن هارست» ظل بصرى معلقا بنوافذ البيوت الملتهبة بالضوء الوردى ، على حين بدأ المطر يسقط خفيفا ناعما في البداية ، وطفق المارة

يركضون على طول الأرصفة الى أن أصبح الشارع مقفرا تماما ، وعندئذ عرجت على بائع الصحف ـ صديقي العجوز ـ الذى أخبرني أنه سيقابلني فى تلك الحانة .

كان عجوزا عجيبا ..

ولقد اشتغل كبحار لمدة ثلاثين سنة تقريبا .. وكان لا يمل الحديث عن ذكرياته الشيقة بما فى ذلك الصوارى العملاقة .. والأشرعة الحبلى بالريح ، والأمواج الصديقة والكافرة ، والزوبعة المعتوهة المنذرة بقدوم المطر ، ومرأى اليابسة الضبابى ، وصياح الرفاق ، والشطآن الذهبية عند الغسق ، والمرافىء المرحبة على امتداد العالم ، والحانات الصغيرة المزدحمة ، والعرق ، ورائحة الشواء عبر رغرغة النبيذ ، والأغانى الصاخبة ، والعروق النافرة ، والبحارة السكارى بلا انقطاع ، والمخادع الوردية ، والنساء السمينات المجللات بالعرق ، والعطر الرخيص ، وسحابات الدخان ، والضحكات الصاعقة ، وكلمات الغزل المفتضح .. ومشاهد الوداع المشحونة بالأسى والأسف عند كل ميناء ! !

انه لا يمل الحديث ، كما لا تمل الاستماع اليه ، وعندما انتهى به المطاف على ناصية شارع «وندهام» ، ظل

يبيع الصحف ، وظل يمنحني الصحف اليومية بالمجان لكي أقرأها وأعيدها اليـــه !

كنت قد أخـــذت منه جريدة المســاء ، وكنت أود لو أقرأ أخبـــار الشرق الأوسط ، ونتائج المراهنات على الخيول ، ولكن المطر ظل ينهمر بشدة بحيث هرعت الى احدى محطات الحافلات القريبة ، واحتميت بهـــا •

كان ثمـــة فتـــاة تقف هنـــاك •

وكانت ترتجف مثـــل أسمال خيال المـــآتة فى وجه الريح وكانت ملابسها رثة كما لو أنهـــا قد قدمت للتـــو من سفر طويل ، وما أن وقفت قليلا حتى التفتت ناحيتي قائلة :

– معـــذرة . هل لديك كبريت ؟

– أجـــل •• أجـــل •

واذ التهب عود الثقاب بـــين قمع كفي ، وأخفضت رأسها تجاهه ، تبدى لى عبر بقعة الضوء وجهها الصغير الحزين ، حاملا بعض الملالة الواهنة الأهـــداب ، واللفافة المتجعدة ، وعندما رفعت رأسها لدى النفثة الأولى من الدخان ظل فى امكانى أن أرى لمعـــان الطريق المبلل يذوب فى سماء عينيها الهادئتين ، ثم قالت :

– الجو ردىء للغـــاية •• أليس كذلك ؟

– أجل ، للغـاية فالمساء يهبط هنا منذ الصباح – كما يخيل لى – والمطر ينهمر لكى يزيد الأمر سوءا !

وتطلعت فى عينى مباشرة ، قائلة بود :

– هـذا واضح ، فأنت ترتجف أيضا .

– حسنا ، أنا ليس لدى مظلة ، ولقد نسيت معطفى فى مـكان ما ! !

وصمتت قليلا ، ثم قالت بهدوء كمن يحدث نفسه :

– أنا ليس لدى مظلة أيضا ، كما ليس لدى معطف على الاطـلاق !

ولم أشأ أن أعقب بأى شىء ، غير أننى قلت فى ذات نفسى :

– نحن ، يا صديقتى لا نملك شيئا ، فهل ثمـة من حكى لك مرة عن سوء الطـالع ؟

وهممت – على الفور – أن أحكى لها عن « بنغازى » . لا أدرى لمـاذا ، ولكننى أدركت – على نحو ما – انهـا تعرف كل شىء .. لا أدرى لمـاذا ، ربما لأنها ذكرتنى بها . بأحيائهـا الطينية المتسخة ، بأطفالهـا الأوغاد اللطيفين .. بالسـأم .. بالتطلع .. غير أن الحافلة توقفت أمامنـا على حين فجأة ، وقبـل أن تلج اليها لوت عنقها تجاهى ، ونظرت مليـا فى سكينة .. وقالت :

— وداعـا !

وانطلقت الحافلة ، على حين ظللت أفـكر :

— كم مرة قيلت لى هـذه الكلمة : « وداعا » ، كم مرة أحسست فيها أن قلبى يصـعد الى حنجرتى الى حد تمنيت فيه لو أن فى امكانى أن أحرق كل الجسور خلفى •• كم مرة هربت دون أن يعلم أحد لكى لا أسمع تلك الكلمة فيما ظلت عيون الأصدقاء تنفتح بود فى قاع قلبى على نحو موصول •• كم مرة يموت الانسان ؟

كان المطر قد انقطع الآن ، فنفضت رأسى ، وقـررت أن أواصل مسيرى صوب الحانة •

كانت الريـح لا تزال تعـول ، وكان الطـريق مقفـرا تمـاما سـوى بعـض العـربات •• وكنت مقـرورا للغـاية ، وبينمـا كانت أوراق الأشـجار المصـطفقة على جانب الرصيف تمطرنى بوابل من قطرات المطر التى كانت متعلقة بها ، أخذت أرسل بصرى بين حين وآخر نحو الدخان المتصاعد من مـداخن البيوت •• والنوافذ الملتهبة بالضوء الوردى •• الى أن وصلت الحانة فى شارع « باث » :

كانت تدعى « القرصان » !

وكان ثمة رسم جمجمة وعظمتين على واجهتها •• وكان مدخلها يشبه الى حد كبير باب غرفة الربان فى سفينة قديمة ،

بما فى ذلك المقبض النحاسى المثبت بالباب على شكل عجلة قيادة احدى المراكب .

أدرت المقبض ، ودلفت الى الداخل ، على حين التفت الى جميع الرواد حين لسعتهم دفقة الريح الباردة التى دخلت معى عندما فتحت البـاب ، غير أننى اتجهت نحو « البـار » ، وحييت النـادلة طالبا منها كأسا من الـ « بكاردى رم » ، وحين شعرت به ينفذ داخـل جوفى مثل خيط من اللهب ، نظفت حنجرتى بسعلة خفيفة ، وطلبت كأسا آخر ، ثم شرعت أتطلع الى الحانة بامعان .

كانت تشبه من الداخل احـدى السفن القديمة تماما : الجدران المغطاة بألواح خشب السنديان اللامعة ، والمصابيح الخافتة .. وصور القراصنة والبحارة المثبتة هناك ، والشباك المتهرئة .. وحبـال القنب المتدلية من السقف ، والمرساة الصدئة ذات السلسلة المعقودة حول احـدى العرصات الخشبية المتشققة ، وماسورة المدفع النحاسى العتيق المعلقة فوق « البـار » مباشرة ، والمقاعد الجـلدية ، والمجاديف المسنودة فى أقصى الزاوية ، والأرضية المفروشـة بسجادة كبيرة حمراء .. على أن أكثر الأمور اثارة فى الحانة هو تلك النافذة الزجاجية المحفورة فى الجدار الشمالى .. انها تشبه

نافذة غرفة الربان تماما ، اذ عن طريق أضواء بعض المصابيح المصوبة تجاهها يظل فى امكانك أن ترى زرقة السماء السحيقة وتدافع السحب الريشية المتحركة عبر أبعادها ، حتى اذا أدمت النظر اليها خيل لك انك مسافر الآن على ظهر احدى السفن ! !

لا أدرى لماذا كنت أرتاد دائما نفس الحانة ، بالرغم من أننى كنت أسكن فى مدينة أخرى تبعد حوالى سبعة أميال ، ربما لأننى كنت متشوقا أبدا الى الرحيل ، وربما لأننى كنت أؤمها مع صديقتى التى عادت الى « جنيف » منذ ثلاثة أشهر ، وربما لأنها المكان المفضل لصديقى العجوز ، بائع الصحف .. أنا — فى الواقع — لا أدرى بالضبط ! !

وجاء « تشارلس » العجوز .

كان قد زرع غليونه — كالعادة — فى لحيته الكثة ، مرتديا قبعته التى تشبه قبعات البحارة اليونانيين ، فيما كانت عيناه الصافيتان تشعان بريقا وهاجا رغم كبر سنه .. كان قد خلع قفازه ، وأخرج غليونه من فمه ماسحا بكم يده الأخرى على وجهه ، ثم تمخط وقال لى :

— كيف حالك أيها الولد المزعج ؟

— جيد .. الى أن أتيت .. ماذا تشرب ؟

أشار الى كأسى ، وقال :

– **نفس الشيء .**

وعندما أحضرت له النادلة كأسه غمزها مبتسما على الفور ثم طلب منى أن نحمل كأسينا ونجلس حول تلك المائدة .

– العجائز لا يستطيعون أن يقفوا طويلا .

كذلك قلت له .

– أستطيع أن أقف على رجل واحدة مثل صارى سفينة الى أن تصبح مخلوقا ثريا !

وضحك بصوت مرتفع أثار انتباه جميع الرواد ، ثم مسح أنفه بظهر كفه وقال باهتمام :

– لقد حاصرنى المطر فى الطريق فدخلت حانة « الكهف » وقد وجدت كثيرا من العرب هناك . هل رأيتهم ؟

– لا ، لا أحب تلك الحانة !

– حسنا ، دعنا من ذلك ، قل لى : متى وصلت من « نوتنجهام » ؟

– الليلة البارحة !

– قلت انك ستأتى قبل ذلك !

سكت قليلا ، وقلت :

– لقد وجدت أصدقاء من بنغازى هناك ، وكانوا

لا يريدوننى أن أرحل •

كان يدرك بماذا أشعر فى تلك اللحظة ، لكنه أراد أن يكايدنى فقال ضاحكا :

— لا أدرى ماذا يريدون من رجل مفلس مثلك !

ثم نهض متجها الى جهاز الاسطوانات ، وأدخل قطعة العملة ، ثم ضغط على زر معين ، وعندما جلس ثانية انبعث صوت المغنى بحرارة :

« كنت أسافر أبدا من مكان الى آخر
وقد وجدت الناس يشبهون بعضهم تماما
لأننى — ببساطة — أحببتهم جميعا
وكان ذلك مؤلما للغاية
لأننى كنت أسافر أبدا من مكان الى آخر »

كان يحب تلك الأغنية كثيرا ، وكان يشرع فى ترديدها ، وهز رأسه بمجرد سماعها مباشرة ، وعندما انتهت قال كالعادة :

— أغنية قديمة جدا •• لكنها جيدة !

— أجل •• أجل •

— حسنا ، دعنا من ذلك ، قل لى : هل راهنت على الخيول فى الأسبوع الماضى ؟ لقد كنت تود ذلك دائما •

– لا ، ولكنى راهنت على الـكلاب !

كانت الكلاب تصف فى أماكن متجاورة تشبه الصناديق ، وكان يوضـع أمامها أرنب كهربائى ؛ وما أن تطلق الاشارة فى هذا السباق حتى تفتح واجهات الصناديق وتنطلق الأرنب أمام الكلاب التى تعدو خلفها حتى نهاية السباق ، وعندئذ تدخل الأرنب فى ثقب معد لهـا فى جوف الأرض ، ويعين – بذلك – الكلب الفائز ! !

سأل العجوز :

– وماذا حدث ؟

– حسنا . لقد وقف الكلب الذى راهنت عليه ، وأخذ يبول فى نصف المسافة ! !

ضحك « تشارلى » بصوت صاخب ، ثم قال بعدئذ :

– هـذا من سوء حظى !

وطلب كأسين آخرين على حسابه – ثم طفق يهز اصبعه فوق أنفى قائلا :

– أنا أكره الكلاب ، وقد قلت لك ألف مرة ألا تراهن عليها ، ولكنك ولد معتوه .. الأبله وحـده هو الذى يثق فى الكلاب الزانية ! !

وسكت قليلا ، ثم أضاف :

– راهن على الجياد فقط ، اذا كان لابد أن تراهن ، انها لن تخذلك قط ، حتى وان خسرت مرارا ، راهن على الجياد، أقول لك ، اذا لم تكف عن ذلك الحلم الأخرق ! !

كنت أريد أن أحــكى له عن مساوىء الثقة فى الجياد ، ولكن فتاة دخلت الى الحانة ، وجلست وحيدة تتجرع كأسها متطلعة بين حين وآخر الى صورة أحد البحارة فوق الجدار .

كان وجهها مألوفا لدى ، وكنت متيقنا أننى رأيتها من قبل فى مكان ما ، ولكننى لم أستطع أن أتذكر أين بالضبط .. لاحظ العجوز شرودى فقال :

– هل تعرفها ؟

– وجهها غــير غريب على ، اننى أحاول أن أتذكر أين قابلتها من قبل ؟

قال « تشارلى » :

– هذا من أمراض الرحيل والغربة ، صدقنى ، ان كل وجه تراه فى البداية يذكرك بوجه آخر فى بلادك ، ثم حين يطول بك المدى عبر أرض الله تختلط فى رأسك كل الرؤى والذكريات والوجوه ، الى حد تعتقد فيه انك أصبت بداء النسيان ، ولكنك بالرغم من ذلك لا تستطيع أن تــكف عن الرحيل ، حتى وان عدت الى بلادك ، صدقنى !

وأشعل غليونه مرة أخرى ، ثم جذب منه بضعة أنفـاس متتالية ، وقال :

– أنا بائع صحف الآن ، وغير متزوج ، ولكن لدى ولد، على الأقل فى كل مدينة بها مرفأ ما ، انني لا أعرفهم بالطبع ، ولكن مرض الرحيل لا زال يعتادنى باتصال ، أقول لك ، صدقنى ، اننى أتمنى ألا تصاب بذلك قط !

قلت له بعد أن طلبت كأسين آخرين :

– ان أحدا لا يستطيع ذلك ، أعنى أن أحدا لا يقدر أن ينزع ذلك الحنين الشره الى الرحيل من قاع قلبه ، ان الأمر يبدو كما لو أن مجموعة من الكلاب المسعورة تعدو خلفك، الى أن ترحل ، ثم لا يكون فى امكانك بعدئذ أن تكف عن ذلك .. ان صفير قطار ما أو باخرة ، أو صوت محرك سيارة أو طائرة ، أو توديع صـديق فى احـدى المحطات الصامتة الكئيبة ، كل ذلك يجعل قلبـك يقفز بنزق ، ويدع عينيك تتطلعان بحزن الى البعيد .. الى أبعد نقطة فى العالم . ان الأمر يـبدو ـ قلت لك ـ كما لو أن كلابا مسعورة تعدو خلفك !

قال العجوز بغضب :

– لا تجر أمام الـكلاب ، اسمع ، انت ولد مجنـون

حقا . ولـكنك لا تستحق ذلك . صـدقنى : ان الكلاب الزانية لم تخلق الا لـكى تجر الزحافات فـوق الجليد فى أقصى الشمال ، المرء يحثها لكى تفعل ذلك ، والا يشنقها من ذيولها فى وجه العواصف الثلجية حتى تصبح مثـل كلاب حجرية .

– لقـد اعتقدت أن ..

قاطعنى بانفعال :

– أسكت ، لقد رمانى الله أخـيرا فى هذه المدينة مثل مرساة مقطوعة ، لكننى أعرف الكثير ، اسمع : لا تجر أمام الكلاب .. لا تفعل ذلك قـط . أقول لك ، قف فى وجهها على الفور ، وانظر فى عينيها بصلابة وجرأة : عندئذ ستكف عن النباح ، وتهز ذيولهـا ببلاهة ، ثم تلعق قدميك مثل أى كلاب زانية ، صدقنى ، أنا .. على اللعنة ، ان لم أكن أعرف هذا معرفتى لحماقة التيارات !

وتجرع بقية كأسه دفعة واحدة ، وأشعل غليونه ، ثم جذب قبعته ومسح بها وجهه وقبة رأسه الصلعاء ، وقال فيما كان يسويها فوق رأسه :

– أنا لا أفتأ أهذى مثل واعظ أحمق .. اتفـو !

وطلبنا بعدئذ عدة كؤوس ، على حـين ظللت أتطلع الى

النافذة الزجاجية المحفورة فى الجـدار ، والسحب الريشية المتدافعة ناحية الشرق ، والسماء الكلية العمق والزرقة .

لقد بدأت أشعر ــ بطريقة ما ــ ان الحانة قد بدأت تهتز بى مثل سفينة تماما ، وأن أحدا ما قد رفع مرساتها منذ قليل، وطفقت تنزلق بيسر بالغ .

كان فى امكانى أن أسمع ضجيج البحارة فوق السطح ، مستغرقين فى شـد الحبال .. ونصب الأشرعة ، وأن أرى النوارس تحلق باتزان وسـلاسة على طول الشاطىء ، وأن أشهد مدينة « بورمث » تبتعد قليلا .. قليلا ، غارقة فى قاع ملىء بالعجائز ، والكلاب ، والمداخن ، والغرباء .

لقـد ظل فى وسعى أن أسمع ارتطام الأمـواج بجانب السفينة : كان صوتها يشبه صفيقا مبتهجا حادا .. وكانت « بنغازى » تتراءى أمام عينى مثل أميرة مجنحة تنتظر على رصيف المرفأ .

كان ضوء منارة الميناء فى مدينة « بول » قد بدأ يخبو ــ فى آخر النهار ــ مثل نجمة مضاعة بعيـدة الأغوار ، وكان

البحارة قد شرعوا فى احتساء النبيذ فوق السطح ، وطفقوا يغنون بصوت واحد ، وبابتهاج :

« هناك ، عند الساحل الفضى
فى كوخ فوق التلة المرتفعة
فتاة حزينة للغاية
لكننى أحبها كثيرا ! »

كانت السحب فى النافذة الزجاجية تتدافع ناحية الشرق ، وكنت أشعر بالاثارة على نحو بالغ ! !

● ●

٦ مارس ١٩٧١

● ●

احزان قديمة

رحلتك طالت .

طالت الى مدى لم تعد تعرف فيه من أين بدأت .. والى أين يريدك الله أن تذهب .. وأنت لا زلت تذرع أرض الله بلا زاد تحمله معك سوى رؤاك القديمة ، وذكريات التسول على باب الأصدقاء ، وانتظار الصدقات خلف السور ، والحلم – عبر المطر – ببيت .. بكوخ ملون ، وشمعة ، ونار ، وزوجة نحيلة تطهو لك طعاما جيدا ، وكلمتين مبهجتين مثل عيني طفل ! !

رحلتـــك طالت .

ولقد شعرت مرارا بأن ثمة شيئا يغتم فى قاع قلبك مثلما ينتابك ذلك الاحساس المفاجىء حـين يلج بك القطار أحد الأنفاق الطويلة المعتمة ، فيما كنت تتطلع من النـافذة الى الحقول والمراعى الغارقة فى ضوء الشمس على مدى البصر !

ولكنك لم تـكن تملك تذكرة من أى نوع ، وقـد مل الكمساريون من شدك من أذنيك مثل أرنب ، واخراجك من مراحيض القطارات المختبىء فيها ، ثم دفعك خارج القطار فى المحطة التـالية ! !

□■□

رحلتـــك طالت .

وأنت لا تملك سوى حذائك القديم ، ورغبتك الحمقاء فى التطلع الى أقصى مدى ، على حين تعشعش فى رأسك كل الرؤى ، وتظل تقاسى عـذاب غياب الكلمات .. وعيـون الأصدقاء ، والحروف الباردة المعلقة على واجهات المحلات الكبيرة : « ممنوع الدخول بلا رباط عنق » !

□■□

رحلتـــك طالت .

وتقول لك العجوز التى تسكن معها :

– أريدك أن تخلى لى الغرفة .

– لماذا ؟

وتتوقف الابرتان فى أصابعها عن الغزل ، قائلة :

– معذرة ، ولكننى أحتاج اليها !

كان ثمة سريران فى تلك الحجرة ، وتكتشف بعدئذ أن العجوز تريد أن تؤجرهما معا لطالبتين سويديتين ، ثم تكتشف أيضا أنها قد سئمت رائحة جواربك ، وتدخينك حين استلقائك فوق السرير ، مستغرقا فى قراءاتك الغبية الى آخر الليل .

وتحك رأسك كالعادة ، ثم تقول لها بهدوء :

– أنا ، يا سيدتى ، غريب محترف ، وقد نمت فى كل مكان ، بما فى ذلك المحطات ، والأرصفة ، وصناديق الهاتف العامة ، والحدائق .. ولست آسفا قط على مغادرة هذه الغرفة .. الآن !

ولكن حين تحمل حقيبتك ، وتخرج الى عرض الطريق ،

تدرك انك كنت تتحدث بكبرياء أجوف .

كان المطر قد بدأ ينهمر .

وطفقت السناجب تتسلق أعناق الأشجار بخفة مطلقة .

ولقد عرجت على بائع خردوات ، وعرضت عليه أن يشترى منك حزمة كتب ، واذ شرع يقلبها بين يديه ، قال دون أن يرفع رأسه عنها :

– هذه كتب لا قيمة لها : معذرة ، أعنى لا أحد يقرأ الشعر فى هذه الأيام !

وسكت قليلا مقلبا شفتيه بامتعاض ، ثم تطلع فى وجهك وقال بفتور :

– على أية حال ، أستطيع أن أدفع خمسة عشر شلنا من أجلها .. ماذا تقول ؟

وتحمل كتبك وتذهب دون أن تقول كلمة !

ويواصل المطر هطوله ، ويظل فى امكانك أن تسمع خشخشة أوراق الأشجار عبر ركض السناجب فوق الأغصان ، وترفع ياقة معطفك محاولا احتباس بقية الدفء فى أعماقك ،

ثم تقرر العودة الى نفس البائع من أجل بضعة الشلنات ، قائلا فى ذات نفسك :

— الشعر ، فعلا ، لا قيمة له ، والكلمات — كل الكلمات — مجرد بنات زنا ، الحقيقة الوحيدة هى : الجوع ، والوحدة ، والمطر ، والسناجب الباحثة عن مأوى ، ليس ثمة شىء آخر ! !

□■□

رحلتك طالت .

ولم يعد لها ذلك المذاق السابق ، لقد غدت كما لو تدخن لفافتك فى وجه الريح العاصف ، على حين أضعت عمرك فوق أرصفة المقاهى والمحطات كأنك تنتظر أحدا ما فى أية لحظة ، ولم تعد تحلم — أحيانا — بغير الأرغفة ، وعلب السجاير ، وبعض القهوة ، انك تحلم بذلك حتى يظل فى امكانك أن تشم رائحة طعام الغداء حين تلج عتبة بيتك فى مدينتك النائية ، ورائحة « الكسبر » المتصاعدة مع أبخرة الفنجان الصباحى !

انك تظل تحلم بذلك الى أن يتبدى أمام عينيك مرأى

الانسان حين يتجشأ بارتياح ، ماسحا على بطنه نصف مغلق العينين ! !

فماذا يجدى الشعر ؟

ماذا يجدى الشعر للغرباء الذين يحلمون أبدا برحيل آخر ؟ !

□ ■ □

رحلتك طالت .

وتقول لك « سوزان » النادلة فى مقهى « فانيس » :

– ألا تنوى دعوتى للعشاء ذات مرة ؟

كانت صفيقة الى حد مخجل ، وكانت تعتقد دائما انك طالب كويتى ، وكانت تعرف بالتجربة انك اذا دعوتها للعشاء فانك ستصحبها بعدئذ الى احدى المراقص أو الحانات ثم تحضر لها هدية صغيرة فى اليوم التالى على عادة الطلبة المتخمين !

وتطرق رأسك مليا ، ثم تقول لها :

– انني ، فى الواقع ، قد جئت لكى اقترض منك مبلغا ما !

ويكتسي وجهها بالذعر على الفور ، كما لو أنك قد وطأت على ذيل قطـة ، ثم تتطلع اليـك بازدراء واضح ، وتترك المـائدة .

كان ثمة طالبان يجلسان حول المـائدة المجاورة ، وكان أحدهما يحكى - ببساطة - عن خسارته الليلة الماضية فى نادى « كيرزون » للقمار .. كان قد خسر أربعين جنيها ، وكان ينوى تعويض ذلك بالذهاب مرة أخرى الى هناك ، وفيما كان الحسد يحرق أمعاءك ، أقبل صديقك « جو » .

قال بينما كان ينفض معطفه :

- الجليد سقط مبكرا هذه السنة !

- أجل ، مبكرا .

- قل لى ، أين كنت خلال اليومين الماضيين ؟

- لقد انتقلت للسكن فى مدينة « بول » .. هـذا كل ما هنالك .

قال متهللا :

– هل تحصلت على عمل ؟

– لا ، لم أتحصل على تصريح بعـــد •

ويطلب قهوته ، واذ يلاحظ الكتاب الذى أمامك ، يسألك:

– حسنا ، ماذا كنت تقــرأ ؟

– كتاب همنجواى : « عيد متنقل » •

– أوه ، أنا لم أقــرأه بعــد !

وتقول له :

– انه يحكى بداية حياة همنجواى ككاتب •

اسمع ما يقوله هنا :

« •• حين لا تنال كفايتك من الطعام فى باريس ، تشعر انك جائع للغاية ، ذلك أن كل المخابز تعرض باتصال أشياء شهية فى واجهات المحلات •• انك تتطلع أيضا الى الناس المستغرقين فى الأكــل حول موائد المطاعم المنتشرة فــوق الأرصفة ، ويظل فى امكانك أن ترى ، وتشم رائحة المأكولات• فأنت عندما تكون قــد تركت عملك كصحفى ، ولم تعــد

تكتب أى شيء مما يود أحد ما فى أمريكا شراءه ، مما يفسر لأهلك هناك انك تستطيع أن تصطحب صديقا معك لتناول الغـداء معـا ، عندئذ فان أروع مكان يتعين عليك الذهاب اليه فى باريس هو حدائق « لوكسمبورج » ، حيث لايكون فى وسعك أن تشم أو ترى أيما شيء يؤكل .. »

أنت تدرك ماذا يعنى هذا .. أليس كذلك ؟

وقال « جو » بخفوت :

– أجـل .. أجـل !

□■□

رحلتـك طالت .

وهاأنت تذرع شوارع « بون » عبر الجليد ، متطلعا الى المـارة الغارقين فى الفراء حتى رؤوسهم ، باصقا قلبك فوق كل الأرصفة ، حاملا فى جراب صدرك ذكريات التسول على باب الأصدقاء ، وانتظار الصدقات ، ومرارة غياب الكلمات ، وعيون الرفاق على طول الطريق ! !

ها أنت تخوض عبر الجليد بحذائك القــديم ، الى أن تقودك قدماك الى حيث ينتصب تمثال « بيتهوفن » .

كان قــد طرد من بيت الى آخر آلاف المرات باعتبار انه كان مخــلوقا مزعجا .. وكانت موسيقاه صــاخبة الى حد لا يحتمل ! !

انه يقف فوق تلك القاعدة الآن .

وشرعت تنظر اليــه ..

كان يبكى بدموع نحاسية ، وكانت كتفاه وعباءته مغطاة بالثلج ، وكانت يده اليسرى فى وضع غير مستريح ! !

كان يقف فى الميدان وحيدا عــبر عاصفة الجليد ، وكنت أنت مقرورا للغاية ، فيما شعرت بأن ثمة شيئا ينقبض فى قاع قلبك ، مثلما ينتابك ذلك الاحساس المفاجىء حين يلج بك القطار أحــد الانفاق الطويلة المعتمة ، بينما كنت تتطلع

من النافذة الى الحقول والمراعى الغارقة فى ضوء الشمس على مدى البصر !

فمن يشترى كلمات مثل عيون الاطفال ؟

من يشترى كلمات مرصعة بالدموع النحاسية مقابل رغيف ؟

أجل ، مقابل رغيف ! !

من يشترى ؟ ؟

• •

٢٠ مارس ١٩٧١

• •

« مطابع دار الحقيقة – هاتف ٨٦٦٧٧ بنغازي »



« ... كفرت بالأحجية ..

وطفقت أذرع طريقي باحثا عن المحبة في عيون الأطفال ، والنمال السارحة في سفح الجدار ، والأعشاب المبللة بندى الفجر ، والاحساس بتنفس الأرض تحت قدميك ، والسماء ، والضوء المنبت ، وحنين الأمهات ، وشخير القطط الدافئة ، وهجرة الطيور ، وتثاؤب العصفار في ليالي الشتاء ، وتدفق الأنهار صوب البحر ..

ظللت أذرع طريقي طيلة سنين . وشعرت أخيرا بالاعياء والتعب ، ثم قيل لي في النهاية أن المرء ، لكي يحب حقا ، لابد أن يموت . أن يموت في الحب . أعني ، هكذا ، على طريقة الفراشات ، والأنهار ، والحلاج ».

خليفة

من مقال : « موسم الحكايات »



دار الحقيقة - بنغازي

الثمن ٧٥٠ درهما